روبرت شولز

السيمياء والتأويل

ترجمة: سعيد الغانمي



المؤسسة العربية للدراسات والنشر



السيمياء والتأويل



المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:

بيروت، ساقية الجنزير، بناية
برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي، هـ ٨٠٧٩٠٠/١
تلكس، LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

التوزيع في الأردن:

دار الفارس للنشر والتوزيع: عمان
ص.ب: ٩١٥٧، هاتف: ٦٠٥٤٣٢، فاكس
٦٨٥٥٠١ - تلكس ٢١٤٩٧

الطبعة الأولى

١٩٩٤

روبرت شولز

السيمياء والتأويل

ترجمة: سعيد الغانمي





هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب :

Semiotics and Interpretation
Yale University Press, 1982



المحتويات

توطئة ٩

مدخل ١٣

١ ـ الإنسانيات والنقد والسيمياء ٢٠

٢ ـ نحو سيمياء للأدب ٤٣

٣ ـ سيمياء النص الشعري ٧١

٤ ـ السرد والساردية في الفلم والقصص ١٠٣

٥ ـ مدخل سيميائي للسخرية في الدراما والقصص ١٢٥

٦ ـ المداخل السيميائية لقصة «ايفلين» لجويس ١٤٧

٧ ـ «قصة قصيرة جداً» لهمنغواي عملاً ونصاً ١٨٣

٨ ـ جسم المرأة نصاً ٢١٥

مسرد المصطلحات السيميائية ٢٣٩

ثبت المصطلحات ٢٥٣



تـوطئـة

لقـد كـان التـعـدد والاخـتـلاف من نصيب السيمياء منذ لحظات مـيـلادها بوصـفـها العلم الذي يدرس العلامات والنظم الثقافية . وفي الحـقـيـقـة فانها شهدت لحظتي ولادة في مكانين وزمانين مختلفين . ففي الوقت الذي كان فيه عالم اللغة السويسري فيرديناند دي سوسير (١٨٥٧ ـ ١٩١٣) يدرس علم اللغـة مـعتقداً انه سيكون جزءاً من علم اكبر هو السـيـميولوجيا ، كان المنطقي الامريكي تشارلز بيرس (١٨٣٩ ـ ١٩١٤) يبشر بمـيلاد علم جديد يكون أساساً للمنطق هو السيميوطيقا أو السـيـمياء، وفي حين جعل سوسير نظامه ثنائياً ، جعل بيرس نظامه ثلاثيـاً. ثم طور تلاميذ كلا العالمين مشروعيهما كلاً بمعزل عن الآخر، فطعّم الشكلانيـون الروس ، ولغـويو مـدرسـة براغ ، وبنيـويو مدرسة باريس لسـانيـات دي سوسير ، بينما استمرّ مشروع بيرس لدى موريس وكـارنـاب وسـواهم . ومـا زال الاوروبيـون (ولا سـيما في العـالم الناطق بـالـفـرنسـيـة) يؤثرون مـصطلح دي سـوسير ، بينما يؤثر الامـريكيـون مـصطلح بيرس ، ويزداد انقسام السيميائيين فيما بينهم بالقضايا المتعلقة بالأدب ، اذ تختلف المقـاربات ليس فـقط باختلاف الأجناس الأدبية ، بل باختلاف المدارس أيضاً.

وإذا كـانت السـيمياء موضوعية منذ نشأتها . فانّ التأويل لم يكن كـذلـك . لأنـه بـدأ في الأسـاس ، ربما مـع بدء اللغـة ، من الاهتمام بالبحث عن المعنى القصدي الذي يخفيه المؤلف في مكان ما من نصه . ولذلك فـقـد احـتـضنت التأويل الاتجـاهات الفلسـفـية والأدبية الذاتية والشـخـصـانية والظاهراتية ، التي تهتم بذوات المؤلفين في محاولة لترميم

المعاني الكامنة ضمناً في نصوصهم . غير ان هذا «التأويل» سرعان ما تعدد وانقسم أيضاً . وهكذا ظهر التأويل بمعانيه الموضوعية والذاتية والنصية واللغوية والتشريعية ، لينافسه فيما بعد ما وراء التأويل ، وضدّ التأويل ، وتأويل التأويل .

كتاب «السيمياء والتأويل» هذا محاولة للمزاوجة بين السيمياء الموضوعية والتأويل الذاتي ، وبين علمية المقروء وفاعلية القارىء . انه مراجعة للمدارس النقدية الحديثة في ضوء اهتمامها بهذين الحقلين ، ومحاولة لتلمس الحدود المشتركة بينهما . ويمتاز الكتاب بقدرته على مخاطبة القارىء المتوسط ، ولكنه في الوقت نفسه يثري فهم القارىء المطلع ، ويثُير أمامه كثيراً من الأسئلة . ولا يخفي المؤلف انه يصل عند بعض النقاط الى ما يمكن اعتباره نقطة قطيعة مع الموروث السيميائي . ولا يكتفي الكتاب بطرح التصورات والمفاهيم النظرية ، بل يلاحقها في لحظة اشتغالها الفعلية على النصوص ، ويقابل بينها على مستويات متعددة ، مضيئاً كل مقترب بما يماثله أو يخالفه ، ومحاولاً في الوقت نفسه تقديم وجهة نظر شخصية تتابع التفصيلات الدقيقة ، دون أن تغفل الانتباه الى تمحيص أُسسها .

بقي أن أشير الى أن هذا الكتاب يشكل الحلقة الثانية في سلسلة ثلاثة كتب أصدرها شولز ، أولها : البنيوية في الأدب (١٩٧٤) وقد ترجم الى العربية ، وثانيها هذا الكتاب ، وثالثها كتاب سلطة النص (١٩٨٦) .

سعيد الغانمي

يقـول المؤلف في إهدائه : أريد أن أهدي هذا الكتاب الى المعلمين الذين في صفوفهم بدأ اهتمامي بالشعرية والسيمياء ولكل الآخرين الذين غالباً ما أعطوا في حالتي أفضل مما أخذوا .

ويريد المترجم أن يهدي هذه الترجمة الى كل الأصدقاء من النقاد الذين يعملون فريقاً على تأصيل النقد الحديث في العراق .

لهم جميعاً ، ولكل من شجعني على ترجمة هذا الكتاب أهدي هذه الترجمة .



مدخل

المقـصـود من هذا الكتاب أن يكون جزءاً مكملاً لدراستي السابقة «البنيوية في الأدب» (التي صدرت عن جامعة ييل عام ١٩٧٤)، غير أنـه يختلف عن سـابقـه في عـدد من النواحي. كـانت دراسـة البنيـوية دراسـة نظرية في الأساس، وقد كرست فصولها لمناقشة إسهامات بعض كـتـاب القـارة الاوروبيـة التي قـامـوا بها لتطوير البنيوية بوصفها موقفاً فكرياً. هذا الكتـاب، من ناحـيـة أخـرى، توضيحي بشكل أساس إذ تُعنى اغلب فـصـوله على إنفـراد بنصـوص مـعـينة وبطرائق قـراءتها أو تأويلها.

تتـضـمن النصـوص المدروسـة قـصـائد وقصصاً وافلاماً، ومشهدا من مسرحـية، وملصقات اعلانية، وشيئاً من تشريح الجسم البشري.

المنهج الذي اسـتـعـملته خلال الكتاب منهج انطباعي الى حد ما وشـخـصي، لأن ذلـك لا يمكن تحـاشـيـه في تأويل النصـوص، ولكن بقـدر مـا تتـحـد التأويلات في منهـجـيـة مـشتركـة، فإن هذه المنهجية سـيـمـيـائيـة، وغـالبـاً مـا تقترض بصـفـة خـاصـة من كتاب الموروث الـسـيـمـيـائي لـلدراسـات الأدبيـة، وسأذكـر هؤلاء الكتـاب، واعترف بأفـضـالهم قـبل أن أنهي هذا المدخل، ولكن يحسن في البـداية أن نقول شيئاً عن السيمياء.

الـسـيـمياء التي غالباً ما تعرف بأنها دراسة الاشارات (والمشتقة من جـذر يوناني هو Semeion ويعني : العـلامـة) هي دراسة الشفرات، أي

الانـظـمـة الـتـي تُمَكِّنُ الكائنات البشرية من فـهم بعض الأحـداث أو الوحـدات بوصـفـهـا عـلامـات تحمل معنى. وهذه الانظمة هي نفسها أجـزاء أو نواحٍ من الثـقـافة الانسانية، برغم كونها عرضة لتغيرات ذات طبـيـعـة بيـولوجـية أو فيزياوية. (الكلام البشري محدود بقدرات السمع والـنـطق عند الانسـان، وبسلوك الاصـوات في الهواء، غير أن كل لغـة بشرية تختص بثقافة تاريخية معينة).

وباعـتـبـارها حـقـلاً أو مـوضوعاً ناشئاً بين موضوعات الدراسات العـقليـة ـ فـان السـيـمـياء تضع نفسها في منطقة الحدود المضطربة بين الانسـانيـات والعلوم الاجتماعية، حيث غالباً ما يعتقد علماء الانسانيات انها صـارمـة جداً، في حين يرى علماء الاجتماعيات أنها تعوزها الصرامة العلمية الكافية.

أبـواهـا المـؤسـسـان ـ وهما فيردينان دي سـوسير في اللسـانيـات، وتشـارلز بيرس في الفلسـفـة ـ كـانا مـبتكرين لامعين، وكان لكل منهما مـسـحة شديدة من غرابة الاطوار في تكوينه العقلي. اذ أخذ سوسير في سنواته الاخيرة يجد رسـائل خـفية في النصوص (جناسات تصحيفية ana-grams) لا يـمـكـن لأحـد سـواه أن يتـصـورها. وأدمن بيرس الأفـيـون والمصطلحـات منتـجـاً أنظمـة فكرية خـارج مـتناول بقـية الناس. ومع ذلك فـقـد كـان لهذين الرجلين ذهنان خـصبان بحق، فأدت السيمياء semiotics التي طورها بيرس، جنبـاً الى جنب «السـيـمـيولوجيا semiologie» التي اقترحـهـا سـوسير الى حقل دراسي باركه ابداعهما، وأن يكن هددته غـرابة أطوارهما أيضـاً. ولهذا الحـقل الدراسي الجديد سطح بيني يشترك به مع الأدب، وهو مـا أحـاول أن أدرسـه هنا. فكل الأقـوال الإنسانية

تمكنها وتحددها أنظمة وشفرات يشترك بها كل من ينتج ويفهم هذه الأقوال. واذا كانت اللغة الانجليزية أحد هذه الأنظمة، فإنها ليست الوحيدة. ففي داخل اللغة الأنجليزية، للخطاب القانوني والخطاب الطبي قوانينهما، التي لا تشتمل فقط تأويل الرسائل، بل تحدد ماهية من يخول بقولها، ومن يطبق أو ينفذ ما جاء فيها أيضاً. فالوصفة الطبية، مثلاً يجب أن يشفرها طبيب، ويحلّ شفرتها صيدلي. وهذه القوانين هي اجزاء من الخطاب الطبي. إن الأوساط أو الأنظمة الطبيعية التي تُنقل الرسائل بوساطتها، تؤثر أيضاً على ما ينقل بوساطتها، ليس بقدر ما ادّعى مارشال ماكلوهان، ولكن بطرائق واقعية جداً ومهمة. وتُنتج النصوص الأدبية وتؤول أيضاً بوساطة شفرات يقررها الجنس أو النوع الأدبي وكذلك بوساطة شفرات اللغة نفسها. وهناك شفرات أخرى تؤثر في اشكال القول الاقل صنعة. وقد تتحكم في التعابير العرضية من النوع البسيط جداً دوافع شعورية ولا شعورية معاً نحو الاتصال. واذا كان للحياة اليومية «علم الامراض النفسي» الخاص بها، كما زعم فرويد بفصاحة، فإننا لا يمكن أن نتصور هذا ونفهم كلام اللاشعور الا اذا فهمنا الشفرات التي تتحكم بالقول اللاشعوري.

وحيث أن السيمياء هي دراسة الشفرات والاوساط فلابد لها أن تهتم بالأيدولوجية، وبالبنى الاجتماعية ـ الاقتصادية، وبالتحليل النفسي، وبالشعرية، وبنظرية الخطاب. وقد تأثر تطورها من الناحية التاريخية، بقوة بالبنيوية الفرنسية وبما بعد البنيوية، أي بالانثروبولوجيا البنيوية وبحفريات ميشيل فوكو وبالفرويدية الجديدة عند جاك لاكان، وبعلم الكتابة عند جاك ديريدا. ويمكن كتابة كتاب مفيد لمناقشة

هؤلاء الاعلام الكبار. ولقد ظهر في الحقيقة، كتاب ممتاز نوقش فيه موضوعهم نقاشاً حصيفاً، واعني به كتاب «البنيوية وما بعد» [1]. أما هدفي هنا فالقيام بشيء مختلف فأنا أود أن أكشف ما يحدث حين يدخل سيميائي ممارس الى الحقل التقليدي في التأويل الأدبي.

هناك عدد من المخاطر التي يتضمنها هذا المشروع، عدا الخطر الأساسي في احتمال عدم القيام بهذه المهمة على نحو جيد جداً. أحد هذه المخاطر أن اهتمام السيميائي بالبنى الجمعية ـ الأنواع، والخطابات، والشفرات وما أشبه ـ قد يتسبب في تضييع فرادة النص الأدبي. الخطر الآخر، أن الناقد بدخوله حقل «القراءة» سيقع تحت وطأة الممارسة التأويلية، أو تحت سحر الاستجابة الشخصية الى درجة أن تضيع المنهجية السيميائية المتماسكة في شراك التفسير القديم. ولقد حاولت أن احترس من هذه المخاطر، ولكنني لست واثقاً من نجاحي دائماً. ولم أحاول أن أغطي جميع الاشكال الادبية، أو أن أضيء جميع ما يمكن القيام به مع الأعمال الأدبية باسم السيمياء.

من الاغراءات التي يخضع لها السيميائيون اكثر من سواهم اغراء المصطلحات واغراء استعمال الرموز المنطقية أو الجبرية، واستخدام الاشكال والمخططات التوضيحية. وقد قلصت هذه الادوات الى الحد الأدنى، وفي بعض الحالات الى الصفر. وكان تقليصي لها، ليس فقط مراعاة للقارىء بل لأنني، أنا نفسي لا اطيق هذه الأشياء أيضاً. فأنا أعرف كيف تنتاب العينين غشاوة عند التحديق بهيئة المشجرات الضخمة على الصفحة ، وأشعر أن الجدوى الكبيرة التي تستفيدها

1 - Sturrock, John. Structuralism and since, New York . oup, 1979 .

الدراسات الأدبية من السيمياء لا تتمثل في تصنيفاتها التحليلية الموسعة، بل في عدد قليل من المفاهيم الأساسية والقوية التي تطبق على نحو بارع.

لقد أثبت أكثر مصطلحات سوسير وبيرس أولية أنها مفيدة جداً (مثل الدلالة والقيمة عند سوسير، والايقونة، والمؤشر والرمز عند بيرس). وفي السيمياء الادبية أثبت مخطط جاكوبسن السداسي في الفعل الاتصالي الاساسي إنه خصب ضمناً لا لأن السمات الست هي كل ما يمكن تمييزه في الاتصال الانساني، بل لأن العناصر الستة هي كل ما يمكن التعامل معه تحليلياً، ولأنها متميزة بكثير من الوضوح، ولأنها على يدي جاكوبسن تستعمل استعمالاً مباشراً لاجراء تمييزات مهمة ومفيدة بين أنماط الخطاب الرئيسة. وأنا أشير الى مخطط جاكوبسن مراراً الى حد أن بعض الفصول يمكن أن تعدَّ تنويعات على مخطط جاكوبسن. ولقد أقيمت سيمياء الأدب المعاصرة على أساس عمل جاكوبسن. وأود أن أذكر بعض اعضاء الجماعة العالمية للسيميائيين الذين اعتمدت عليهم اعتماداً كبيراً في تناولي : وهم رولان بارت، وجيرار جينيت، وجوليا كرستيفا، وتزفتان تودوروف، في باريس، وامبرتو ايكو في ايطاليا، ويوري لوتمان وبوريس اوسبنسكي في الاتحاد السوفيتي، وسيمور تشاتمان وميشال ريفاتير في الولايات المتحدة.

سيتضح لكل من سيمضي في القراءة انني معني بتأويل النصوص الادبية، ليس فقط كغاية في ذاتها، بل كجانب من جوانب الدراسات العقلية. والتأويل ـ أو القراءة بمعناها الواسع ـ هو أحد الاهداف

الكبيرة المتوخاة من الدراسة الأنسانوية ـ وقراءة النصوص الأدبية هو أحد أفضل المناهج ـ وربما أفضلها على الأطلاق ـ لتطوير المهارات التأويلية عند الطلاب. ودون أن ألحّ باستمرار على هذه القضية، أريد لتوضيحاتي ومناقشاتي في الفصول التالية أن تعزز دور الدراسات السيميائية في تعليم الكفاءة التأويلية.

ويتوجه هذا الكتاب الى اولئك الذين يعنون بمثل هذه القضايا، الى الرجال والنساء الذين يدرسون ويدرّسون اللغة والأدب، وفيما وراء هؤلاء الى كل من يهتم بكيفية تعلم هذه القضايا وتعليمها.

لم تنظم الفصول الثمانية الآتية بحيث لا يمكن قراءتها الا بالترتيب الذي ظهرت عليه، ولكنها تتبع نمطاً معيناً. فالفصلان الأولان نظريان الى حد كبير. في الفصل الأول احاول أن أضع السيمياء موضعها من النقد بشكل عام ومن تعليم الأدب بشكل خاص. وفي الفصل الثاني أسعى الى تعريف الأدب من منظور سيميائي، مؤكداً بعض سمات النصوص الأدبية التي سيتم فحصها فيما بعد. ويهتم الفصل الثالث بتأويل قصيدة قصيرة مع أمثلة من شعر و.س. ميروين، ووليام كارلوس وليامز، وغاري سنايدر. ويطور الفصل الرابع جوانب من نظرية السرد، مع بعض الأمثلة الوجيزة التي تعتمد افلاماً امريكية متعددة. وينظر الفصل الخامس الى السخرية بوصفها مصدراً للمتعة في النصوص الادبية مع انتباه الى الطريقة التي يعتمد فيها التشفير الساخر على كل من النوع والايديولوجيا. وفي الفصل السادس اوضح كيف يمكن الجمع بين مناهج تودوروف وجينيت وبارت للقيام بتحليل كامل نسبياً لقصة قصيرة واحدة كتبها

جيمس جويس. وفي الفصل السابع استخدم المناهج السيميائية استخداماً اكثر تحرراً لتحليل قصة واحدة كتبها همنغواي. وأنتقل في الفصل الثامن من الاهتمامات الأدبية الخالصة، الى فحص الطريقة التي يشكل ويسيطر فيها الأدب واللغة ذاتها على كل شيء «طبيعي» كالجسم الإنساني. كما يوضح الفصل الثامن الصلة بين السيمياء والنقد النسوي بوصفهما منهجين نقديين، وهي صلة تقوم على أساس اهتمامهما المشترك بأظهار شفرات خفية تشكل التصور والسلوك.

وتهدف هذه الدراسات ككل الى توضيح، ليس الى استنفاد الاحتمالات التي ينطوي عليها المنهج السيميائي في ممارسة التأويل النصي . .

الانسانيات والنقد والسيمياء

يمكن تعريف الانسانيات بأنها تلك الفروع المكرسة في الأساس لدراسة النصوص. وكما تركز العلوم الطبيعية على ظواهر الطبيعة، وتركز العلوم الاجتماعية على سلوك الكائنات الواعية ، ترتبط الانسانيات باهتمامها المشترك بالموضوعات الاتصالية أو النصوص. الكائنات البشرية حيوانات منتجة للنصوص، وتلك الفروع المسماة «إنسانيات» تلتزم أساساً بتحليل وتأويل وتقييم وانتاج النصوص. وحيث توجد نصوص، توجد بالطبع قواعد تتحكم بانتاج النصوص وتأويلها. وهذه القواعد أو العادات، بضوابطها الطبيعية أو الثقافية ـ التي توصف وصفاً مختلفاً بأنها لغات، أو أوساط أو شفرات، أو أجناس، أو خطابات أو اساليب ـ قد تصير أيضاً موضوعات للدراسة البشرية. وتجدر الملاحظة، مع ذلك، أنه بسبب ايثار الانسانيات لدراسة النصوص، فأن دراسة الشفرات التي تتحكم بإنتاج النصوص وتأويلها غالباً ما تقاوم بحجة إنها لا انسانية. وهذا شيء مفهوم، لكنه موقف أخذ عدد المتمسكين به يتضاءل مع نمو معارفنا عن العمليات التي تتحكم بتشفير وفك شفرات النصوص.

مع ذلك ينبغي الاعتراف بأن تمييزنا المألوف بين العلوم الطبيعية، والعلوم الاجتماعية، والانسانيات ليس نجرد وضع حدود شرعية بين هذه الاوهام السياسية التي نسميها «اقسام الدراسة» بل ان هناك فروقاً كبرى في المنهجية تقسم حقول الدراسة الكبيرة هذه، وهذه الفروق

متأصلة في طبيعة المواد المدروسة وأمزجة وقدرات الناس المعنين بهذا الحقل. ان المهارات التأويلية التي يبديها أفضل دارسي النصوث تتضمن إجراءات صامتة وحدسية تثبت مقاومتها العالية للصياغة النسقية، ومن هنا صعوبة نقلها على اي نحو مباشر أو شكلي. وبرغم ذلك فهي تظل في قلب الدراسة الانسانوية لان النص الفني (بالتعريف الثقافي) هو في ذاته أنفس النصوص التي انتجتها أية ثقافة بشرية، ومن هنا فهو النص الذي يحث على الدراسة المستفيضة والتأويل، ويتطلبهما.

وبطرح الكثير من القضايا الصعبة والمهمة جانباً (مثل العلاقة بين النصوص الفنية والدينية والقانونية وتأويلها)، أود أن أركز هنا على وضع التأويل الأدبي في الوقت الحاضر. اي انني بأخذ النص الأدبي ممثلاً لجميع النصوص التي يدرسها علماء الانسانيات، أود أن انظر في الفائدة المتوخاة والامثلة التي تقدمها لنا في الوقت الحاضر دراسة النصوص الأدبية. وسأضع نصب عيني، طوال هذا البحث اربعة ادوار اجتماعية ممكنة نتبناها حالياً بصدد مثل هذه النصوص هي : المؤلف والناقد والمعلم والطالب. ومن الواضح ان الشخص نفسه قد يؤدي أي دور أو كل هذه الأدوار مع النصوص الادبية ـ ولكن ليس في الوقت نفسه، وبالنسبة الى النص نفسه.

يمكن تنظيم هذه الادوار أو الوظائف الاربع في نمط أو نموذج تبادلي (Syntagm) تنتظم عناصره وتظهر دائماً في الترتيب نفسه بالنسبة الى أي نص معين : المؤلف ، الناقد ، المعلم ، الطالب . ينتج المؤلف نصاً أساسياً . وينتج الناقد نصاً ثانوياً يتولى تأويل أو تقييم النص

الأساسي. وينتج المعلم نصوصاً ثانوية أيضاً، بعضها يكون سريع الزوال، لانه يلقى شفوياً في الصفوف الدراسية، وبعضها يلبث فترة اطول لانه يأخذ شكل «ملزمة» مطبوعة أو «واجبات» مكتوبة أو اختبارات. واخيراً ينتج الطالب النصوص ايضاً، اما على صيغة نقاش شفوي، أو كوثائق مكتوبة جواباً عن الاسئلة الامتحانية أو تنفيذاً لواجبات كتابية.

ان السلسلة التجاورية أو التبادلية التي وصفتها تضعنا في قلب اجراء جوهري في تعليم الانسانيات، فنحن كتربويين محترفين ننخرط في بنية اجتماعية ـ اقتصادية تعتمد فيها اسباب رزقنا على ما نؤديه في هذه السلسلة. وفي وقت ما ادينا ـ وقد نؤدي ثانية ـ أي دور من هذه الادوار الاربعة بالنسبة الى أي نص. على أن اداء الدورين الطرفين عند اكثرنا أقل احتمالاً للحدوث من الدورين الوسطيين : فليس من المرجح ان نكون مؤلفي نصوص أساسية وطلاباً تهتدي اجاباتهم على النصوص الأساسية، بما تلقوه من تعليم. لكننا، برغم ذلك معلمون جميعاً، ويؤدي اغلبنا في كثير من المناسبات دور النقاد ايضاً، سواء نشرنا اجوبتنا النقدية أو اكتفينا بمداولتها مع الاصدقاء والزملاء. وغالباً ما يكون الشخص نفسه، في الحقيقة، وفي أزمنة مختلفة، ناقداً ومعلماً معاً فيما يتعلق بالنص نفسه. غير ان الوظيفتين تختلفان.

وبمعنى من المعاني، يريد كل من الناقد والمعلم أن يقصي دوره على نحو ما. فالناقد وقد قال «مقولة» ما بخصوص نص معين يأمل أن تتمثل التأويلات اللاحقة مقولته مدخلة أياها في تراث تأويلي. وهكذا يتوقع الناقد ان ينتقل من نص الى آخر على الدوام. ومحاولات

النقـاد تثبـيت اسـتـحـواذهم على النصوص مضللة، فهي مضحكة في أفـضل الاحـوال، ودعية في اسوئها. وكذلك هي الحال مع المعلم الذي يتـوقع ان ينتـقل من طالب الى آخر باستمرار. ويحدث هذا من الناحية المثـاليـة حين يتـمـثل الطالب الستراتيـجيات التأويلية أو التقييمية لمعلم مـعين ويهضـمها بحيث يستطيع ان يطبقها بنفسه (أو بنفسها اذا كانت طالبـة). ونحن غـالبـاً ما نخفق، عملياً، في تحقيق هذه الغاية، لكنها تبـقى مـاثلة أمـامنا كـهدف. ولا يحظى هذا الاجراء بالتسويغ الا حين يبلغ الحـد الذي يسـتطيع فيه الطالب ان يقصي كلاً من المعلم والناقد، لكي يصير قارئاً نقدياً لمختلف انواع النصوص.

في تأمل حـالة التـفكير النقـدي اليـوم، أود ان اضع نصب عـيني هذا الاجراء التربوي البسيط حين أسأل سؤالين :ـ

أولهما : مـا الـذي تعلمناه، ان كنا قـد تعلمنا شـيئاً، عن التأويل النصي الذي له تطبيقات مباشرة في الممارسة التربوية ؟

والثـاني : أي المواقف والستراتيـجيـات التأويلية الفعالة في الوقت الحاضر يقدم لنا أفضل النماذج لتأويل النصوص الأدبية ؟

قـد نعـتقد أننا نعرف كل شيء عن تعليم التأويل النصي، غير أن كـثيراً من «مـعـتـقـداتنا» يناقض بعـضـهـا بعضاً، أو يتحدى محاولات التـوضـيح. ولو وضـعنا مـعـرفـتنا المفترضـة جانباً، وبحثنا على طريقة ديكارت عن مـبـدأ اساسي للدراسات الانسانية، لما وجدنا «الانا ـ أفكر Cogito» بل «الأنا ـ أكـتب Scribo». وهذا في الاقل مـا تـتـفق عليه جميع النظريات النقـدية الحـديثـة. فـانا انسانوي، ليس لأني أفكر، ولا لأني اقـرأ، بل لأني أكـتب، ولأني بالتـالي انتج نصـوصـاً. ووراء السـخـرية

الـلـغـويـة عـنـد رولان بـارت نـيـابة عن النص الكتـابي، ووراء اللف والـدوران الـغـرامـاتـولـوجـي (الكتـابي) في تفكيكيـة ديريدا ، ووراء حـاجـز الاقـوال الحكمـيـة في خطاب مـيـشـيل فـوكـو، ووراء الاعماق الخـادعـة والسطوح الغـامـضة في الحاح جاك لاكان على الحرفية، وعلى نحـو اكـثـر وضـوحـاً في كـتـابات كثير من النقاد الانغلو ـ أمريكيين، نسـتطيع ان نجـد مبدأ مشتركاً واحداً لا غير هو مبدأ «أنا أكتب اذن أنا موجود» (١) Scribo, ergo sum . انا انتج نصـوصـاً فأنا اذن، موجود، والى حد ما فأنا النصوص التي انتجها.

وهذا يعني من خـلال النمـوذج التربوي البـسيط الذي ناقشته ان عـمليـة التأويل لا تكتـمل إلاّ إذا انتج الطالب نصه التأويلي الخاص. وربما يـكون لدى علم النفس في هذا المجـال الكثير مما يعلم به التربيـة الادبيـة. ويؤكـد كل من فـرويد ولاكـان على اهميـة تعـبير المريض عن الحدث في كلمات. (انظر : جاك لاكان، لغة الذات، ١٩٦٨ ص ١٦) للحـصول على أي أثر علاجي. فلا يكفي أبداً اخبار المريض، بما حـدث لأنعـاش شعـوره، بل إن على المريض أن يصوغه صياغة لغوية بنفسه ، كما قال فرويد وبروير عام ١٨٩٣ : لابد من تكرار العـملية النفـسيـة التي وقـعت أصلاً على أكبر قدر ممكن من الحيوية، لابد من اعادتها الى صيغتها البكر status Nascindi، ثم تصاغ صياغة لغوية .

(المؤلفات الكاملة ، ١١ ، ٦ ، مقتبسة من ملاحظات ولدن على لاكان).

لا أقـول ان التحليل النفسي والتأويل الأدبي شيء واحد، أو حتى

---

(١) يناقض المؤلف هنا مـقـولة ديكارت الشـهيرة : أنا أفكر إذن أنا موجود Cogito, ergo sum

انهما عـمليتـان مـتـشابهتان الى حد كبير، بل ان التحليل النفسي أظهر باستـمـرار ولما يزيد على ثلاثة أرباع القـرن بأن هناك فرقاً ذا دلالة بين حـالات الشعور المتضمنة في تلقي النص وانتاجه. فالنص الذي ننتجه مـلـكـنا على نحـو أعـمق وأكـثـر جـوهرية من النص الذي نتلقـاه من الخـارج. وحين نقرأ فأننا لا نمتلك النص الذي نقرأه بشكل متواصل. أمـا حين نؤول نصـاً فإننا نضـيف الى خـزين معارفنا ـ وما نضيفه ليس النص نفـسه، بل تأويلنا له. ونحن في التأويل الأدبي نمتلك ما نخلقه فقط.

أرجـو ان لا يكون فـيما أقوله هنا جديد، بل مجرد صياغة لما يعرفه دائماً أي مـعـلـم أدب: أي مـا مـن جـدوى مـن إعـطـاء الـتـأويلات للطلاب، فـهم يجب ان يقـومـوا بهذه التأويلات بأنفسهم، وان انتاجية الطالب هي تتـويج للعملية التربوية. وفي الحقيقة، بغير هذه الانتاجية لا تكتـمل عـمليـة تعليم الانسـانيـات. وهذه المسألة غالباً ما تُهمل في المؤسـسـات الأكـاديمـية التي تتبنى، أو تحاول ان تتبنى نماذج من عالم التـصنيع والتـجـارة. ولو كـانت المدرسـة مـصنعاً لكان الاداريون مدراء عـمل والمعلمـون عمالاً، ولصـار الطلاب «منتـجـات». وهكذا كلما زاد عـدد الطلاب، ازدادت انتـاجـية المعلمين، وحسنت إدارة المدراء. ومن وجـهـة نظر محدودة مـعـينة فـان هذا صـحـيح تماماً، لكن ما يتجاهله بالطبع هو انتـاجـيـة الطلاب. إن أول شيء تتم التـضحية به في تخريج أعـداد كـبيرة من الطلاب هو انتـاجـيـة هؤلاء الطلاب، أي انتـاجـهـم النصـوص. وبما أن انتاجيتهم هي جوهر التدريب في الانسانيات، فهي شيء لا يمكن التـضـحـية به دون تحطيم هؤلاء الطلاب كمنتجات. لا ريـب أن أجـهـزة الـتلفـزيون يمكن ان تنتج اسرع وارخص فـيما لو تم

الاستغناء عن شاشات العرض فيها ولسوء الحظ فإن منتجات ذات تعليم انسانوي بالاستغناء عن الجوهر الانساني فيها امر أصعب على الكشف من أجهزة تلفزيون تنقصها الشاشات. لكن الخسارة التي ستلحق بالمجتمع واقعية وسيدفع ثمنها.

ها انا استطرد، غير ان الاستطراد سمة من سمات الخطاب الانسانوي. ولالتقاط رأس الخيط ثانية أقول: تميل النظرية النقدية المعاصرة الى توكيد حدوسنا عن اهمية انتاج النصوص لدى طلاب الأدب. فعلى الطالب ان ينتج خطابه التأويلي لاكمال عملية الدراسة الأدبية. وهذا يطرح سؤالين جانبيين: كيف؟ ومن أي نوع؟ يقع جواب السؤال عن الكيفية، فيما أرى، في منطقة ما نعرفه عن الدراسة الأدبية، ولهذا سأناقشه أولاً. أما سؤال النوعية فموضوع خلافي، والأولى تأجيله الى ما بعد.

تتفق جميع مدارس النقد الحديث، برغم اختلافها في أشياء كثيرة على فكرة أن أنتاج النصوص ينطوي على قبول بالقوانين القائمة قبلها. أي أن المرء لا يتعلم اللغة الانجليزية أولاً، ثم يكتسب القدرة على أنتاج أي نوع من النصوص باللغة الانجليزية. بل أن أكتساب لغة أولى يعني الدخول مباشرة في سياق ثقافي معقد، وقد يكون مثل هذا الحدث حدثاً لا ينسى وستترتب عليه آثار مهمة في الأدراك والتمييز، فإنتاج نصوص في لغة ما يتضمن قبولاً بمستوى ثان من القيود الثقافية: أي أن الشفرات التي تتحكم بالامكانات الاسلوبية تنفتح على أي نمط من انماط الخطاب. وهذا ايضاً لانها تتضمن التضحية بالحرية للحصول على سلطة ما، قد يكون لها بعدها الذي لا ينسى.

ونحن نسمي دراستنا «فروعا» للسبب المعقول نفسه وهو أنها تتطلب بالضبط هذا النوع من التضحية والخضوع. ومثلما تعتمد قدرتنا على التكلم على الحد من فائض الحرية في الأصوات، لكي نتلاعب بعدد محدود من الفونيمات على نحو مضبوط عرفياً، كذلك فأن القدرة على أنتاج أي نوع من أنواع الخطاب ـ مثل خطاب التأويل الأدبي ـ تتطلب قبولاً باعراف ذلك الخطاب. ويتعلق السؤال الذي أثيره الآن بأفضل الطرق لتحقيق هذا لطالب الأدب.

واضح ضمنا ان ممارستنا لا تتفق مع معرفتنا بهذا الشأن في الوقت الحاضر. فقد كنا نتصرف وكأننا كنا نفكر بأن بالامكان أن نقرأ نصاً ثم ننتج خطاباً تأويلياً عنه بالمعاينة والحدس. لكن ما نعرفه أفضل. وهنا مرة أخرى تميل أكثر المدارس النقدية المتباينة، التي تتبادل الاتهامات، الى الاتفاق. فنحن نعرف أن كلاً من المعاينة والحدس هما أصلاً من منتجات الخطاب، فنحن نقرأ كما تعلمنا أن نقرأ، ولن نرى بعض الأشياء حتى يُراد منا أن نراها، ونكتب ـ دائماً وبالضرورة ـ على أساس النماذج الكتابية التي واجهناها، فالقدرة على «الابداع» سواء في الخطاب النقدي أو في الخطاب الشعري لا تعطى للطالب المستجد، بل أنها تكتسب بالسيطرة على الاعراف الى درجة يسهل معها الارتجال، وهنا مرة أخرى يتم أستبدال الحرية بالقدرة.

بوجيز القول، لابد أن يُعطى الطالب الذي يُراد منه انتاج الخطاب التأويلي نماذج من ذلك الخطاب ونصوصاً أدبية تكون موضوعاً لتأويله. وأن يطلب من الطالب أن يؤول القصيدة (س) على طريقة الناقد (ص) شيء أسهل وأكثر معقولية من أن يطلب منه النظر

اليـها والكتابة عنها عن ظهر قلب. لأن هذا الطلب الثاني، الذي يبدو في الظاهر مـعـقولاً وطبيعياً، هو في الحقيقة أصعب بكثير وأكثر إنحرافاً من الطلب الاصطناعي الأول، وذلك الطالب المسـتـجـد، شأنه شأن الشـاعـر المسـتـجـد، لا «قلب» له ليتحدث عنه، وما نتحدث عنه هنا ليس جوهراًوجـودياً، بل خـاصـيـة مـتحولة، ووظيفة أسلوبية، وتكمن وراء المـجـاز المسـتـهلك الذي يرى أن الاسلوب هو الرجل حـقـيـقـة كـبيرة، ففي أي شكل من أشكال الخطاب تتحقق الشخصية من خلال الأسلوب، والاسلوب هو طريقـة في الادراك كما هو طريقـة في الانشاء. وحين نطلب من الطلاب ان يحقـقـوا شـخصيتهم الجوالة، قبل الأوان، فـإنـنا نجبرهم على ارتكاب دجل التـحـدث بأصـوات غير أصـواتهـم، سـواء كانت هذه الاصوات سلسلة «كلف» التبسيطية، أو أي شارح أو مـعلم آخـر. ومن الافضل بكثير ان نعترف بهذا الكلام البطني (٢) وان نـترك الطلاب يعـملون في الهواء الطلق على طريقـة التناص ويتـعلمـون من الطريقـة التي تضـغط بها أو تمدد هذه الملابس المستعارة شخصياتهم الجوالة.

ولنعبر عن هذا بأبسط مـا يمكن نقـول أن مـعرفتنا بالمراحل التي يـمـر بهـا الخطاب تقترح ان يعطى الطلاب المراد منهم انتـاج نصـوص تأويليـة هذه النصـوص وان يقـرأوها حـتى يتـمـثلوا العادات والمبادىء الـتـي تـغـذي هـذا الـنوع من الخطاب، وهذا لا يعني اننا اذا اردنا من الطلاب ان يأولوا النص (آ)، فـاننا يجب ان نعطيهم ما قاله النقاد (س) و (ص) و (ط) عـنه، بل ينبـغي القـول ان الطالب سـيكون في حـال

---

(٢) الكلام البطني Ventriloquy الكلام الذي يتجه من «بطنه» لا من «شفتيه» ممثل يمسك بدمية يجعلها تبدو وكأنها تتحدث.

أفضل للكتابة عن النص (آ) حين يتضمن المنهج بعض تأويلات النقاد (س) و (ص) و (ط) للتعرف على النصوص (آ١) و (آ٢) و (آ٣) التي هي مشابهة بنية واسلوباً للنص (آ). هذه هي الطريقة التي نتعلم بها جميعاً، والطريقة التي ينبغي ان نعلم بها. وهي بالغة البساطة.

ما ليس ببسيط هو أي نوع من النصوص التأويلية يجب أن نقدمها، بوصفنا معلمين كنماذج ونشجع طلابنا على انتاجها. هنا يبدو أن النظرية النقدية المعاصرة تقدم نظاماً مربكاً ومتناقضاً من الاحتمالات. وسأحاول فيما يتبقى من هذا النقاش أن أضع هذه النظريات والممارسات النقدية المرتبطة بها في مخطط معقول، وأن أقترح بعض التوصيات القائمة على أساس هذا المخطط. وينبغي علي، وأنا أفعل ذلك، أن اكشف عن نزوعي في البدء، اذ لم نعد في منطقة يُعقل أن نتحدث فيها عن المعرفة، فالقضايا الأساسية محط شك هنا، على نحو لم يحدث من قبل.

إنني ادعو منهجي في الدراسة الأدبية ـ وفي الحقيقة في عدة أشياء أخرى ـ المنهج السيميائي. وسأتولى مناقشته وعرضه في المكان المناسب. وأنا أذكره الآن لان المخطط الذي اريد استعماله مبدأ منظماً هو مخطط سيميائي، يقوم على أساس الوصف البسيط للفعل الاتصالي كما أشاعه رومان جاكوبسن. ويميز جاكوبسن، في هذا الوصف الذي يمكن تحويله الى مخطط، العناصر الحاضرة في اي فعل اتصالي. وباجراء بعض التعديلات على المخطط لوصف قراءة النص الأدبي، نحصل على شيء يشبه ما يلي:



يمكن تصنيف المدارس المؤثرة في النظرية والتأويل الأدبيين، في الأقل على نحو أولي، بحسب تركيزها على مظهر من مظاهر هذا المخطط. أي أننا اذا اخذنا قراءة النص الأدبي كفعل اتصالي مكتمل، فإن أية مدرسة نقدية تميل الى إيثار أحد هذه العناصر على حساب العناصر الأخرى في موقفها من عملية القراءة. ويمكن اجراء بعض التعديلات لاحقاً في أنواع المواقف الممكن اتخاذها من العنصر الأثير في الصلات القائمة بين العناصر المختلفة. ولنبدأ بفحص مواقع المدارس النقدية، فنرى كيف يعمل هذا المخطط. ويمكننا ان نبدأ بأوضح الأطراف.

في الوقت الحاضر لدينا دُعاة أشداء للنقد الذي يتوجه الى المؤلف والنقد الذي يتوجه الى القارىء. وأعني بالنقد الذي يتوجه الى «المؤلف» ذلك النوع من التأويل الذي يؤثر دور المؤلف في النص، ويريد استرجاع نية المؤلف كمفتاح لمعنى النص. وأبرز دعاة هذا المنهج هو إ. د. هيرش الذي طرح قضيته بقوة وبلاغة في كتابيه: «المصداقية في التأويل» و «أهداف التأويل». فقد رأى هيرش، مدعوماً بعمل فلاسفة الفعل الكلامي ، وأراه مقنعاً جداً ، اننا لا يمكننا ان نتحدث عن تأويل محدد ما لم نفترض سلفاً قصداً للمؤلف يوجه ذلك

الـتـأويـل. وفي الحـقـيـقـة فـان مـنـهج هيرش هو أكبر الطرق محافظة لـلوصـول الى مـعنى النص. فـهـو يفترض ان مـؤلف النص الأدبي هو تحـديداً أفـضل من القارىء، وان انجازه مساو لما كان ينوي ان ينجزه. وهـكـذا فـان الـعـبء يقع على عـاتق القـارىء الذي ينبـغي عليـه أن يـسـترجـع نيـة المؤلف وقـصـده. وهذا المنهج نظامي، أي أنه في الواقع يخضع لمنهج القـانون والنظام. فـهـو يقـدم مـبـادىء لاثبـات مصداقية الـتأويل، . وبالتـالي يخضع نفـسـه الى نوع من نظريـات التـعليم. وكما يذكـرنا هيرش فـان لتـقـاليـد الدراسـة التأويليـة (الهرمنيـوطيـقية) هذه جـذورها في تفسير الكتب المقدسة، ولذلك ينبغي ألا نعجب حين نجد انه يمـيل إلى اعـتـبـار المؤلف إلهاً. وفي تقديري فان اقوى مغريات هذا المنهج التي تروق لأذهاننا هي أن الطلاب في الحـقـيقة قراء غير اكفاء، ومن هنا فـهم بحـاجـة الى ضـوابط دقـيـقة تتوفر فيها معايير للقراءات «الصـائبـة» و «الخـاطئة». ومن الواضح أن ثمـة ايديولوجـيـا، وفلسفة تربوية مـتـضـمنتان هنا، وربما لا يكون من السهل الفصل بينهما. غير ان من الجلي ان قـوة هذا المنهج تكمن في نظامـه، وان خطورته تأتي من المصـدر نفـسـه. فـهو يمكن ان يؤدي الى نزعة تسلطية صارمة قد تقتل الدوافع الابداعـيـة عند الطلاب، وتحـول القـراءة الى عـمل رتيب بل، اسـوأ من ذلك، إلى مناسبة للخوف والدفاع العدواني عن النفس.

في الطرف الآخـر لدينا المدرسـة النقـدية التي تؤكد على القارىء، وتؤثر اسـتـجـابة القـارىء للنص. ويرى أنصـار هذه المدرسة أن القراء يصنعـون المعـاني، وان لهم الحق في اضـفـاء اي مـعنى تلزمـه حاجاتهم النفـسـيـة على نص مـعين. وليس النظام، بل الفـوضى هي التي تحتل مـوقع الامـتياز في هذه النظرة. وكما يقول محرر مجلة «القارىء: الرسالة

الاخـبـارية لنقـد اسـتـجابة القارىء وتعليمه» : «يجب ان يعد القارىء حـراً حـرية تامـة في خلق النص». في هذا المجلة الجـديدة المـتعة يتم التـوكـيد على حرية القارىء وابداعيته، ويجري تشجيع فوضى حقيقة في الـتنوع التأويلي. بينما يهمل احـتمال سـوء القـراءة وسـوء التأويل. ومن وجـهـة نظر تربوية، استطيع ان أزعم أنه سيكون معلماً سعيداً بحق من يـشـعـر ان تـلامـيـذه لا يخـطئون في الـقـراءة. لـكن اي مـعلم واجـه المشكلات الحـقـيقية في الحرمان الثقافي الذي لا ينتج الا طلاباً محدودي المواهب على نحـو خطر، لابد ان يشـعـر ان هذا الموقف الذي يضـفي فـيـه الطلاب مـعانيهم انما هو ترف تفتقر اليه اغلب صفوف الدراسة. وفي الواقع فـان صـفـوف النقـد الموجه الى القارىء غالباً ما تتخذ شكلاً ألـيـفـاً عـنـدنا منذ السـتـينات، حـيث حل الميسر محل المعلم، وتقـدم للطلاب حـرية سرعـان مـا يدركـون انها مـوهومـة، ان لم تكن خادعة. لكن لابد من وجـود أرض مـشتركـة بين فـوضى توكـيد القارىء، التي تنهي المناورة التربوية بكل مـعنى الكلمـة، والنزعـة السلطوية في توكـيد المؤلف التي قد تخنق الإبداعية.

بـالـتـأكـيـد تـوجـد ، وسنجـد بعض نماذجـهـا في قلب المخطط الجـاكوبسني. وقد احتل النقد الذي يؤكد على النص نفسه مركز الفكر النقـدي الامـريكي منذ العـقـد الماضي. وبالنسبة الى النقد الجديد، كما صـار يسـمى، فـقـد تبرأ من الاهتمام بقـصد الكاتب في تأويل النص، وحـرية القـارىء في اخـتـيـار نوع من التأويل الذي يبـدو مناسباً معاً. وهذا هو السـبب الذي جـعل كـتـابـاً مثل «فهم الشعر»، وما استلهمته من اعمال أخـرى تتـحول الى عناصر أساسية في صفوفنا الدراسية، لمدة طويلة. لقـد قدم النقد الجديد تمريناً في البراعة النصية المدعومة بالمعجم

وكتـاب النحـو، بدلاً من هيمنة المؤلف وفوضى القراء. ووضع ذلك، على المسـتوى الايديولوجي، مـوروث النقـد الجـديد في خدمة الموروث الامريكي في التأويل الدستوري ـ أي تفسير تشريعي أكثر مما هو تأويل إنجيلي ـ الذي قـدم للمـؤول تمريناً مناسـباً في البراعـة، ولكن ضـمن قـواعـد صـارمـة في ما يخص ماهو ذو صلة وماهو عديم الصلة. ونحن نوكل المحـامين لكي يدعـموا ويدافعوا عن مقاصدنا نصياً أما النصوص الشـعـرية فـتـعـمل على نحو مختلف، كما بين النقد الجديد على أحسن وجـه، غـير أنهـا شأنها شأن الوصـايا والقـوانين التشريعـيـة، أو حـتى الدسـتور نفسه كان يجب اخذها كوثائق مكتفية ذاتياً تماماً للافصاح عن مـعناها. وكـان ينبـغي عد ما قاله ووردزورث وجيفرسون خارج النص شيئاً عديم الصلة.

هـذا الوضع الذي اثبت جـدواه في قـاعـات الدرس والدراسة هو الـيـوم أقل تأثيراً وفـاعليـة، لانه امـتص من ناحـيـة وبسـبب الهجمات المستمرة عليه من مختلف الجهات من ناحية اخرى. لقد بين هيرش بأن «المغـالطة القـصـدية» لا تقضي على الحاجة الى النظر في القصد لتحديد المعنى. وثأر الاسـاتذة التـقليديون موضحين ان الجهل بأساليب الكتابة والاسـتـعمالات اللغـوية لفترة تاريخيـة ما أو الجهل بالمناهج الببلوغرافية في توطيـد النص يمكن ان يؤديا الى اخطاء تأويليـة مـضحكة. وكذلك بينّ الماركسـيـون والنقـاد الاجـتماعـيـون الآخرون كيف ان الايديولوجيا والقـوالب الثـقـافية لا يمكن التغاضي عنها في التأويل النصي. اذ يؤكد كـل من المنهج التـاريخي والنقـد الاجـتماعي، بالطبع، على السـيـاق في تـناولهما للنصـوص الأدبيـة، مصرين على ان المعنى لا يكمن فـقط «في» الكلمات، بل في نظام القـيم والتـضـمينات التي هي قـضـايا تاريخية،

وينبغي ان تفهم بهذا الشكل.

وفي وقت مبكر في هذه البلاد وقف الارسطيون الجدد موقفاً مضاداً للنقاد الجدد فاكدوا على النقد البلاغي ونقد «الأنواع الأدبية»، مؤولين النصوص في ضوء المعايير والاعراف التي يحددها النوع الأدبي، أي «الشفرات» بالمعنى الذي أشار اليه جاكوبسن. هناك بالطبع فروق أخرى بين هاتين المدرستين ، كان أبرزها ميل مدرسة شيكاغو للنقاد البلاغيين الى تأويل النصوص ، على نحو أساس ، من خلال قدراتها الأخلاقية والعاطفية في الاقناع . فالنص يلزم قارئه نيابة عن المؤلف. بينما رأى نقاد «نيوهيفن» ان القارىء الاكثر فاعلية يستكشف النصوص الأدبية التي فيها غموض او مفارقة تحول بالتالي أو تعوق دون ايضاح القصد الاقناعي. والتطورات الأخيرة لهذا الاختلاف بين المدرستين مهمة وسنعود اليها لاحقاً. أما الان فينبغي ان نقف لنرى ان توكيد النقد الجديد على النص كان يتضمن افتراضاً مؤداه ان النصوص الشعرية معدة لانتاج استجابة شعرية خاصة، فغموض النص هو المعادل الموضوعي للحالة الفكرية الخالصة عند القارىء، الذي يدرك ان النص لا يريد ان يدل دلالة مطابقة على الواقع بل يريد ان يوحي ببنية جمالية متوازنة توازناً جميلاً. وهكذا كان النص، في الفكر النقدي الجديد، معزولاً قدر الإمكان عن مظاهر الاتصال الأخرى، وكان كل نص معزولاً قدر الامكان عن أي نص آخر، بفرادة «كروتشية». فلم يكن النص نصاً، بل «عملاً». وينبع كل من قوة وضعف التأويل النقدي الجديد من هذا التمركز المتطرف حول العمل كموضوع ذي معنى فريد.

ومن خلال الفحص الخارجي يبدو ان الشكلانيين الروس يشاركون النقاد الجدد الكثير من افتراضاتهم النقدية. فهم أيضاً اكدوا على النصوص، وأصروا على ان سياق العالم الخارجي أو الغرض الاقناعي لا يمكن ان يكونا مهمين في النص الشعري. ويمكن تكثيف وجهات نظرهم في فكرة جاكوبسن في ان النص الشعري هو النص الذي يؤكد على صورته النصية الخاصة. وكان الشكلانيون يختلفون عن النقاد الجدد في اهتمامهم الكبير بالوسائل البلاغية واعراف البنية الشعرية. وكانوا دائماً يبحثون عن الشعري في الشعر، والنثري في النثر، لدرجة أنه حتى دراساتهم للنصوص المفردة كانت تدور حول المبدأ الشعري الذي يمكن ان ينطبق على نصوص أخرى في النوع نفسه وهكذا انعطفت استراتيجياتهم التأويلية من التوكيد على النصوص الى التوكيد على الشفرات التي تحكم انتاج النصوص. وهذا التوكيد أكثر وضوحاً عند البنيويين اسلاف الشكلانيين الروس. وقد أدى عند الكثير من البنيويين إلى تفضيل تلك النصوص التي تسود فيها الشفرات والاعراف على نحو واضح، أي الأدب الشعبي، والفلم الشعبي والقصصي الشعبي.

أدى التأكيد الشكلاني والبنيوي على الشفرات الى تطوير المقاربة البلاغية عند اتباع مدرسة شيكاغو الارسطيين. ومن المفهوم تماماً، مثلاً، ان ننظر الى عمل جيرار جينيت «الخطاب السردي» كتطوير لكتاب « بلاغة القصص » لوين بوث (شيكاغو ١٩٦١) ، وكتاب سيمور تشاتمان الحديث «القصة والخطاب» يقع ايضاً في هذا الموروث الموحد الذي يؤكد على مقاربة النصوص من خلال الشفرات النوعية والاعراف الاسلوبية . وتبرز بعض الدراسات السيميائية الحديثة

الاخـرى تقـارباً من نوع مـا بين المفاهيم الاوروبية والامريكية للتأويل.
فـيتناول كـتـاب يوري لوتمان «تحليل النص الشـعـري» وكـتـاب ميشيل ريفـاتير «سـيـمـيـاء الشـعـر» القـصـائد من خـلال الاعراف، ولكنهما يشتركـان مع النقد الجديد في النظر الى النص باعتباره يحيل الى ذاته اكثر بكثير مما يحيل الى سـياق العالم الخارجي. ويركز كتاب بربارة هرنشتاين سميـث « الخاتمـة الشعريـة » (شيكاغـو ١٩٦٨) أيضاً على الشفرات والاعـراف كطريق لتأويل النصـوص. غير ان رغـبـتـها في الحديث عن حس القـصـيـدة بالصـدق يربطهـا بنقـاد شـيكاغـو الذين كان يمتزج اهـتمامـهـم بـالاعـراف والشـفـرات دائماً بالاهتمام بأثر النص العـاطفي والفكري على القراء.

وهذا الأثر بالضـبط هو مـا يقلق ناقـداً سيميائياً مثل رولان بارت ويسـاعـده على تكريس كـتـاب مثل «س/ز» يهدم فيه بارت التمييز بين النصـوص الشـعـبـيـة والنصوص الكلاسيكية. وكبنيوي كان بارت يؤثر النصـوص الشـعبية والاسطورية في مقالاته التأويلية. أما في مرحلته ما بـعـد البنيـوية، فـقـد حـاول بارت ان يبين ان النص الكلاسـيكي غير أصـيـل شـأنـه شأن النص الشـعـبي، وانه محكوم مـثله بالآراء السـائدة والإيماءات الصـيـاغـيـة المعـروفة. والواقعية، في رأي بارث، لا شأن لها بالواقع، إنها ببـسـاطة نص يمكن ان يقـرأ لانه يتألف على نحو تام مما هو مـعـروف سلفـاً. النص الواقـعي الكلاسـيكي نسـيج من الكلائش الجـاهزة، لأن الشـفـرات جميـعـاً قسرية بالنتـيجة. يرفض بارت النص القـرائي في س/ز، ويدعـو الى نص كـتابي، نص متحرر بما يكفي من المنطق والنحـو لكي يتـيح للقـارىء ان يؤدي دوراًفعالاً في عملية الخلق النصي، اي ان «يكتب» .

النص الكلاسيكي عند بارت نص قرائي تماماً، اي ان البناء الغني لشفراته المتشابكة يفرض على المؤول دوراً من الاستهلاك السلبي لا ينجو منه سوى النص غير القرائي. غير أن ممارسة بارت نفسه وممارسة مدرسة النقاد الذين يطلق عليهم الآن اسم «التفكيكيين» توحي أن ثمة بديلاً لهذا الدور السلبي المقيت. وقد يمكن اعتبار النقد التفكيكي الامريكي نبتة تفتحت من تعليق بول دي كان في كتابه « العمى والبصيرة » (اكسفورد ١٩٧١) على كتاب جاك ديريدا «علم الكتابة». وتنقذ هذه المدرسة النقدية القارىء من السلبية بافتراض ان في كل نص «مناطق عمى» هي الى حد ما حاسمة في تأويله. فالنص لا يستطيع ان يقول كل ما يعنيه، لان الصمت، في بعض النقاط الحاسمة، يمكن معاني النص من الظهور. ومن هنا، فهو خطوة باتجاه الحاح هارولد بلوم على ان كل قصيدة تعتمد على سوء قراءة يقوم بها شاعر لما عمله اسلافه (انظر «قلق التأثير» اوكسفورد ١٩٧٣) وباتجاه استراتيجيات أخرى تحرر القارىء من السلبية بالتسليم بأن النص غير مكتمل، أو منقوص. والفضيلة الكبرى لمثل هذا الموقف انه يسمح بالتركيز على النص ويشجع من ناحية اخرى القارىء على القيام بدور ابداعي فاعل. وهو يحيد الاصرار التأويلي على قصد المؤلف بافتراض أن الايمان الرديء أو العمى عند المؤلف سيوقع هذا القصد تحت طائلة التعمية. وكما يقول دي مان فهو يؤكد «الاعتماد المطلق للتأويل على النص، والنص على التأويل».

ليس من السهل الحفاظ على هذا الوضع المتوازن لأسباب كثيرة. فبإضعاف دور قصد المؤلف في النص يفتح النقد التفكيكي الطريق أمام المواقف المتطرفة لـ « مذهب القرائية » الذي تُتهم فيه النصوص

بـ « اللاجـزمية المطلقة total Indeterminacy » . ومن ناحيـة أخرى يسارع اصـحـاب النقـد الموجـه الى السيـاق الى تفسير العمى الذي يؤدي إلى التأويل اسـتناداً إلى صـيغ مـعـينة. وعلى الخـصـوص سـيـعـزو النقـاد المـاركـسـيـون الـعـمى الى الغنائم الأيديولوجـيـة، ويؤولون استناداً إلى عـقـائدهم الخـاصـة ،وسـيجد نقاد التحليل النفسي أن بالامكان ترجمة فكرة «العـمى» بسـهـولة الى مـفـردتي «الكبت» و «التسامي». وهذا هو سـبب الشـجار القائم بين اتباع ديريدا وأتباع لاكان في الوقت الحاضر. فـتـفكيك نص اسـتناداً إلى صـيغ فـرويدية أو حتى استناداً إلى طرائق لاكـان الأكـثـر براعـة، ليس شـبـيـهاً بأية حال لما يتصوره دي مان أو ديريدا. وفي الحـقـيـقـة فـانه ليس تفكيكاً أبداً، لانه متمركز بقوة حول حـقـل يتظاهر بالمعـرفـة. والتـفكيكي الأصـيل يرى التأويل هتكاً دائماً للعـمى، تمامـاً مـثلما يرى «الماويّ» الأصـيل الثـورة زحزحة دائمة للبنية الاجـتماعـيـة. وتتـضـمن كلتـا النظرتين لازمـة سـعـيـدة ترى ان النقاد والثـوريين لن يكونوا عاطلين عن العمل أبداً.

ولأكن الآن أدق في وضع المنهج السيـمـيائي في الأدب بين هذه المناهج الاخـرى. ترفض السـيـمـيـاء علم التأويل الخاص بالمؤلف من خـلال نقـدها لفكرة المؤلف. فـالمؤلف عند الناقـد السيميائي ليس الهاً يتأمل في خلقـه، ولا حـتى شـخـصية فردية موحدة تماماً تضع خياراتها الجماليـة كما تشـاء. منتـجـو النصـوص الأدبيـة هم ايضاً كائنات ثقافية احـرزت رتبة الذاتية الانسانية من خلال اللغة. ويتحقق ما ينتجونه من نصـوص أدبيـة بقـبـولهم قيود المعايير النوعية أو الاستطرادية. وتتحدث من خـلالهم أصـوات أخـرى بعـضها ثقافي وعام، بعضها يجيء مشوهاً بسـبب تلك الجـوانب من الحـاجـة الاجـتماعية المكبوتة كثمن للحصول

على ذاتية عامة في اللغة. فالمؤلف ليس «أنا» مكتملة، بل مزيج من العناصر الخاصة والعامة، الشعورية واللاشعورية، التي توحدت على نحو ناقص لكي تستخدم أساساً تأويلياً.

يكوّن القراء، بالطبع بالطريقة نفسها: فهم ذوات منقسمة تتخللها الشفرات. وترك القارىء «حراً» في التأويل أمر مستحيل. لان القارىء «الحر» هو أيضاً واقع تحت رحمة الشفرات الثقافية التي تشكل كل شخص بوصفه قارئاً، وتحت رحمة الملامح المناورة للنص وللصف، وسياق القراءة كلها ايضاً. ان الطلاب بحاجة الى ان يكتسبوا الشفرات التأويلية لثقافتهم، ولكنهم بحاجة ايضاً الى ان يروها كشفرات، وبذلك يمكنهم ان يتذوقوا تلك النصوص التي تعيد صياغة الافكار المقبولة، وان يتحصنوا في الوقت نفسه من الاستغلال المناور للرأي الجاهز.

في تمييز المنهج السيميائي للدراسة الادبية عن المناهج الاخرى، قد يكون من الاهم ان نوضح الفرق بين التحليل السيميائي وأهم سوابقه في الفكر النقدي والتربوي الامريكي: أعني النقد الجديد. ويمكن اقامة هذا التمييز على أساس الاختلاف بين فكرتي «العمل» و «النص». ويعتمد تفسير النقد الجديد على فكرة «العمل» الأدبي: أي الموضوع الكامل المكتفي ذاتياً، الذي يتكون من كلمات مبسوطة على صفحة، تمنح معانيها لكل متمرن على النقد التطبيقي. ان انغلاقية «الاعمال» هي خاصيتها المميزة. وينبغي ان ينظر اليها باعتبارها جزءاً من قصد مؤلفها، حرة من الضرورة التاريخية، وحرة من اسقاطات القارىء في القيمة والمعنى. فالمعنى مطوي في الكلمات المبسوطة على

الصفحة وينبغي ان يفضه مستكشف ماهر في فض المعاني.

لقد ادى الآيثار النقدي الجديد لتكامل العمل في الدراسة الأدبية إلى سلسلة كاملة من الايماءات التأويلية والتربوية والتحريرية. فأعطي الطلاب قصائد ليؤولوها وقد أزيلت أسماء مؤلفيها، واخفيت عناوينها، واغفلت تواريخ كتابتها. وانتجت دواوين شعرية باعمال منظمة لا حسب الترتيب الزماني لكتابتها، بل حسب الحروف الالفبائية، وبمعلومات سيرية حذفت، أو أخفيت في الملاحق، ودون اشارة صريحة الى البلد أو التاريخ. وباسم التأويل المحسن انقلبت القراءة الى سر، والصف الأدبي الى مصلى يصعق فيه المعلم الكنسي (الذي يعرف المؤلفين والتواريخ والعناوين والسير والمصادر الخاصة بالنصوص) المؤمنين بمعجزات التأويل. وكانت فضيحة النقد الجديد (التي هي مصدر قوته ايضاً) تكمن في افادة المعلمين من الشفرات الثقافية التي يؤكدون رسمياً أن لا علاقة لها بالاجراء التأويلي. وأنا بالطبع، لا ألمح هنا إلى انهم قد مارسوا الاحتيال شعورياً، بل انهم خلقوا اسطورة تعليمية آمن بها الآخرون لانها كانت ترضي المربين الذين آمنوا بها. وكان الوضع الكامل مرتكزاً على فكرة العمل المغلق المكتفي بذاته.

النص، في مقابل العمل، شيء مفتوح، وغير كامل، وغير مكتف. وليست هذه خاصية لصيقة بأية قطعة كتابية، بل مجرد طريقة في التعامل مع هذه القطعة الكتابية، أو أية مجموعة أخرى من الاشارات. ويمكن لنفس الكلمات ان تعد نصاً أو عملاً. وكنص ينبغي فهم القطعة الكتابية بوصفها نتاجاً لشخص أو اشخاص، عند

نقطة معينة من التاريخ الانساني، وفي صورة معينة من الخطاب، تستمد معانيها من الايماءات التأويلية لافراد القراء الذين يستعملون الشفرات النحوية والدلالية والثقافية المتاحة لهم. النص دائماً يردد صدى نصوص اخرى، وهو نتيجة خيارات حلت محل احتمالات اخرى، قد لا تتوفر تسجيلات لفعالية التنصيص هذه، وقد تتوفر في صورة مسودات مخطوطة، غير أنه لابد من افتراض هذه العملية. النص دائماً نتيجة قرار اعتباطي للتوقف عن الكتابة عند نقطة معينة. ومن حق المحلل ان يتأمل فيما كان يجري قبل اتخاذ قرار التوقف، وما يكون استمر حدوثه بعد ذلك، أي فيما أقصاه النص وما ضمنه ايضاً. وفي معاملة قطعة كتابية على أنها نص تشعبات اخرى سأعالجها فيما بعد في هذا الكتاب، مثلما سأحاول أن امضي الى ما وراء المفاهيم العامة في التوضيح الخاص بالتحليل السيميائي للنصوص. وأنا مطمئن انني بينت سلفاً انني داعية للدراسات السيميائية. وفي الصفحات الآتية، سأقوم باستكشاف مدى السيمياء وحدودها بوصفها حقلاً دراسياً اكاديمياً، وبوصفها أداة للتحليل النصي.



نحـــو سيميـــاء للأدب

الأدب، بالطبع، كلمـة وليس شـيئاً. وتسـتـعـمل هذه الكلمة في الأحـاديث العابرة بطرق كثيرة، يشتبك بعضها مع بعضها الآخر. فقد يـتم النظر الى «الأدب» بوصـفـه الكتـابة الصـادقـة في مـقـابل الكتـابة الزائفـة، أو الكتـابة الجـمـيلة في مقابل المفيدة، أو اللاصادقة في مقابل الكتـابة الصـادقـة/ الزائفـة. وقد ينظر اليه بوصفه ما ينطوي على بعض الاشكال النوعـيـة الراسـخة مثل القصيدة والمسرحية والقصة، في مقابل الأنـواع المـتـنـازع عليـهـا مـثل المقـالة والفلم مما يتـخلف مترصـداً على الحـدود. ولا تشـتغل أغلب أقسام الأدب بمفاهيم أفضل من هذه، كما أشـار الى ذلك «سبارشوت» ساخراً (في مجلة «سينتروم» ٣ ، العدد ١ (ربيع ١٩٧٥) ص ٥ ـ ٢٢). فهي تسير بكل ما في العالم من ثقة .

وأنا أتعـاطف مع التـخبط التقليدي هنا. فما يبدأ كتوضيح، غالباً مـا ينتـهي كاسفاف، منتجاً مقولات جامعة أو مانعة من شأنها ان تحيل كـل محـاولات الـتـفـكير المنهـجي بالأدب الى زراية به. والتـخـبط، في النظرية الادبيـة، كما في الحـيـاة، غـالباً ما يكون اكثر انسانية، بل أكثر اقناعاً من البدائل التي تقدمها النظم السياسية أو الاخلاقية أو الجمالية. وفي الحـقيقة قد نعرف عن بعض أنواع السلوك البشري اكثر مما نستطيع ان ننظم أو نمنهج، ولذلك فأن حـدوسنا التلقـائيـة قد تكون في الواقع أرقى من الأوضـاع التي نفكر فـيـهـا كـثيراً. ومع ذلك، فإننا دارسي ما يُسـمى بالأدب، لا نسـتطيع ان نمد يد العون بأكثر من الرغبة في فهم

ما نقوم به فهما أفضل. ونحن ندرس لكي نعرف، وتجعل مشكلة معرفة ما الادب نفسها من ذلك امراً جذاباً بالنسبة الينا. وتقوم محاولتي الاهتمام بهذه المشكلة هنا على الموروث الشكلاني والبنيوي والسيميائي في الفكر النقدي، لكنني سأوجه هذا الموروث، عند بعض النقاط الحاسمة، الى ما أعده اتجاهاً ضرورياً، بل قد يقول البعض أنني وجهته الى حد نقطة القطيعة.

كلمة «أدب» فيما أزعم، ينبغي أن تستخدم لتطلق على مجموعة معينة من افعال الاتصال التي يمكن تكرارها أو استعادتها. وسأتوسع فيها بعد في مفرده «معينة» من التعريف، التي تتطلب اقصاء بعض الافعال الاتصالية التي يمكن تكرارها أو استعادتها من التصنيف الأدبي. لكنني لابد ان احدد بعض الالفاظ في هذا التعريف اولاً. ويتطلب «ما يمكن تكراره أو استعادته» ان يكون لما يوصف بأنه أدب قدرة على البقاء. وقد يأخذ هذا البقاء شكل نص مكتوب أو قول مسجل أو بكرة فلم أو أي شيء منقول شفاهاً كالمثل أو النكتة أو الاسطورة أو القصيدة الملحمية. وفي الأشكال الشفاهية لا يكون ما يتم ترديده نصاً مطابقاً في العادة، بل بنية يمكن التعرف عليها ـ أي النكتة أو القصيدة الملحمية نفسها بألفاظ اخرى ـ غير أن هذا التماثل في البنية يدرج امثال هذه الأعمال في حدود هذا التعريف للأدب. وقد يمكن لقول أو فعل ليس بالمستطاع تكراره أو استعادته، سواء كان نكتة منسية أو مخطوطة ضائعة، ان يكون أدبياً ايضاً، غير انه لا يكون جزءاً من الأدب، ما دام الأدب يتضمن مجموعة الأقوال المتوفرة فقط. وقد رأى بعضهم (من بينهم سبارشوت) ان كل النصوص المكتوبة ينبغي ان تعد أدباً، ولهذا ما يسوغه، كما سنرى فيما بعد. فالكتابة لا

تحـفظ الاقـوال حرفياً، بل انها تترجم المادة المتوفرة على نحو مباشر أمام الحـواس الى وسـيلة اخـرى هي، كما سأبين، عنصر أسـاسي في عـملية التخيل القصصي Fictionalization . وتسـتـدعي كلمـة «فعل» في تعريف الأدب المقترح هنا ان يكون القـول الممكن تكراره أو اسـتـعـادته، فعلاً مـتـعـمداً يقوم به كائن عاقل. فالخطأ ليس أدباً. لكنه يمكن ان يكون أدباً اذا أداه شـخص آخـر غير مـرتكبـه. بل يمكن جـعل أي قول أو ايماءة انسـانيـة أدبيـاً بدمجه عن عـمـد بقـول آخر. وقد تعمل اية قطعة كـلامـية تافهة أو مبتذلة على نحو أدبي في قصة أو مسرحية، على سبيل المثال، أو حتى في اشراقات جويس، تماماً كما يمكن لقطعة الخشب أو القمامـة ان تندمج في عمل نحتي، أو أية لقية ان تتحول الى فن بصري بفعل الانتقاء والعرض.

وأخـيراً لابـد ان تـؤخـذ بـالحـسـبـان كـلـمـة «اتصـال» الواردة في التـعـريف فـقـد استعملت هنا لأنها تتضمن بعض الانساق اللا لغوية للدلالة، وبعض الأشكال اللغـوية المتوقعة أيضاً. والمقولة المسماة «أدباً» التي كـانت تسـتـبعد المسرح والفلم قد تكون مربكة ومضجرة لأسباب كـثيرة، منهـا أن العـمل الواحـد الذي يمكن التـعـرف عليـه (سـاحـة واشنطن لهنري جميس، تمثـيلاً) قـد يوجـد وجـوداً مؤثراً كنص مطبوع، أو كأداء مسرحي، أو كفلم. ويبدو أن كلمة «اتصال» تفتح الباب على مصراعـيـه على الاشكال اللالغـوية كالايماء والرقص، التي هي اتصالية بوضـوح، وحـتى لجـمـيع أشكال التـعـبير الصـورية والموسيقية. وأكثر الموسـيـقى «توصل» شـيئاً مـا. كـذلك الفنون البصرية، برغم أن هناك مـدى واسـعـاً يفـصل الاشكال التـمـثيليـة عن الاشكال الخـالصة أو المجـردة. هنا من المفـيد ان نحصر معنى الاتصال في التعريف بالاقوال

التي تقبل عقلياً ان تعاد صياغتها لغوياً. وحتى في هذه الحالة ستكون الحدود غير ثابتة، وهي نقطة ينبغي الاعتراف بها هنا. واذا افلحت بقية اركان هذا التعريف والتوضيح بما يكفي لجعل هذا الضعف مهماً أمكن تأمله بدقة اكبر في مناسبة اخرى. ويكفي القول في الوقت الحاضر ان الاعمال التصميمية (الايقونوغرافية) في الفن البصري، وكذلك الموسيقى التصويرية والناطقة، هي الى حد ما أدبية.

ما هو أكثر اهمية في الوقت الحاضر، هو ذلك الجزء من التعريف الذي تنكر بكلمة «معينة». إذ أنك سترغب في معرفة أية خاصية تجعل فعلاً إتصالياً ما عملاً أدبياً ؟ سأجيب، مثل كل بنيوي طيب من اتباع مدرسة براغ، بكلمة واحدة، انها «الأدبية». هذه الإجابة، بالطبع، رائعة منطقياً، ولكنها غير ذات معنى على الاطلاق، مالم يتم تقليص نسبة تحصيل الحاصل في نظام تشفيرها الدلالي. وهذا ما سيكون عملنا هنا. إن أهم اسهامات رومان جاكوبسن في الدراسة الادبية هو أنه حررنا من اعتبار «الأدب» مقولة مطلقة. ولقد علمنا ان «الأدبية» توجد في جميع انواع الاقوال (أو المنطوقات)، وبعضها ليس بأدبي على نحو خاص. و «العمل الأدبي» هو ببساطة العمل الذي تهيمن فيه الأدبية. ومن الواضح ان هذا يسمح بقضايا الحدود والمنازعات، غير أن هذه احدى حسناته دون شك، مادام الأدب بوصفه مقولة مطلقة يستفز المنازعات على نحو ما دائماً، وبجعل المحاججة تستدير الى «الأدبية»، ينبغي ان نعرف في الأقل أي نوع من البراهين كان ينبغي ان ينهي هذه المنازعات، إذا ـ وإذا هنا واسعة ـ إستطعنا تعريف الأدبية تعريفاً مقنعاً.

بالطبع ربما لا نكون بحاجة الى تعريف الأدبية بوصفها ركناً من أركان القول. ويستطيع المرء أن يقلب المشكلة بكاملها اذا قام بما اقترحه جوناثان كولر في كتابه «الشعرية البنيوية»، فينظر الى الأدبية لا بوصفها وظيفة للعمل ذاته، بل بوصفها طريقة خاصة في القراءة. يقترح كولر أن لا تكون القضية أدبية النص، بل «الكفاءة الأدبية» عند القارىء: «وبدلاً من القول، مثلاً، ان النصوص الأدبية خيالية، ينبغي أن نورد هذا كعرف للتأويل الأدبي ونقول أن قراءة نص ما بوصفه أدباً هي قراءته بوصفه خيالاً». لكن هل يجب على «القارىء الكفء» أن يقرأ النصوص كلها كخيالات، أم يجب عليه أن يقرأ كل نص بطريقة مناسبة؟ يرى كولر ان الكفاءة هي في الأساس سيادة الأعراف النوعية، وهذا موقف أتعاطف معه. لكن هل كل الأعراف أدبية؟ هل كل النصوص خيالات؟ ليست هذه بأسئلة بسيطة ، بل اسئلة تحتاج الى مزيد من الحوار، ومن أجل تسوية الحوار لابد من مواجهة سؤال الأدبية مرة أخرى، وتبقى مشكلة الأدبية ماثلة سواء أو ضعناها في النص أم في القارىء أم في النظام. ويكمن الحل الذي اقترحه في اعتبار «الأدبي» خاصية تحول جميع الوظائف الأساسية للفعل الإتصالي، بما في ذلك دور القارىء، وهذا ما يعيدنا الى رومان جاكسون.

إن الملامح الستة للفعل الاتصالي التي اشاعها مخطط جاكوبسن هي: المرسل، المتلقي، قناة الاتصال، الرسالة، الشفرة، السياق:

السياق

الرسالة

المرسل ———————— المتلقي

قناة الاتصال

الشفرة

في ترسيمة جاكسون، تكمن الوظيفة الجمالية، التي تجعل من التعبير اللغوي تعبيراً أدبياً، في التحويل الذي يطرأ على شكل الرسالة ذاتها. فقد يتم تمييز القول الأدبي عن القول غير الأدبي بابرازه بنيته الشكلية. ويجبرنا هذا الابراز على اعتبار القول مبنياً بشيء من الكثافة والغموض. فهو ليس حاملاً شفافاً يتم من خلاله توجيه افكارنا الى سياق أو فعل ما. بل أنه كيان يستحق التفكير به لذاته. وهذه الصياغة شديدة القرب من وجهات نظر كثيرة، مثل وجهة نظر آ. أ. رتشاردز والنقاد الجدد. وتستند في أساسها الى افتراض «كانت» عن لاغائية الموضوعات الجمالية.

وهذه إلى حد ما صياغة مفيدة، غير اني أجدها مثار شك لعدد من الاسباب. منها انها تصح على الشعر، ولاسيما الشعر المسبوك اكثر مما تصح على القصص النثري أو الدراما ومنها انها تتخلى عن كثير مما تم اكتسابه برؤية الادبية ملحماً اتصالياً اكثر مما هي نوع من النشاط اللاغائي المدعو «فنا». ويبدو في النظرة الاولى ان هذه الفكرة عن الفن ستجعل من جميع تلك الجوانب المعرفية أو التعليمية في الأدب مجرد أوشاب. واذا كانت الموسيقى اكثر الفنون اكتمالاً، لانها لا تشير الى شيء، ولا تبرهن على شيء ، ولا تدافع عن شيء ، إذن، فإن الأدب

الذي يدعـو ويشير ويدافع دائماً سيكون غير مكتمل باستمرار. وبدلاً من ان نقـبل بفكرة كون الادب نوعاً من الفن الفاشل، لابد ان نبحث نحن الذين جـعلنا من الدراسـة الادبيـة هم حياتنا المركزي عن تعريف لـه يفسر هذه المركـزية. والنظر الى الادب بوصـفـه تنقـيـة أو اتسـاعـاً لـعـنـاصر الاتـصـال، ولـيس ابتـذالاً لعناصر الفن، هو الخطوة الاولى الضرورية في هذا الاتجـاه. وتدفع صـيـاغـة جـاكـوبسن المحكمـة ثمناً باهظاً عن احكامـها. فهي ترتد الى علم الجمال حين يجب ان تستمر في طريق السيمياء، وبذلك تكون النتيجة تعريفاً للأدبية يستبعد الكثير من أهم صـفـات الأدب، بما في ذلك الكثير من الشـعـر. ولقـد حان أوان الانتقال الى صيغة تجعلنا اكثر اقتناعاً بفكرة الأدبية.

واذا بسطنا الأدبيـة، قدر الامكان، فاننا نشعر بها في قول ما حين يفـقـد اي ملمح من مـلامح الاتصـال السـتـة بسـاطته ويصير متعدداً ومـضـاعـفـاً. ولأوضح هذا بحـالات صغرى. نحن جميعاً على الفة بما يحـدث حين نحس باخـتـلاف بين مـؤلف قـول مـا والمتكلم به. وحين نقـول أن الكلمات هي «قناع» للمـؤلف فإننا نعني كما توحي الكلمة أن المؤلف قـدم لنا شـخـصـيـة مـقنعـة. ومتى شجعنا فعل اتصالي ما على الاحـسـاس بفـرق بين مـؤلفـه والمتكلم به، تنشطت كـفـاءتنا الأدبية. ويصح هذا ليس فـقط في المواقف الواضـحـة مـثلما يحدث حين نواجـه كلمات الشـخـصـيات في المسرحيات والقصص، بل في المقالات أيضاً، أي حين يتـبنى كـاتب المقـال نبرة أو دوراً يبـدوان انحـرافـاً عن المعـيار المتـوقع. وحـتى في النقاش العرضي، حين يتبنى المتكلم نبرة معينة، أو اسلوباً أو لهجـة في مناسـبـة مـا، فـاننا نلاحظ ان هذا نوع من السلوك الأدبي. فـفي النثـر المكتـوب، تمثل وسيلة مثل التقديم الساخر للبرهان

في مقترح متواضع لـ «جونثان سويفت» حالة متطرفة على ازدواجية مرسل فعل الاتصال.

وبالمثل اذا كانت كلمات منطوق أو قول ما تبدو وكأنها لا تتوجه الينا مباشرة، بل عبر شخص آخر، فان هذا الموقف المزدوج أدبي في جوهره. ولقد أكد جون ستيوارت مل ذلك حين قال ان الشعر لا يسمع، بل يختلس السماع اليه اختلاساً. ومواقف الاستراق والاختلاس هي الى حد ما أدبية، ولهذا السبب دون ريب تبرز بروزاً في النصوص الادبية المكشوفة. ان الكفاءة الادبية عند القراء فيما يخص هذا الملمح من ملامح الافعال الاتصالية هي في الاغلب قضية تخيل شخص يوجه اليه القول أو تلقي معاني لم تقصد سامعاً ظاهرياً، أو لم يفهمها. فكل لطف في الاتصال يتطلب لطفاً مقابلاً في التأويل.

ونوضع أيضاً في موقف أدبي حين لا تكون قناة الاتصال بسيطة. لو قدمت لنا الكلمات المنطوقة على شكل كتابة، مثلاً، فلا بد ان يكملها أما الكاتب أو القارىء بملامح الاتصال الشفاهي المفقودة في الترجمة ـ يحدث ذلك مثلاً عندما يذكرنا لورانس ستيرن ويتجشم عناء تسجيل دجل العريف تريم واشاراته وتأكيده حين يقرأ العريف بصوت عال وثيقة في «ترسترام شاندي». وبالتدوين الكتابي عن قراءة بصوت مرتفع لوثيقة مكتوبة، يجعل ستيرن بالطبع الموقف أدبياً على نحو مضاعف فيما يخص قناة الاتصال. وكذلك فان وصف الاشياء التي تدرك بصرياً في العادة يوشك ان يكون أدبياً لانه يريد أن «يترجم» ما يمكن ان يكون قناة اتصال بصرية الى قناة لغوية. وتعتمد فكرة ان جميع الوثائق المكتوبة هي أدب على أساس هذه العملية. وفي

الحقيقة كلما زاد الفرق والاختلاف الذي نشعر به بين القناة اللغوية المطبوعة، ووسائلنا العادية في ادراك الموضوعات التي يتناولها أي نص مطبوع، زاد احتمال كون القول ادبياً. ولذلك فان من الممكن ان تنطوي الكتابة بجميع اشكالها على اثار الادبية، لكن يجب ان نتذكر ان الادبية لا تعني الادب حتى تهيمن على قول ما.

والازدواجية في شكل الرسالة نفسها، برغم انها معقدة ضمناً، هي ركن من الادبية نفهمه في الوقت الحاضر فهماً افضل، لانه درس دراسة دقيقة. فقد نبهنا جاكوبسن وريتشاردز وجميع الشكلانيين والنقاد الجدد الى الاثار الصوتية المختلفة والانماط النحوية في الشعر، مثل التهكم والغموض والمفارقة والملامح الازدواجية الاخرى في الرسائل الشعرية. ولا اريد ان استغرق في هذه الملامح هنا الا لكي اشير الى انها لا تعمل على قطع الصلة بين العمل الأدبي والعالم الخارجي، بجعله موضوعاً مكتفياً بذاته، كما يدعي كثير من المنظرين. بل بالاحرى، الى انها تعمل على خلق توتر أدبي بين القول بوصفه اتصالياً ويحيل الى الخارج من ناحية، وبوصفه لا اتصالياً ويحيل الى ذاته من ناحية اخرى. وكما رأى موري كرايغر مع آخرين سواه، فان القصيدة تغرينا في العادة بكونها وفي الوقت نفسه المرآة والنافذة.

لقد استبقيت السمات المعقدة للآخر، أعني الشفرة والسياق. ويمكننا ان نؤجل الشفرة قليلاً، مادامت جميع السمات التي تأملناها كسمات ادبية يمكن وصفها بالاعراف والوسائل البلاغية التي تحول الخطاب العادي الى خطاب أدبي. وتشكل هذه الاعراف والوسائل شفرات الادب. وسنعود الى الشفرات والتشفير، ولكننا لابد أن

نـواجـه اولاً اعـقـد واهم المشكلات في النظرية الادبيـة، أعني مـشكلة السـياق، يزيح جاكوبسن نفسه هذه المشكلة من منطقة الادب قائلاً ان القـول الذي يركـز على سـيـاقه هو قول مرجعي وليس شعرياً. ويقابل كـثـير من المنظرين مـثل ريتـشـاردز الخطاب المرجـعي باللامـرجـعي، كطريقـة لفـرز الاخـتـلاف بين النص النفعي والنص الجمالي. وتميل كلتا المدرستين في النقـد، الشكلانيـة والنقـدية الجديدة، الى انكار وجود أية خـاصـيـة مـعرفية في النصوص الأدبية. ويعني هذا، من خلال نموذج الاتصـال المذكـور، انكار احـالة النصـوص الادبيـة الى سـياق فيما وراء نظامـهـا اللغـوي، أو وراء النصـوص الاخرى التي تشترك معها بذلك الـنظام. وهدفي هنا ان ادعـو الى الافتراض المعـاكس. وبالقـيـام بذلك اكـون في قطيـعـة مع الموروث الراجح في الدراسـات السـيـميائية الذي يمـتد من سوسير حتى بارت، والذي هو متفش في البنيوية الباريسية.

لقـد كـان اقـوى افتراض في الفكر السيميائي الفرنسي منذ سوسير هو فكرة ان الاشـارة لا تنطوي على اسم ومـسمى تشير اليه، بل صورة صـوتيـة وتصـور، أو دال ومـدلول. وعلمنا دي سـوسير كما توسع فـيه رولان بارت وآخـرون، ان نمـيـز هوة لا تردم بين الكلمات والاشـيـاء، بين الاشـارات والمراجع. ورفض البنيـويون الفـرنسـيـون فكرة «الاشارة والمرجع» بكاملهـا، وكـذلك اتبـاعـهم، باعـتبارها فكرة مادية وواحدية الأفـق . فـالاشـارات لا تشير الى الأشـيـاء ، بل تدل على مـفـاهيم ، والمـفـاهـيـم من اركـان الفكر، وليس من اركـان الواقع. وقـدمت هذه الصـيـاغـة المقنعة الرائعة بالتأكيد نقداً مفيداً للواقعية الساذجة، والمادية المبتـذلة ولأنواع أخـرى من المذاهب والنزعات isms التي يمكن المساواة بينهـا وبين الصـفات التعطيلية. لكنها لم تستطيع ان ترد العالم الى مجرد

تصـور. فـحـتى السـيميائيون يأكلون ويؤدون وظائفهم الجسدية، وكأن العـالم يوجـد حـولهم وجـوداً صلباً. ان عدم وجود مرجع لكلمة (خَبْز) لا يحـول بينهم وبين تناول خـبـزهم اليـومي الواقع تحت هذه الاشـارة. وكما قـال بورخس: «رباه، العـالم حـقـيقي، وأنا، يا رباه، بورخس». ومن الواضح اننا لا نسـتطيع ان نناقش قـضـيـة العلاقات بين الكلمات والاشـياء بكاملها هنا. ويبدو لي ان كون اللغة تولد كلمات مثل orgasm (الرعـشة الجنسية) أو tonsil (الـلوزة) دون عـون من الخبرات اللالغـوية أمـر غير محتـمل الى حد كبير. وفي تقديري اذا كانت اللغة نظاماً مغلقاً حـقـاً، فـسـتكون عـرضة، مثل اي نظام مغلق، للازدياد في الانتروبيا (اي الطاقـة غير المسـتـفـاد منها) وفي الحقيقة فان تغذية اللغة بالخبرات اللالغوية الجديدة هي التي تحفظ اللغة من الاضمحلال.

تعـتـمـد نظرية الادب التي ادافع عنهـا على قـبـولنا بوجـهة النظر القـائلة ان فـعل الاتصال قد يشير اشارة حقيقية الى العالم الخارجي، بل قـد يصل به التـهـور الى المضي الى مـا يكمن وراء جـدار الظاهرة ـ كما يريد مـوبي ديك ـ ان يخبرنا عن حـرفة اصطياد الحيتان، وسلوك الحيتان الحـقـيقية وصيادیها، بينما هو يسبر غور اسرار العالم. لقبول هذه النظرة لا ينبـغي ان نسـوي اية مـشكلة عن الاشـيـاء في ذاتها، أو الواقع، أو الافكار أو الجـواهر. بل ينبـغي ان نعترف ان بعض المطابقـة بين فكرنا والعـالم الخـارجي من حـولنا شيء ممكن نظرياً في الأقل، مثلما يمكن ان يـؤدي نـظـام اشـارات رياضي في الفـيـزياء الذرية الى تدمير جميع المدن بجـميع مواطنيها، اذا أول تأويلاً تكنولوجياً.

لعزل الأدبية في سياق ما نحتاج الى جهاز اصطلاحات يمكننا من

فـرز الاركـان المختلفة في الاحالة السياقية. وتقوم المصطلحات التي أود تقـديمـهـا على ثلاثة تقـابلات ثنائيـة مترابطة، أو ثلاثة جـوانب لتضاد واحـد عـميق: الغـائب في مـقـابل الحـاضر، والسـيـمـيـائي في مقابل الظاهري، والمجـرد في مـقـابل العـيني أو المجـسـد. السـياق الحيادي الـلاأدبي حـاضر وظـاهري ومجسـد. أي ان السـيـاق حـاضر لكل من مـرسل الرسالة ومتلقيها، ويتاح حسياً لكل منهما، متحرراً من التشفير السـيـمـيـائي قـدر الامكان، وهو اكثر شبهاً بالشيء المجسد منه بالفكر المجـرد. على سـبـيل المثال، لو كان شخصان ينظران من النافذة معاً، وقـال احـدهما: «انها تمطر» لكان السياق مجسداً وظاهرياً وحاضراً. ولو فـتـحـا كـتـاباً، وقرأ احدهما الكلمات التالية: «أنها تمطر» لبقي السياق مجسـداً، وبـقـي ظاهرياً ، بالقـوة . ولانه غـائب فـان مـعنى العـبـارة سـيـخـتلف اخـتـلافـاً كليـاً، فلن يشير المعنى مـباشرة الى المطر خارج النافـذة. السماء لا تمطر في الواقع الخـارجي الآن، بل في فـضـاء تعلمنا ان نسـمـيـه خـيـاليـاً. وللدخـول الى الفـضـاء الخيالي من خلال وسيط الكلمات ينبـغي ان نقلب عـمليـات التلقي وتوليـد الصـور والاصـوات والمعطيـات الحـسـيـة الاخـرى التي تتوفر أمام حواسنا اذا كنا في حضرة الظواهر المسماة.

لو وردت هذه العـبـارة نفـسـهـا في رسـالة، مادام المرسل والمتلقي غير حـاضرين أمـام بعـضـهما، وبالتالي فليسا في حضرة الظاهرة المشار اليـهـا، لولدت هذه العـبارة فضاء قصصياً خيالياً. وكلما حاول الكاتب ارجـاع ظاهرة المطر التي لا يمـتلك منهـا سـوى الاحساسات الى مجرد كلمات، زاد ذلك الفـضـاء امـتلاء واتساعاً من الناحية المادية المجسدة. ويمكن لكل اتسـاع في وصف المطر ان يكون اكـثـر ادبية. (من الجدير

بالملاحظة ان الوصف الذي يستبدل بمقولات أو اصناف تحليلية أو عملية، أصنافاً حسية مستمدة من الملاحظة الانسانية سيكون اقل أدبية، لانه اقل تجسيداً. وما نعنيه بالمجسد هو «الوصف طبقاً لانماط ادراكنا العادية». وترتبط شفرات القصص الخيالي بنظام ادراكنا كما ترتبط بلغتنا).

لو كنا على كاتب الرسالة ان يبدأ بوصف المطر خارج نافذته وان يختم رسالته قائلاً «حين قلت انها كانت تمطر سابقاً، ووصفت المطر، فانها لم تكن تمطر حقاً. لقد اختلقت كل ذلك». ولو قدر لنا أن نتلقى تلك الرسالة ونقرأها، فكيف سنستجيب لها؟ ولو أضاف حاشية يؤكد فيها انه كان كاذباً حين قال انه «اختلق» المطر؟ وهكذا؟ الرسالة تناقض ذاتها، وتذكرنا على نحو عدائي بأننا لا نستطيع الدخول إلى سياقها. لن نعرف ما اذا كان الكاتب ينظر بحق إلى خارج نافذته فيرى مطراً واقعياً أم لا. ولا يعتمد الوضع الخيالي للمطر على واقع او لا واقع المطر، بل على غياب السياق «الواقعي» عن القارىء. وكل وصف نقرأه خيال. وسنتأمل في علاقة هذه الخيالات بالسياق الواقعي فيما بعد.

ان سياقاً حاضراً على نحو ظاهري لا يستحضر الأدبي بالطريقة نفسها التي يستحضره بها السياق الغائب. وفي الحقيقة يمكن ان تنتج الأدبية القائمة على السياق الحاضر عن انتهاك سيميائي لهذا السياق. لو أن احد مراقبي المطر المذكور قال لصاحبه: «ما أروع الطقس»، لادرك الآخر هذا التعبير على انه سخرية وتهكم بسيط . وفي الحقيقة فإن هذه الترجمة ستكون فورية الى حد ان العملية المعقدة التي

تـضـمنتها ستضيع. ما يحدث في هذا الموقف هو التالي: يقول (آ) «ما اروع الـطقـوس». (ب) يعـرف ان السيـاق يكذب مـا يقـوله، اي ان الظاهري يرفض السيـميائي. غير انه بمعرفة ان (آ) يعي انه على وعي بهـذا الموقف الفـعلي، وان (آ) يعي انه على وعي به، يعـرف (ب) أخيراً ان (آ) يشير الى سياق خيالي ـ ما اذا كان الطقس رائعاً بحق ـ كطريقة في التـعبير عن استـيـائه من الظاهرة الفـعليـة لهذا المطر بذاته. وهذه العـمليـة المعـقـدة في مـقارنة سياقين هي التي تتيح لنا القول ان المعنى الظاهر لهذه العـبـارة ليس هو المعنى الواقـعي. ومـا يجب ان نعده مجازاً أو شكلاً بلاغـيـاً، اعني التهكم، هو في الحقيقة وظيفة سياق لا يمكن تحـديـده مـن شـكل الرسـالة وحـدها. وسنجـد، تحت الفـحص، ان مجازات اخـرى تـبـدو في ظـاهـرهـا لـغـويـة خـالصـة، مـثل التـورية والاسـتـعـارة، وهي تعمل من خلال ترادف المقارنة بين سياقين، وليس مجرد سطح لغـوي خـالص. والسـخـرية، بالطبع، هي اوضح انتـهاك سـيـمـيـائي للسياق الحاضر. وستحتوي اية اعادة تشفير للظاهري على بعض مـقـاييس الادبيـة لانها تغير قناة الاتصال (كما رأينا اعلاه)، وكلما زاد الاحـسـاس بكون اعادة الشتفير تشويهاً زاد ظهورها ادبية.

والآن وقـد رأينا كـيف ينتج الخـيـال عن التـوليد السيميائي لسياق غـائب، او عن تشـويه سياق حاضر، ربما ينبغي ان نتوقف لنرى كيف تخـتـلـف هـذه الخـيـالات عـن نوعين قـريبين مـتماثلين أعني: الكذب والخطأ. لنفترض ان احـد هذين الشـخـصين يمكن ان ينظر الى خـارج النافـذة. ولاسـبـاب خاصة به يقرر ان يخدع الشخص الآخر. (لاحظ انني كلما جـعلت هذه الاسـبـاب اكـثر تجسيداً، صار هذا المشهد أكثر خـيـالاً) يـقـول ان السماء تمطر، في حين انها لا تمطر، ويخدع الآخـر

بقبـول هذه الفكرة. لقـد ولد خيالاً حقيقياً من خلق سياقين، غير ان زميله الذي رضي بهذه الصيـاغـة، لم يعـرف سوى سياق واحد فقط. ولهذا السـبب فما من خيـال لديه. ولانها (لاحظ كيف ان تغير الضمير إلى ضمير مؤنث يضفي على مشهد هذين الشخصين صفة تخيلية) تقبل بترجمة الظاهري إلى لغـوي خـالص بوصـفـهـا ترجمة شفافة ومرجعية، فـانها لا تميـز بين الخـيال والكذب فيما قاله. بالطبع كلاهما بالنسبة اليه خـيـال وكـذب، اي خـيـال يقـدم نفـسه كحقيقة وفي نيته الخداع، أما بـالـنسـبـة الينا نحن الذي نختـلس النظر ونسترق السـمع الى المشـهـد ونتـعـرف على هذا الشيء كله كـسـياق توضيحي مصطنع، فان المشهد خيالي الى حد بعيد، برغم وظيفته في هذا الخطاب اللاخيالي.

كذلك لو ان الشخص الذي يحدق خارج النافذة يخطىء في ادراك الظاهرة الخـارجيـة، فـيقول أنها مطر يتساقط، وليس في نيته الكذب، فـان هذا القـول ليس خـيـالاً عند المتكلم. لكنه قـد يبـدو كذلك عند مـسـتـمـعه ربما تتحقق من صحة هذا القول. وسيكون الدافع الطبيعي لدى المسـتـعـمـة هو التساؤل ما اذا كان يجب عزو التعارض النصي الى الكذب أم الى الخطأ، ويتطلب منها هذا التساؤل ان تتخيل لكي تصل إلى قـرار. ويـكون الامـر كـذلك لان كل تحـديد أو تجـسـيـد للدوافع الانسـانيـة هو تقـديم سـيـاق غير مـتوفر ، وغائب ، وفيما وراء الادراك المباشر.

لقـد كنا مـهـتـمين حـتى الآن بما هو أدبي في حـده الادنى. ومن الواضح ان اشـيـاء كالتعليق الساخر عن الطقس لا يحتمل ان يحفظ في حـوليـات الادب، غير أن هذه الاشياء تنظر الى بنى ادبية اكثر تعقيداً.

ان ازدواج السياقات هو البداية لذلك النوع من الادبية التي تميز الخيال القصصي. وهذا الازدواج يفسح المجال لاثار ادبية اخرى تعتمد على الخصائص المتقابلة بين السياقين تثيرهما رسالة معينة. ويمكن ان نجد التعدد في السياقات multicontextuality هذا يعمل، بتعقيد مذهل غالباً، على مستوى خطاب ليس ببعيد جداً عن النقاش حول الطقس. واقترح ايضاح هذا باقتضاب من خلال تأمل العناصر الادبية في بعض الملصقات على خلفية السيارات التي كانت بارزة في حوارنا (السياري) قبل سنوات.

خذ مثلاً ملصقاً لا يقول سوى كلمة واحدة هي «سلام». ان اعراف الالصاق تمكننا من تأويل هذا كقضية معناها: سائق هذه السيارة مع السلام. ولو حدث ان ساق السائق السيارة على نحو عدائي وعنيف، فان التعارض بين الرسالة اللغوية المقصودة والاشارات السلوكية يضحكنا. فنحن، مشاهدي هذا المشهد، قد نضع السياق المقصود لرسالة الملصق (وهو موقف سياسي من الحرب أو العنف) مع الايحاء غير المقصود لسلوكه في سياق جديد من عندنا. وقد نتخيل عقلياً هذا الموقف مخترعين شخصية تقول شيئاً وتفعل شيئاً آخر.. الخ. غير أن اداءنا هو الأدبي هنا، وليس اداء صاحب الملصق أو مؤلفه.

خذ مثلاً آخر يتم فيه تجاهل سلوك صاحب السيارة التي يثبت عليها الملصق. تخيل ملصقاً يقول «السلام»، ويحمل صورة حمامة. ترمز الحمامة هنا إلى السلام، باحالة ثقافية الى نصوص انجيلية وغيرها في الأساس. يضيف الملصق هذه السياقات الانجيلية الى الكلمة لكي

يـقـويهـا، وربما يذكـرنا بأمير السـلام (أي المسيح) وغير ذلك. وحين نحشد كل هذه السياقات الثقافية لخلق سياق ظاهري، هو فعل الحرب والـعنف، نؤدي مـرة اخـرى فـعـلاً ادبيـاً في حـده الادنى. وهنا يكون لواقـعيـة الموقف السـياسي الذي يجب ادراك الاشارة كنقيض له، اثرها القـوي على تأويلنا. وقـد كان لملصق «السلام» سياق اكثر تجسيداً عند الامـريكيين خلال حرب فيتنام مما له في وقت كتابة هذه السطور.

افترض الآن وجـود ملصق سـيـارة خلفي يقـول: «افعلوا الحب لا الحرب make love not war» يتطلب منا هذا ان نسـتـحضر شـيئاً مجسـداً جـداً، هو فعل الحب الجسدي، في تضاد مع شيء آخر ظاهري ايضاً، ولكنه أقل تجسـيـداً. فـعل الحب شيء محدد جداً أما فعل الحرب فهو القـيـام بأي عـدد من الاشـيـاء الممكنة التي لا تشـخصها هذه الرسالة بالتـحـديد. غير ان السـيـاق الخـاص بفـعل الحب، والسـيـاق العـام بالنزاعـات المسلحـة يلتـقـيـان في اذهاننا الى حـد مـا، ويعززهما شكل الرسـالة التي يغطي فـيـهـا الفـعل نفـسه اسمين منفصلين. زيادة على ذلك، يجعل هذا الشيء بوصفه كلاً من ذلك التجريد الاصلي «السلام» تجسيداً بارجاعه الى شكل معين من أشكال الحب الجسدي.

لقد شاهدت نسخة من ذلك الملصق تضيف علامة بصرية. اثنان من الكركـدن يتـسـافـدان. هذه الاضـافـة لسياق آخر تضيف للطرفة ولأدبيـة الرسـالة بعـداً آخـر. فـاظهـار مثل هذين الحيوانين (الحربيين) بوضـوح اثناء تأديتـهما للمـثـيل المدوي لفعل الحب بين انسانين يذكرنا بطريقـة مـعـقدة جداً بارتباطنا بالحيوانات الاخرى واختلافنا عنها، وقد يذكـرنا بـ «مـارس» المحـارب وهو يتـودد الى «فـينوس» وعليه درعه، أو

قـد يجعلنا نتسـاءل هل تطورنا نحن بني الانسان عن بقية الحيوانات في قـدرتنا على الحب، كما تطورنا في قـوتنا العـسكرية. كل هذه التأمـلات هي ركن من اركـان كـفـاءتنا الادبية كمؤولين، غير أن النص هو الذي يشـجـعنا عليـهـا فـيـوحـد الكلمات بالصور، ليشير الى سياقات متنوعة جداً في عالمنا الثقافي المشفر سيميائياً. وينبغي ان نلاحظ هنا ان اللعب السيـمـيـائي الخـالص بالسياق يجعل الملصق اكثر جمالاً واثارة في ذاته، واقـل اعـتماداً على أي سـيـاق اجـتماعي ـ سـيـاسي من اشـارة السـلام البسيطة، التي تحتاج الى حرب كسياق لتحقيق وظيفتها السيميائية.

خـذ ملصقاً آخر يقول: (افعلوا الحب لا الأطفال) Make Love Not Babies . قد يكون هذا الملصق اكثر الملصقات التي تأملناها أدبية. فهو يحل محل بعض الاشـارات ذات السياق الواحد monocontextual مثل «نمو السكان الصفري» أو «حاربوا زيادة السكان»، ويجعل من هذه الافكار المجـردة افكاراً مجسدة، لكنه يلمح بطريقة سيميائية خالصة الى الاشارة الاسـبق زمناً (افـعلوا الحب لا الحـرب). اي ان هنا سياقاً سيميائياً في جـوهره ـ وهو في هذه الحالة لغوي ـ في حين ان السياق الاخر ظاهري في جوهره يخاطب قـضـيـة زيادة السكان. ومـرة اخـرى يستفيد فاعل الاشارة (maker) من ميل العالم الناطق بالانجليزية الى فعل (to make) كل مـاهو تحت الشـمس وتناوله، ليسـمح لهذا الفعل بان يعمل بمفعولين مختلفين. لكنه بالنسـبـة الى اولئك القـراء الذين يعرفون الاشارة السابقة (افـعلوا الحب لا الحـرب) قـد قـام بشيء خـاص، لقد اعد لهم فخاً: مـفـاجأة من ذلك النوع الذي جـعله سـتـانلي فـيش شـهيراً في (مفاجأ بـالخـطـيئة) و (الـصـنائع التي تسـتـهلك ذاتها). ربما لا يكون قـارىء الاشـارة بمـعناها المناهض للحـرب وقـارىء الاشـارة بمـعناها المناهض

للانجـاب شخصاً واحداً، وحتى لو اتخذ شخص ما هذين الموقفين معاً فـان التـغير في آخـر كلمـة من الاشـارة الثانية، من «الحرب» (war) الى «الاطفال» (Babies) يأتي بمـثـابة صـدمـة. فحيث اخذت الاشارة الاولى الحب والحـرب، وهما نقـيـضـان طبـيـعيان، وجمعت بينهما، تجمع هذه الإشـارة بين الشـبـقية والحمل اللذين يرتبطان ارتباطاً حميماً. أننا نحمل مـشكلة زيادة السكان التي هي مشكله ظاهرية، ولكنها عمومية ومجردة في الغـالب، إلى بيـوتنا وأسرة نومنا. ويوحي التـعـبير بسـياق آخر، هو السـيـاق اللاهوتي الذي كـان يصر في مـوروثنا على أن الخلق الأول هو المسوغ الوحيد لفعل الحب.

قـد يـلـجأ القـارىء الذي لديه كـفـاءة أدبيـة إلى ابتـداع المقـابل الكنسي، الملصق الذي ينصـحنا بـ (فـعل الاطفـال وليس الحب) (Make Babies Not Love) . وسـيـكون ذلك بالطبع امـراً مـضـحكاً، مـادامت الـكـنيسـة تعترف بانها ليس لديها مـا تعترض به على فـعل الحب. ولا يمكن قلب الاشـارة مـوضوع الحديث. ويحق التساؤل عما اذا كنت هنا مـؤولاً كفـءاً أكـثـر مما يجب الى درجة انني ذهبت الى اكثر مما يجب من سياقات في قراءة هذه الرسالة.

هـذه نـقـطة اسـاسـيـة، وقـد تسـاعـد على تحـديد مكانة التأويل الـسـيـمـيـائي بـين المناهج التأويليـة الاخـرى. واود ان اقـول ان هذا الملصق، على تواضـعـه، هو مثال لما يسميه امبرتوايكو «العمل المفتوح» (انظر كـتـابه: دور القـارىء). فـاذا سلمنا بأن العـمل المفـتوح يفضي بمـسألة بلاغـيـة نيـابة عن ايديولوجـيـا مـعينة (ستحوله اذا وجدت الى عـمل «مـغلق») فـانه يعلو ايضـاً بهذه الوظيـفـة الاقناعية حينما يسمح

بالتأويل المتسع الذي يوجه نصه اللفظي، وان لم يحدده. وكمؤولين سيميائيين لسنا احراراً في صنع المعنى، بل احرار في العثور عليه باتباع الطرق الدلالية والنحوية والتداولية المختلفة التي تخرجنا من نطاق كلمات النص، أي اننا لا نستطيع ان نضفي أي معنى نشاء على النص، بل اننا نستطيع ان نضفي عليه كل المعاني التي نستطيع ربطها بالنص عن طريق الشفرة التأويلية. وفوق كل شيء يمكننا ان نولد المعنى بوضع هذا النص بين نصوص اخرى فعلية ومحتملة يمكن ربطه بها.

حتى الآن، كنا نتأمل في حركية الادبية في مواقف صغرى، مستوى واحد فقط تتم ازاحته من الخطاب الاعتيادي، ولا تعد الأفعال الاتصالية أدباً في العادة. وعند هذه النقطة سيكون من الضروري الانتقال الى النهاية الاخرى من الطيف اللغوي ـ لتشفير أهم عناصر الأدبية، باقتضاب، وربطها أن امكن، بما يعرف تقليداً على انه اهم اشكال الادب. وتساعد القائمة التالية على تنظيم الأشياء:

١ ـ ازدواجية المرسل ـ تأدية الدور ، التمثيل

٢ ـ ازدواجية المتلقي ـ الاختلاس، الاستراق

٣ ـ ازدواجية الرسالة ـ العتمة، الغموض

٤ ـ ازدواجية السياق ـ الالماح، الخيال

٥ ـ ازدواجية القناة ـ الترجمة، الخيال

٦ ـ ازدواجية الشفرة ـ متضمنة في كل ما ذكر اعلاه

إن أشكال الخطاب التي نميزها في انتظام بأنها أدب وهي المسرحية والقصيدة والقصة ـ تهيمن عليها الاعراف المدرجة هنا. المسرح هو الميدان المبني بناءً خاصاً لتسهيل تأدية الدور عند الممثلين، والاختلاس/ الاستراق عند المشاهدين. وتهيمن على القصيدة آثار صوتية واستراتيجيات لغوية تثير فينا الاحساس بالرسالة على أنها شيء فريد متميز. والقصة وصف مواقف وقص احداث لا تقدم لنا، بل يخلقها الخطاب كلها، متطلباً منا ان نتخيل ونتجاوب عاطفياً مع احداث لا نستطيع الدخول اليها اشخاصاً، برغم اننا قد نربط بينها وبين تجاربنا الشخصية.

تحتمل هذه النقطة بعض التوسع، مادامت تمس السؤال المفتاح في كيفية امكان الربط أو عدم الربط بين الانظمة السيميائية والعالم الظاهري أو التجريبي. والقضية التي اقدمها هنا هي أن سياقاً واحداً، متكوناً من معطيات حسية وتجريبية يشترك به المؤلف والجمهور، انما يستحضره دائماً سياق خيالي أو محاكاتي، سواء أكان واقعياً أو وهمياً ويقدم هذا السياق «الواقعي» الخلفية لما ندركه ونقيس به اي سياق خيالي أو تجريبي زائف يقدم لنا. وعند هذه النقطة يجب ان نتأمل في وجهة النظر القائلة بأن السياق «الواقعي» هو ايضاً خيال، مادام يعتمد على تجربة ماضية لم يعد الى توفرها من سبيل. وهذه النظرة صحيحة الى حد ما. اذ يجب ان نميز بين ما نتذكره من التجربة وبين التجربة ذاتها. وهكذا يجب التمييز بين ذكرياتنا عن تجربة حقيقية، وبين كل الافكار التي يمكن ان نحصل عليها عن اشياء لم يسبق لنا ان جربناها من خلال ادراكاتنا الحسية. وحين تشجب الذكرى، تفقد الاحداث التي نتذكرها واقعها. ولكن هذا لا يعني انه لا يمكن توليد الخيال،

حتى نحاول ان نعيد تشكيل هذه الاحداث المتلاشية. فالعبور من التجربة الواقعية الى الماضي ليس خيالاً في ذاته، بل ان جميع محاولات اعادة تشكيلها هي الخيالات بالضبط. والخيال ليس ما يضيع، بل ما يتشكل. وتنصرف ذكرياتنا الى احداث اقتربنا منها اشخاصاً ذات مرة، مع نزوع للتأثير عليها من خلال حضورنا في الزمن الذي حصلت فيه. اما في سياق التجربة الزائفة للاحداث المتشكلة، فلسنا حاضرين باشخاصنا أبداً.

قد نشاهد اداء لمسرحية «هاملت»، لكننا لا نستطيع الدخول فيها أو تحويرها كخيال على الاطلاق. يمكننا ان نقاطع الممثلين، لكننا لن نستطيع التأثير على الشخصيات، التي لا نزيد لديها واقعية عن وجود والد «هاملت» أو مهرج الملك. لا نستطيع أكل الخوخ المرسوم، ولا شم الزهور، ولا فعل اي شيء للحيلولة دون وقوع الفعل المرعب. فهذه علامات الخيال أو الوهم، بحيث لا يزيد وجودنا في العالم المجسد عن مشاهدين شبحيين. ان العالم الذي يخلقه الخيال، إذن، سواء أكان قصة أم مسرحية، أم قصيدة هو سياق ندركه، وأكاد اقول، نخلقه حول الرسالة التي توجه افكارنا. ولكن وراء هذا العالم، أو حوله، يكمن العالم الظاهري الذي تتردد فيه اصداء الاحداث الخيالية . وما تعرفه من تجربة الحب واللهفة ، من الوداد والكره ، من المتعة والألم ، نحشده في الاحداث الخيالية ـ بالضرورة لاننا نريد لكل نص ان يكون نصنا نحن. ويتضح ما نجده في الخيال ليكون عالمنا الظاهري، ويساعدنا في اضفاء المعنى والقيمة والاهمية على الأحداث والمواقف المنفردة التي تواجهنا في الحياة.

ويصر كثير من الخيالات والقصص، بالطبع، على ان سياقها ليس بخيالي، وانها تتحدث الينا مباشرة عن اشياء حولنا. وتدعي خيالات غيرها ان سياقها يكتنز بالخيال والتخيل، وان عالمنا الواقعي لم يصل الى عوالمها الخيالية بيد التلوث. وكلاهما بالطبع على خطأ. فعالمنا وحياتنا ومعرفتنا التي اكتسبناها مما اتاحت لنا حواسنا ان ندركه، شيء معنا دائماً، ونحن نعرف من تجاربنا الحسية ما يماثل أجمل الآنسات، واقسى الغيلان، واشجع الابطال في وادي الجن (fairy land) ويقوم جزء كبير من كفاءتنا على قدرتنا في الربط بين عالمي الخيال والتجربة. ويصر كثير من أدبنا تماماً على هذا الربط نفسه.

حين يسمح كاتب ما بان يسمى كتابه «وينزبيرغ، أوهايو» مثلاً، فان هذا العنوان يسمي معاً مدينة خيالية وولاية واقعية [من الولايات المتحدة] مدعياً ان هذا محض خيال. نعم، لكن له سياقاً واقعياً ايضاً. وحين يسمي كاتب كتابه «أهالي دبلن»، ويضفي اسماء خيالية على شخصياته التي تعيش في اسماء مدينة واقعية، فانه لا يطلب منا ان نستعمل الخيال كصنعة محض، بل كمعلومات عن الطريقة التي يتصرف بها أناس حقيقيون في مكان واقعي. ولا ينبغي ان نرى في هذا تدنيساً مأسوفاً عليه لفن جميل من نوع آخر، بل يجب ان نرى فيه توكيداً قوياً للوظيفة المعرفية للادب، التي هي جزء اساسي فيه. فالسياق الواقعي حاضر دائماً، ولا يمحوه السياق الخيالي، بل يحمل بعض جوانبه الى بؤرة ما من تفحصنا. وكل حكايات الجنيات تروي لنا شيئاً عن الواقع.

يولد كل من المسرحيات والقصص سياقات خيالية ، كما قلت ،

غير ان الاداء أو التمثيل (سواء أكان لمسرحية خاصة، أم لقصة معدة دراميـاً لمناسبة ما) يغير الطريقة التي يتم بها توليد السياق الخيالي. (كذلك الامر، بالطبع، بالنسبة الى السينما، غير ان تشفير الافلام الخيالية يحتاج الى معالجة مستقلة). وتقلل الصياغة الدرامية التي يقوم بها الممثلون للمواقف الخيالية من الحاجة الى التخيل القصصي (fictionalizing) الذي يقوم به مؤول أو قارىء واحد، ما دام يحول بعض العبء التأويلي الى المنتج والممثلين، في حين يتيح لكل مشاهد أن يغمر تأويله أو تأويلها في الاستجابة الجمعية للجمهور. وينقسم عبء الادبية في المسرحية الحية الى عدد من الجوانب الاتصالية، ولكنه يهيمن عليه موقف التمثيل والاداء نفسه.

ويمكن اداء القصائد وتمثيلها ايضاً، وهي تولد بالتأكيد سياقات خيالية، ولكن لابد من البحث عن السمة المهيمنة على التأليف الشعري على مستوى الرسالة نفسها، حيث تكشف عن نفسها الستراتيجيات اللغوية مثل النظم، والتصوير المجازي وغير ذلك. وكما تكون القصائد خيالية باستمرار، تستعمل المسرحيات والقصص، بانتظام، مصادر الشعر اللغوية. وتثري كل هذه الاشكال الثلاثة بانتظام مرجعها السياقي بالاشارة الى أفعال اتصالية اخرى بوساطة التضمين ، والالماح ، والمحاكاة الساخرة ، ومختلف الطرق الممكنة لتوليد سياق سيميائي وتناصي بكل معنى الكلمة. وأهم الأعمال الادبية هي تعليقات على شكلها الخاص، وعلى الموروث أو الموروثات النوعية التي تستمد وجودها منها. لابد ان تتضمن دراسة الادب، إذن، دراسة العملية الاتصالية بشكل عام ـ أو السيمياء ـ ولا سيما تطور الشفرات الفرعية (subcodes) التي تضفي الأشكال على مختلف

الأنواع التي تطورت في مجرى التـاريخ الأدبي.

وكما بينت، فإن الاشكال التي نميـز فـيها الأدب بمنتهى اليسر - أعني المسرحية والقصيدة والقصة - برغم انها تستثمر المصادر الإتصالية التي تحـدد شـفـراتها وسماتها الخـاصـة، فإنها تسـتعير بحرية من تشفير أشكال أخـرى. كل «شكل» هو مجرد نظام تشـفير (codification) لبعض الإجـراءات الاتصـاليـة التي ثبت تأثيرها على مـر الزمن. صحيح ايضاً ان بـعـض الاشكال الاقل ادبيـة غـالبـاً مـا ترجع الى شـفـرات الادب لأسـبـاب خـاصـة بها. وكـثيراً مـا تثير المقالة نقاشاً بخصوص منزلتها: هل المقـالات أدب، أم ليـست أدباً؟ الجـواب، فـيما يبـدو لي، بسيط. المقـالات ليـست ادبية بالضرورة، بل تصير ادبية بقدر ما تتبنى السمات المهـيـمنة في اي من اشكال الادب الثـلاثة الرئيـسية. وكلما زاد الاملاح والتـخـيـيل القـصصي في المقال، زاد تبني المؤلف لدور، أو اقتراحه دوراً على القـارىء. وكلما زاد رنين اللغـة وتصويرها المجازي، صارت المقالة (أو الرسالة، أو الصلاة، أو الكلام الخ) اكثر أدبية.

واخـيراً يجـب ان يـتـضـح انـه لا يـنبـغي الخلط بين الادبيـة وبين القـيمة. كل المسرحيات ادبية، لكن ليست كلها قيمة على السواء. وقد تـتعلق أسباب تقييمنا لمسرحية ما بوظيفتها، أو بشكلها. وإذ ان العمل الأدبي يشير الى تجـربتنا ككائنات انسانية حية، فقد نقيمه استناداً الى ما ندعـوه (حـقـيقته) أو (صوابه)، وهي ليست خاصية شكلية، بل قضية مطابقـة بين الرسـالة وسـيـاقـهـا الوجـودي. وهذا مـا يفتح الباب على مصراعـيـه لحوار واسع يتعذر تناوله هنا. ويكفي ان نلاحظ ان التشفير الادبي للخطاب ستراتيـجيـاً شكلية، ووسيلة بناء تمكن مؤلف الخطاب

مـن ايـصـال بـعض انواع المعنـى. قـد نقـيم، بالطبع، بعض الاقـوال الادبيـة اسـتناداً إلى روعـتها الشكلية في الاساس، ولكننا ايضاً قد نقيم اقـوالاً ادبـيـة اسـتـناداً إلى البـصيرة التي توفـرها لنا عن بعض جـوانب الوجـود، وقـد يكون من الحماقـة الادعاء ان الأمر كذلك، لمجرد إنه لا ينسجم مع التشفير الشكلي.

يعني هذا، بالطبع، ان طالب النصـوص الأدبيـة ومـعلمها ينبغي ان يـكـون لـديـه شيء مـن المـؤرخ وشيء مـن الفـيلسـوف، اذا اراد أو ارادت الاقـتراب مـن الـفـهـم الـكامل للنصـوص، بل حـتى شيء من الشـخص العـادي. ويفترض كـثير من الاعمال الادبية التجربة الحياتية كـجـانب من سياقها الذي يشترك فيه المؤلف والقارىء. وترفض بعض الأعمال ان تنفـتح لنا حـتى ننضج بها فـيه الكفاية. وتنغلق علينا أعمال أخـرى حين نفـقد قدرة الوصول الى السياقات نتيجة الكبر أو النسيان. ولا يمكن ان توجـد دراسـة ادبيـة بوصـفها دراسة شكلية خالصة. وكل محاولات اخـتـزال الدراسـة الادبيـة الى هذا المستوى فقط مضللة، ان لم تكن ضـارة. وبقـدر ما تصر الدراسات السيميائية على ان الاتصال هو قـضـيـة انظمـة شكليـة خـالصة، فقد تكون مضللة ايضاً، ان لم تكن ضـارة. ويزعم كـثير من السـيـمـيائيين ان معنى الاشارة أو الكلمة هو محض وظيـفة لمكانتها في نظام تبادلي، واستعمالها في موقف تتابعي. غير انني اود ان اقـول ان المعنى وظيـفـة التـجـربة الانسـانية أيضاً. وستبدو الـكلمات عند من جـربوا امـوراً مـثل الزواج أو الثكل تدل على اشـيـاء مختلفـة عما تدل عليه عند من لم يجربوهما. ويعتمد كثير من الأدب على محاولات توليـد مـعـادلات سـيـميائية لتجارب يبدو انها تفند الازدواجية في إشارات محضة.

والآن ، وقـد اجـريت التـصـحـيح الضروري على الصور المتطرفة من النظرية الشكلانيـة والبنيـوية، لابد ان اخـتـمه باعادة تأكيد موقفي الخـاص كـدارس للسـيمياء الأدبية. ولقد كانت خلاصة ما دعوت اليه هـنـا ، هو الكشف عن الطريقـة التي تكون بها الخـصـائص الشكليـة للادب نتـيـجـة لعـملية تضـاعف وتعـقـد السمات الاعتيادية للاتصال الانسـاني. ويجب ان تقـوم هذه الفـعـاليـة على أساس المتعة المتأصلة في العـمليـات السـيـمـيـائيـة نفسها ـ في قدرتها على توليد وايصال المعنى ـ الـذي هـو ركـن لا غـنـى عـنه في الوجـود الانسـاني. وعبء الاشكال الأضـافية في التشفير على اللغة لكي تولد نصوصاً أدبية فيه عنصر قوي من العـبث أو اللعب، وقـدر اكبر من المثاقفة الإنسانية. والمضي إلى ما وراء الضروري نـمـوذجـي في الـعـالم، كما في الفن. وان المهـارات التي تتـضـمنهـا عملية خلق وتأويل البنى الادبية البالغة التعقيد التي افرزتها ثقـافـتنا في العصر الحـاضر، ذات رتبـة عـالية، وتتطلب تدريباً يتجاوز مجرد الكفـاءة اللغـوية لتطويرها وتكمن وظيفة سيمياء الادب في قدرتها عـلى اضـاءة هذا التـدريب، وتقـديم العـون في التركـيـز على المهـارات الاتصـاليـة المطلوبة لاكمالها. وتكمن قـيمة هذا التدريب الادبي بالنسبة الى ثقـافـتنا كلهـا في ان الناس المتـدربين على هذا الضبط السيميائي في الدراسـة الادبيـة قـد يسـتـعـملون هم انفـسهم وسائلنا الاتصالية لتوليد الأفكار التي نحـتـاجـهـا للابقـاء على ثقـافـتنا حـية وتعمل في زمن من المؤكـد انه سيحملنا الى نقطة اندلاع اللازمة .




سيمياء النص الشعري

لنبتدىء بأقصر النصوص الشعرية في اللغة الانجليزية، اعني «مرثية» ل. و. س. مرون (W.C.Merwin) .

« مرثية »

سأعرضها على من

(ELEGY)

(Who Would I show it to)

بيت واحد ، وجملة واحدة غير منقوطة ، لكنها تشي بصيغة السؤال في نحوها وتركيبها ـ فما الذي يجعل منها قصيدة؟ بالتأكيد لولا عنوانها لما كانت قصيدة. غير أن العنوان وحده لن يؤلف النص الشعري. وليس في وسع العنوان والنص الشعري معاً ان يخلقا قصيدة بمفردهما. واذا اعطي «القارىء» العنوان والنص فانه سيُستحث على خلق القصيدة. لن يكون مجبراً بالطبع، غير أن الممكنات المتاحة له لا توفر له اكثر من هذا. (انني استعمل ضمير المذكر للقارىء هنا، لا لأن جميع القراء ذكور، بل لأنني، ولأن قارئي المفترض ليس مجرد إنشاء خالص، بل نسخة مثالية مني شخصياً).

كيف نستخلص القصيدة من نص كهذا؟

هناك شيئان فقط يمكن العمل عليهما: العنوان والسؤال الذي يصوغه بيت عامي مفرد. وليس البيت عامياً فقط، بل انه نثري لا تزيد اية كلمة من كلماته عن مقطع واحد، وينتهي بحرف جر، فهو بيت يتفق جميع ناطقي الانجليزية على قوله. وبمعنى من المعاني فهو مفهوم تماماً، لكنه بمعنى آخر معتم وغامض. فضمائره الثلاثة . . .

(من ـ أنا ـ ها) Who - I - It تثير مشكلة المرجع. وصيغة الفعل الشرطية- اعرض Would .. show to تثير مشكلة المقام. ولا تتوفر في السياق المعلومات التي يتطلبها جعل الجملة البسيطة ذلت معنى ومفهومة. ولابد للقارىء من توفيرها.

لكي يجعل القارىء من هذا النص قصيدة ينبغي له أن لا يكون ملماً بالانجليزية فقط، بل ان يكون ملماً بالشفرة الشعرية ايضاً، شفرة الرثاء الجنائزي كما مارسته اللغة الانجليزية ابتداء من عصر النهضة حتى الوقت الحاضر. ان «الكلمات المكتوبة على الصفحة» لا تشكل «عملاً» شعرياً مكتملاً ومكتفياً بذاته، بل تشكل «نصاً» أو مخططاً أو اطاراً عاماً لا يكتمل الا بمشاركة فعالة من قارىء مطلع على نوع المعلومات الصحيحة. وفي هذه الحالة فان قسماً من المعلومات ينطوي على معرفة شخصية بالموروث الرثائي من حيث اجراءاته، ووسائله وافتراضاته، وقيمه. ولابد للقارىء ان يعرف اعمالاً مثل (لسيداس) و (ادونيس) لـ (شيلي) و (في الذكرى) لـ (تنسون) و (حين يتفتح الليلك في الخارج) لـ (وتمان)، و (رفض النواح على موت صبي احتراقاً في لندن) لـ «توماس» . . . الخ. من اجل قراءة هذه القصيدة قراءة حقة. وفي الواقع يمكن القول انه كلما وضع المرء نصب عينيه مراثي اكثر في حالة قراءة قصيدة رثاء، ازداد جمال القصيدة المقروءة وغناها، بل قد اذهب ابعد من ذلك، فاقول: ان معرفة الموروث النقدي لاعتراضات الدكتور جونسن على قصيدة (ليسداس) مثلاً أو نقد وورد زورث للغة الشعرية تغني قراءة المرء لهذه القصيدة. فالقصيدة بالطبع هي نوع من الرثاء المضاد للرثاء، أي انها ليست مجرد رفض للنواح بل رفض كتابة قصيدة طنانة، بليغة بكائية، راضية،

مـرضية (وبكلمة واحدة؛ رثائية) على الاطلاق.

فـعل قـراءة القـصيدة، اذن، ينطوي على معرفة خاصة بموروثها وينطوي ايضاً على مـهـارة تأويليـة خاصة. واشكال القصيدة القصيرة المكتـوبة كما طورتها اللغـة الانجليـزية عبر القرون القليلة الماضية يمكن اعـتـبـارها صـيغ محاكـاة مـضـغـوطة أو مقتطعة أو منتزعة لصيغ لفظية اخـرى ، ولاسـيما المـسرحـيـة ، والقـصـة ، والخطبـة العـامـة والمقـالة الشـخـصـيـة. ويسـتـعـصي الخوض في اسباب ذلك هنا، لكن الحقيقة سـتكون مـاثلة لكل من يتأمل هذه القـضـيـة. فالقصائد القصيرة التي نكتـبـهـا هي في الاغلب نسخ اجماليـة مختصرة لما يمكن اعتبارها بسهولة نصـوصـاً تأمليـة أو خطابيـة أو سردية أو دراميـة. وهي غالباً ما تكون تـولـيـفـاً مـن انماط الخـطـاب هذه ومن غيرها. فـالمونولوج الدرامي كما طوره روبرت براوننغ يشـبـه كلمـة لاحـدى الشـخـصـيات في مسرحية (برغم انه اطول من مـعظم كلمات الشـخـصيات). غير ان علينا لكي «نقـرأ» مـثل هذا المونولوج ان نتـصـور حـالة أو مقاما أو سياقا أو غير ذلك. فـالمونولوج الدرامي «يشـبـه» المسرحـيـة لكنه يقدم من المعلومات أقل مما تقـدمـه المسرحية، فارضاً علينا ان نستخلص هذه المعلومات من حل شـفـرات المونولوج نفـسه في ضوء فهمنا للنموذج الصنفي. وتعمل اكثر القصائد القصيرة بهذه الطريقة فهي تفرض كلا من المعرفة الخاصة والمهـارة الخاصة لكي تكون «مقروءة».

لكي نفـهـم «المرثيـة» يجب ان نسـتـجمع السياق من المفاتيح التي يزودنا بها النص. فـضـمير الغـائب (ها ـ It) في «سأعـرضها على من»

يعـود بالطبع على المرثية نفسها. أما ضمير المتكلم (أنا ـ I) فهو الكاتب الضـمني للمـرثيـة، ويعود (من ـ Who) على جمهـور القـصـيدة. لكن العـبارة الفعلية «سأعرض على» تشير الى وضعية مخالفة لذلك. على من سأعـرضـهـا اذا ما كتبتها؟ وهذا يعني بالمقابل ان شاعر الرثاء الضمني يضع في حسبانه شخصاً واحد يعلو تقييمه على تقييم الجمهور الضمني الذي تتـوجـه اليـه القصيدة، ويعني ايضاً ان موت هذا الشخص بعينه هو مـا تصـوره القـصـيـدة. ويرى الشـاعـر انه لو مات هذا الشخص فـسـوف يمـوت اسـتلهامه. فحين لن يكون هناك من يكتب لاجله لن تولد قـصـيـدة. وهذه القـصيدة ليست فقط «رفضاً للنواح» مثل قصيدة ديلان تومـاس، بل انها رفض للرثاء ايضـاً. ان الموروث الرثائي بكامله ينصرف اخيراً عن النواح الى القـبـول والاحـيـاء والتجديد، اي انه يعود لشـؤون الحـيـاة، مـرمـوزا اليهاهنا بفعل كتابة القصيدة نفسها. والحياة تبـقى على مـاهي عليـه، فـهناك جمهور، والشخص المرثي سيعيش عبر انجـازاته واثاره ومخلفـاته، بل انه (وليس ذلك باضـعف الايمان) يعـيش في قـصـيـدة الرثاء نفـسها. أن مرون يرفض هذا كله. فلو انني كتبت قـصـيـدة رثاء لـ (س) وهو شـخص اعـتـدت ان اكـتب له دائماً، فلن يسـتطيع (س) ان يبـقى حـيـا ليـقرأها، ولذلك فلا داعي لكتابة مرثية للشـخص الوحـيـد في حـيـاتي الذي يستحق المرثية بحق. وبالتالي فلا داعي لكتـابة المرثية اصلاً. واخيراً فان هذه القصيدة المسماة «مرثية» هي ليست مرثية بالطبع.

أتراني أتكلف التأويل؟

لو انك ذهبت في الاتجـاه الصـحيح فلن يكون هناك تكلف. كل

المراثي المكتوبة منذ البدء تثري فهمنا لهذه القصيدة. وكل تشعبات المقام التي يمكن تطويرها من استشفاف لمحات هذا البيت الواحد هي ايضاً مرتبطة به. لا ريب ان المرء يصل في اي سطر الى نقطة يتناقض فيها التأويل، غير ان نقطة الصفر تبقى بعيدة عنه بغير حدود. ولو أمعنا النظر سيميائياً، لوجدنا ان الجوانب المهمة في هذا التمرين التأويلي الصغير هي الآتية :

١ ـ لكي نقرأ قصيدة ما ينبغي لنا ان نعرف موروثها النوعي (اي ما يسميه جيرار جينيت: جامع النص architext وعدداً من نماذج ذلك النوع.

٢ ـ لابد ان نكون ماهرين في فرز عناصر النص (السردية، الدرامية، الخطابية، الشخصية) الغائبة بسبب الطبيعة الاجمالية التي تعتمد الحذف البلاغي في الخطاب الشعري.

ويشير هذان الجانبان، اذا جمعنا بينهما، الى المقدمة الكبرى في اية دراسة سيميائية للشعر، وهي ان القصيدة نص يرتبط بنصوص أخرى، ويتطلب مشاركة فعالة من قارىء ماهر قادر على تأويله.

أن النصوص الاخرى ليست بحاجة الى ان تكون اجزاء من موروث اقرته الثقافة «الرفيعة» فقد لا تزيد عن كونها مأخوذة من الموروث الشعبي، كما ستوضح لنا قصيدة قصيرة من قصائد «مرون» عنوانها «حين تنتهي الحرب» :

حين تنتهي الحرب

سنتباهى بالطبع ان الهواء

سيطيب للتنفس اخيرا

والماء سيروق لسمك السلمون

وسيهاجر صمت السموات اكثر اكتمالا

سيعتقد الموتى ان الاحياء يستحقونها

وسنعرف من نحن

وسنتطوع جميعاً مرة أخرى

هذه قصيدة من قصائد الستينات. وقد يفسرها المرء بالاحالة الى حرب «فيتنام» غير ان هذا التأويل ليس سمة ضرورية من سمات تأويلها. بل ان ما يكتسب اهمية اكبر بكثير فيما يخص طريقة توصيل المعلومات فيها، هي اغنية شعبية كان يتغنى بها الجنود والبحارة في حروب عديدة (وقد غنيتها بنفسي في عدة موانىء؛بدءاً من ميناء «نيوبورت» في «رواد ايلند» حتى ميناء «يوكوسوكا» في اليابان خلال العمليات البوليسية [الامريكية] في كوريا) أملاً بالتسريح من الخدمة العسكرية. وتبدأ على النحو الآتي: «حين تنتهي الحرب سنتطوع جميعاً مرة اخرى» وهذه الازمة تتكرر مراراً ثم تنتهي بـ «نريد بحق الجحيم نريد» و «في جحر خنزير نريد». تعتمد الاغنية الشعبية على لازمة ساخرة بسيطة : «سنتطوع مرة اخرى» تستمر حتى البيت الاخير حيث ترفض العاطفة رفضاً قاطعاً.

لقد اعاد مرون صياغة عاطفة الاغنية الشعبية، قائلاً: لا نعتقد اننا سنتطوع مرة اخرى، لكننا سنفعل مكرهين. من الناحية الشكلية لقد فعل ذلك بانتزاع البيت الاول من الاغنية الشعبية. «حين تنتهي

الحـرب ستتطوع جميعـاً مـرة اخرى» ـ وصبغ قصيدته بطابعها. فيصير أول بيت في قـصيـدته (حين تنتـهي الحرب) وآخر بيت فيها (ستتطوع جميعـاً مـرة اخـرى) وفـيها بين البـيتين تكمن المادة التي تجعل من هذا النص قـصيدة بالنسبة الى القارىء المعد لقراءتها. ويمكن لهذه المادة ان تعـيننا على توضـيح بعض مبادىء الخطاب الشعري كما صاغها «ميشال ريفـاتير» في كـتـابه «سيمياء الشعر». ان الكيفية التي تنمو بها القصيدة من الاغنيـة الشـعـبيـة باستخدام النفي negation أو الـتـقـديم والتأخير (inversion) هي احدى السمات النمطية في الخطاب الشعري. فالنصوص تنبـثق من نصـوص متداخلة (intertexts) آخـر، أو مـن قـوالب (matrices) يقـدمـها الموروث المتواتر. وما يطوره مرون في مادته هو ايضاً شعري في جـوهره طبـقـاً لمعـايير ريفـاتير التي اقبل بها الى حد معقول. ما يفعله مرون بمادة القصيدة النواة هو انتقاله التدريجي من النثري الى الشعري، قـبل ان يتراجع الى الخطاب النثـري في البـيت الاخير الذي غيرت المادة السـابقـة هيئتـه الان. ولنتـمـعن الآن في كـيفية عمل القصيدة: «حين تنتـهي الحـرب/ ستتبـاهى بالطبع» هذه الجملة نثرية تماماً، اي انها لا تحـتوي على اشكالية نحوية، أو تركيبية، أو دلالية بالنسبة الى القارىء (مـالم يتوجب على القارىء نفسه ان يفرض على الجملة علامات الوقف ويضعها في مكانها الصحيح). فليس بالجائز لاحساس القارىء بالنحو ان ينصرف الى تأويلهـا على نحـو سلبي، بل ان يتناوله على نحو ايجابي في اسـتـخـراج القـصـيـدة من النص. أمـا القـرائن النحـوية فهي من الوضـوح بحيث لا يستعصي وضع علامة نهاية الجملة.

هـنـا تـبرز مـشـكلة صـغيرة ، إذ يمكن انهاء الجـملة بعـد كلمـة (نتـبـاهى)، وبذلك أما ان تكون عبارة (بالطبع) نهاية للجملة الاولى أو

بداية للجملة الثانية. وهذه مسألة غير مهمة، غير انها اشعار بورود «تجاوزات نحوية Ungrammaticalities» دالة لاحقة. فكلما واصلنا القراءة واجهتنا فخاخ أو دعوات اخرى لمد حدود التشفير النحوي والدلالي. اذ ما دام النص يفتقر الى علامات التنقيط النثري التقليدي، فان اعراف التنقيط الشعري تزداد الحاحاً. والابيات تبدأ بحروف كبيرة وتنتهي بفراغ. كل بيت هو وحدة منفصلة تشبه جملة منفردة. ومن هنا، وبالرغم من أننا قد نصادف مكاناً نثرياً لوهلة ما في ما بين الأبيات، فنحن مدفوعون ايضاً الى اجراء قراءة تختلف نوعا، مع اختلاف عناصر كل بيت بوصفه وحدة نحوية. ولو اخذنا البيت التالي: «سنتباهى بالطبع ان الهواء سيكون»، بوصفه وحدة نحوية قوية، أو جملة مكتملة مفيدة، لوجدنا ان التوازي بين «سنكون متباهين» و «سيكون الهواء» يسحب هاتين العبارتين اللتين تنطويان على فعل كينونة نحو الازدواج (أو العبارة الجامعة zeugma كما في البلاغة) في الظرف المسند (متباه). لكن كيف سيكون الهواء متباهياً؟ مستحيل! بالتأكيد لا يريدنا الشاعر ان نفكر بهذه الطريقة، ولست اريد ذلك ايضاً. فقد بيّن «رومان جاكوبسن» على نحو مقنع ان التوازي بين مختلف الانماط هو السمة الرئيسة في نحو الشعر. فالعبارة الجامعة الممكنة، باستحالتها الدلالية تقع في البيت الثاني من القصيدة، دون ان تلح على انتباهنا لها. فضلاً عن ذلك فان هناك صيغاً شاذة صارخة يصعب اغفالها.

يسمح لنا النص، عند هذه النقطة، ان نصوغ جملة ثانية بسهولة، حيث نصل الى وقفة كاملة مريحة عند نهاية البيت الثالث (سيطيب الهواء للتنفس اخيراً). ان المشكلة الوحيدة هنا هي الجهد الدلالي

الضئيل الذي يوجب العثور على علة سببية للربط بين طيب الهواء واعتداله وبين نهاية الحرب. وهذا يعني تهديداً لما يسميه ريفايتر: «المحاكاة»، اي قدرتنا على رد الحالة المرجعية الى الاشياء التي يشخصها النص بوضوح. ولو اننا فهمنا ان الهواء سيطيب بمعنى حرفي، فاننا حينئذ نقرأ كلمة (هواء) قراءة محاكاة، اما لو اخذنا الكلمة، من ناحية اخرى، مجازياً، فاننا سننساق من قراءة المحاكاة الى ما يسميه ريفاتير بالقراءة السيميائية وافشال الاستحالة الدلالية للمحاكاة صفة كثيرة الوقوع في النصوص الشعرية، وفي الحالة الحاضرة فان المجازات القريبة مثل (يتنفس الصعداء) تحتل الفضاء الدلالي الذي تحتله عبارة (سيصلح الهواء للتنفس). غير ان الشاعر افضى بالتعبير المدجن وسمح لغرابة الصورة بأن تدرك ثانية. ثم يستمر التأويل بسهولة، حيث تدرك الغرابة بوصفها نوعاً من اللغو، وليس بوصفها رسالة في شفرة اخرى.

وتستولي علينا غرابة التعبير الشعري، تماماً مع البيت الرابع. (الماء سيروق لسمك السلمون). ان الانتقال من الهواء الى الماء مسألة طبيعية، فهما عنصران اوليان كثيراً ما اقترنا في الخطاب الشعري. غير ان العلاقة السببية بين نهاية الحرب واعتدال الهواء يصعب ان تصل الى الماء. قد يقال: حسنا بعد انتهاء الحرب حتى الماء سيطيب مذاقه. ربما، لكن سمك السلمون في الماء، وهذا ما لا ينسجم مع هذا التفسير.

ينبغي ان يكون في داخل كل قارىء شعر، قارىء نثر. والجهد المبذول في جعل نص شعري قصيدة يتطلب زيادة في الطاقة تفيض عن

افـشـال التأويلات النثرية. واذا لم يجهد القارىء نفسه في مشهد نثري، فلن تحضر القـراءة الشـعـرية. والمهـارة التي يتطلبـهـا التأويل الشعري تتـضـمن اهتمامـاً قـوياً بالمعنى النثـري مقروناً بالاستعداد للاندفاع وراء المعنى النثـري لتـوليـد مـعان جديدة. وهذا يعني، بعبارة سيميائية، انه تمكن اعـادة صيـاغة أية شفرة راسخة في التأويل، سواء كان نحوياً أو مـعـجـمياً. ولاشك ان في ذلك عملاً انتاجياً تعود مكافأته المباشرة على اغناء التأويل نفـسـه، وتحـويل النص الى قصيدة غير ان هناك مكافآت أخـريـات اعـظـم لمن يقـوم بالتأويل الفـردي، إذ انه يكتـسـب مـرونة وطواعـيـة ومـهـارة لغـوية، فـضلا عن امتلاكه لشفرات دلالية ونحوية غنيـــــة.

وحـين يـعـود صـاحب التأويل الى القـصـيـدة فـلابد من ان يهتم بسـمك السلمـون. فـقـد ظهـر بصورة طبيعية في الماء عبر عملية اقتران اليـفـة هي: الكناية. غير انه لا يناسب الصـورة نحـوياً ومنطقـيـاً (أو سـبـبـاً). فلو كان علينا ان نقرأ البيت بصفته جملة كاملة مكتملة، فان سـمـك الـسـلـمـون يجب ان يقـرأ (رائقـاً) ايضـاً مع الماء. وليس هذا بصـعب عن طريق المحـاكـاة وحـسب، بل انه مـسـتحيل ايضاً. وعلى صـاحـب الـتـأويل ان يبـدأ عند هذه النقطة بالتـسـاؤل عما إذا لم تكن الاسـتـحـالة ذات سطوة على القـصيدة كلها. فالهواء الرائق قريب جدا من الاسـتـعـارة الجـاهزة سلفـاً التي مـاتت وتحولت الى تعبير متحجر، وبذلك نتنفس الصـعـداء بحق في تأويلنا لهذه الاسـتـعـارة. اما سمك السلمـون الرائق فـيـجب ان يعطينا وقـفة مناسبة. فربما كان بوسعنا ان نحل هذه المشكلة بافتراض وجـود شيء قـبل سـمك السلمون، وبذلك نقـفـز الى الجـملة التالية حيث تنسجم تماماً مع الفعل (يهاجر) خالقين

تركيباً اليفاً قديماً. فسمك السلمون والهجرة متلازمان تلازم سمك السردين والزحام. وبذلك نطمئن الى هذه الاقترانات الاعتيادية.

غير ان النصوص الشعرية مصممة لكي تثير فينا القلق قبل كل شيء. ويجب ان نقدر اي اطمئنان نحصل عليه منها. (سمك السلمون وصمت السموات سيهاجران اكثر اكتمالاً). هاهي الجملة الجديدة الأخرى، وهي تعمل بشكل مقبول من الناحية القواعدية. غير ان ما يسميه ريفاتير (التجاوز النحوي) يرد على مستوى الدلالة والمحاكاة، وليس على مستوى النحو في هذه الجملة. نعم، سيهاجر سمك السلمون بعد الحرب، كما كان يفعل دائماً دون ريب، فهو معد وراثياً على هذا النحو. غير ان هجرته جزء من نظام الاشياء على الارض ولا يمكن ان تروق. ولا يتفق (صمت السماوات) مع الموجودات الارضية الزمنية مثل الهجرة والاعتدال والصفاء. فهو لا يمكن ان يروق أو يهاجر. وباتباع الشاعر في محاولته الكنائية يقف امامنا جدار من النفي والتهكم الكوني. ان تمزيق المحاكاة مطلق، . ويقودنا إلى ان نقرأ مستوى من الإنكار التهكمي في كل ما يؤكده الشاعر. فالمنطوق النصي عن الصمت السماوي هو النظير الشعري لمنطوق الاغنية الشعبية عن جحر الخنزير، وهما بوسائلهما المختلفة تناقضان يكفي ما بهما من قوة الى توجيه اصحاب التأويل كافة الى نوع من القراءة التهكمية.

وحين يقول النص: (سيعتقد الموتى ان الاحياء يستحقونها) و (سنعرف/من نحن) فانه يقدم لنا صياغتين بسيطتين نحوياً، ولكنهما معقدتان دلالياً ومشحونتان بالتهكم. وتأتي «الواو»، الرابطة البريئة،

التي تنبهنا الى اختتام القصيدة الوشيك، لتربط بين هذه الصياغة وما سبقها. ولكن في حين كانت الصياغات متوازنة، أو منفية بالتهكم، فان الصياغة الاخيرة صائبة ومباشرة تماماً على الرغم من انها ناتئة، تنضح بالسخرية التي تفيض من صيغ التهكم السالفة. ان واقعة تطوعنا جميعاً مرة اخرى واقعة اكيدة مثل هجرة سمك السلمون. فهؤلاء نحن. لن نتطوع بالمعنى الحرفي، اذ القصيدة بكاملها هي استعارة ممتدة، وامثولة عن جانب من الطبيعة الانسانية الحقيرة، وهي كوننا نتطوع مرة واخرى في سياق تدميري، دون ان نعبأ بالهواء، والماء، والمخلوقات الحية، والموتى، والارض والسماء. وهنا اختلف مع «ميشال ريفاتير». فحيث يكتفي بالاشارة الى الطريقة التي تقطع بها النصوص صلتها المباشرة بالمحاكاة، أو الارتباط المرجعي بالواقع، اصر على أنها في حالات عديدة، ان لم يكن في اغلب الحالات، تقفل عائدة على نحو رمزي نحو المرجع مراراً. وهذا يعني، اننا نحن القراء والمؤولين نستبطنها فنحملها إلى نهاياتها.

إن مشكلة العلاقة بين النص الشعري والعالم الخارجي هي حالة خاصة من موضوع نقاش اكبر حول صلة الاقوال اللغوية بالعالم، أو بعبارة أدق، حول صلة الكلمات بالاشياء. ودون ان احاول فض هذا النزاع، أو حتى ان اطرح هذه القضية بقوة، اود أن أتناول التأويل السيميائي للشعر فيما يتعلق بقضية اكبر. ولقد قام «بول ريكور» بانجاز هذا التناول ، في دراسته «سطوة الاستعارة» (تورنتو ١٩٧٧) غير ان انجازها لم يكن موفقاً، ان لم نقل انه كان مضللاً مما يتطلب تمحيصاً جاداً.

في الـفـصل الـثـالث المعنون بـ «الاسـتـعـارة وعلم دلالة الخطاب» يقترح علينا بول ريكور «تمـيـيزاً بين السيمياء Semiotics وعـلـم الدلالة Se-mantics» ، ويعـود هذا التـمـيـيـز الى اللغـوي البنيـوي الفرنسي «اميل بنفنست». ثم يسـتـشـهـد ريكور بصفحات عديدة من كتاب بنفنست (مـشكلات علم اللغـة العـام) يناقش بنفنست فيها مستويات التحليل الـلغـوي ابتـداء من الكلمـة والجـملة حـتى اكبر وحـدة لغـوية ـ وهي الخطاب. ومن مناقـشـة بنفنست الحـقـيقية نستطيع ان نلاحظ امرين: الاول انه لا يقـيم اي تمـيـيـز بين السـيـمياء وعلم الدلالة، والثاني انه لم ينظر ابداً، وعلى اي نحـو، في العـلاقـة بين اللغـة والعـالم، والتـمـيـيز الاسـاسي الذي يقـيـمـه هو تمييز بين «اللغة بوصفها نظاماً اشارياً»، و «اللغـة بوصـفـهـا وسيلة اتصال». وهو ببساطة تمييز يعيد صياغة ثنائية سـوسير في اللغـة والكلام. فالمعنى في اللغة بوصفها كلا ـ عند بنفنست ـ هو نظام نسـقي، امـا المعنى في الكلام أو التـعـبير الخـاص فسياقي. وبأبسط التـمييزات في الدراسات السيميائية، فان المعنى في اللغة كنظام قـضـيـة دلالية، اما في الجملة المفردة فان المعنى يتأثر بالمعنى النحوي، وفي الكلام او الخطاب فـان اشكال المعنى الاخـرى تشكلهـا التداولية: اي الصلات بين المتكلمين ومقام خطابهم.

وهذا شيء بسـيط للغـاية، لكن ريكور يترجمه الى التـمـيـيز الذميم التـالي، الذي اشرك فـيـه «بنفنست»: لا تعي السيمياء Semiotics سوى عـلاقـات داخل اللغة intralinguistic ، بـيـنـما يهـتـم علم الدلالة Semantics بالعـلاقـة بين العـلامـات والاشـيـاء التي تشير اليها، وهذه بالتالي هي العلاقة بين اللغة والعالم. (س ٤٧). ولسوء الحظ، فقد انشغل ريكور نفسه وبنفنست وعدد آخر من اللغويين عن اظهار كيفية نفي «العلاقة»

بين اللغـة والعـالم. فـالاحـالة الى العـالم ليـست ثابتة في اللغة. بل هي وظيـفـة مـتـقلبـة للكلام، او القـول، او الاتصـال الانساني. ولم يشيء ريكور، أو بالاحـرى لم يشـخص تجـريدات كـالسـيـمياء وعلم الدلالة فـقط، بل انه نسي مـا اشـار اليـه من اختلاف بين الكلمات والقضايا. فـفي نظامـه لا تشير الكلمات الى الاشـيـاء، بل تشير اليـها القضايا أو الجـمل. إمـا من وجهة نظر بنفنست، فان الجمل ليست لها معان لان لها احـالة الى الخـارج، بل لانها اجـزاء من بنى مطردة اكبر فـهي تكون ذلت مـعنى حين تكون في سـيـاق اسـتطرادي خـاص، و «إحـالة» ها ليـست الى ذلك السـيـاق فقط. وبذلك يقفز قفزة غير هينة من الكلمة إلى العالم.

لقـد تطرقت الى ذلك مطولاً وربما بقليل من الاهتمام لانها قـضـية مـهـمـة لا تحلهـا تميـيزات كالتي يقيمها بول ريكور بين السيمياء وعلم الدلالة. فـالاحـالة في الواقع مـا تزال موضوعاً حيوياً عند السيميائيين. ولا بد ان نتـذكـر، في اهتمامنا الخـاص هنا، اي سـيـمـيـاء الشعر، ان جـاكوبسن لم يستبعد الوظيفة المرجعية من التعبير الشعري ابداً، بل انه قـال انها ليـست مـهـيـمنة، وكان ان اصطبغت هذه المقولة بالغموض. وقـد اخـذ مـيـشـال ريفـاتير درع ريكور، فـدعـا الى أن الشـعـر هو في الاسـاس لا يحـاكـي الـواقـع، ولا يـشـير الى مـرجـع. غير ان «يوري لوتمان» الذي يتـزعم الجـيل المعاصر من السيميائيين (السوفييت) دعا الى مـا يبـدو الوجه الآخر في القضية. فنظرة لوتمان الى الشعر ـ كما صاغها في كـتـابه «تحليل النص الشـعري» واضحة، وقوية، وجديرة بشيء من التفصيـــــل.

يضع لوتمان، في الحقيقة، الخطاب الشعري في مقابل ثلاثة انواع من «الضبط الذاتي» وهو يعني بالضبط الذاتي شيئاً مشابهاً لما يعنيه رتشاردز بفكرة (الاستجابة الاصلية). وهذه الانواع هي: (١) الضبط الذاتي للغة ، (٢) الضبط الذاتي للحس العام ، (٣) الضبط الذاتي لصورتنا المكانية ـ البصرية عن العالم. وباختراقه لعطالة هذه الانظمة الثلاثة ـ التي هي الانماط المعروفة في الادراك والفكر والكلام ـ يصحب الشاعر القصيدة الى العمل. ولأوضح ذلك بقصيدة أخرى بسيطة من شعر «ميرون»

« فــــراق »

لقد اخترقني غيابك

كما يخترق الخيط ابرة

فكل ما افعله مطرز بلونه

هذه القصيدة البسيطة معقدة في تقدير «لوتمان» لانها تنتهك حرمة التوقعات في نظمه الثلاثة المذكورة. والمعلومات الشعرية، ككل المعلومات الاخرى، تتناسب عكسياً مع التوقع. يبدو البيت الاول وكأنه سيجرنا إلى طريق نحوية ذات وتيرة اليفة متكررة (اخترقتني كسكين)، أو إبرة او اية قطع حادة. ثم تنتهك القصيدة توقعنا بالانطواء على النهاية غير المتوقعة للابرة. ويخبرنا الحس العام ان الافتراق مؤلم. ونحن نتوقع ورود صورة تركز على الألم، وهو شيء يمكن ان تقوم به الابرة ، غير ان الصورة التي يتم تقديمها تركز انتباهنا على دوام الشعور بالافتراق بدلاً من حدته . وأخيراً فان

احساسنا المكاني ـ البصري يخبرنا انه لا يمكن تصوير شخص كنوع من ابرة تنفذ في الاشياء المطرزة بخيط لون الغياب. بل اننا لا نستطيع ان نسأل، على هذا المستوى، ما لون الخيط، فهو لا يمكن تصوره. لكن هذه «الصورة» التي لا يمكن تصويرها تحمل معناها بذلك النشاط الذي لا يستطيعه الا الشعر. ولكي نفهم هذه الصورة علينا ان ننتقل الى اعلى مستويات التجريد، حيث تنبجس دلالتها كتصور، أو شمول، أو دوام، أو لزوم، غير انه تصور يقوى بانتقالنا من الصورة إلى الموضوعة التي تشير اليها. وينبغي ان نلاحظ ان «الانتظام» الواضح في لغة القصيدة قد يكون نفسه انتهاكاً للتوقعات «الشعرية». وكما يشير «لوتمان» فان «مصدر التأثير الفني لا يقتصر على الارتداد الى المعايير الطبيعية للغة وحدها، بل انه يعتمد على تقريبها ايضاً» ص ١٣٣).

من الواضح ان نظرة لوتمان للشعر مشابهة من نواح كثيرة لنظرة ريفاتير. فكلاهما يركز على انحراف النص الشعري أو التجاوزات النحوية فيه، ويصر على ضرورة ان يضفي القارىء عليها معنى، بالعودة الى لغته وجهازه الثقافي. غير انهما يختلفان تماماً في ما يخص مشكلة الإحالة او المرجع. يقول ريفاتير دائماً وفي كل مكان، ما يقوله عن إحدى قصائد فكتور هيجو (درس في هيجو) في كتاب (انتاج النص): «ان مقارنة القصيدة بالواقع مدخل نقدي ذو تأثير مشكوك فيه).

ويقول لوتمان بألفاظ واضحة، ما يبدو مناقضاً تماماً:

«ان الهدف من الشعر، بالطبع، ليس الصور، بل معرفة العالم

والعلاقات التي تربط بين الناس، ومعرفة الذات، وتطور الشخصية الانسانية في عملية التقدم والاتصال الاجتماعي. وفي النتيجة النهائية يتفق مطلب الشعر مع مطلب الثقافة ككل. غير ان الشعر يحقق هذا المطلب بصورة نوعية، ويستحيل فهم طبيعته الخاصة، اذا تجاهل المرء آليته وبنيته الداخلية. ولا تنكشف هذه الآلية الا حينما تدخل في صراع مع الضبط الذاتي للغة» (ص ١٣٢ ـ ١٣٣).

ويكمن وراء الحاح ريفاتير وما لارميه، ووراء اصرار لوتمان وشكلوفسكي تصور يرى (ان الفن يوجد لكي يساعدنا على ان نعلن عن احساسنا بالحياة، يوجد لكي يجلنا نشعر بالاشياء لكي يجعل الحجر «حجرياً»). وريفاتير ولوتمان كلاهما سيميائي. لكن في حين يكتب احدهما بالانتماء الى الموروث الفرنسي، يكتب الآخر بالانتماء الى الموروث السلافي. وحتى هنا، فانني اود ان اقول انهما ليسا مختلفين جداً كما يبدو عليهما. كلاهما يعرف ان النصوص الشعرية تتحدى طرائقنا المقبولة في الكلام والادراك الحسي والاعتقاد. ولكن في حين يرى لوتمان ان هذه التحديات تعود علينا بفهم جدلي اكبر للعالم، يصمت ريفاتير ويتشكك. فلنقل اذن ان السؤال، في داخل الدراسات السيميائية، يبقى مفتوحاً وغير مستقر. وانت تعرف اين أقف أنا.

ثمة فرق آخر مهم بين لوتمان وريفاتير لابد ان نتأمله قبل ان ننهي هذه الغارة الوجيزة في سيمياء الشعر. ان ريفاتير لا يؤكد عملية انبثاق النصوص من نصوص سابقة حسب، بل يجعل منها الصورة الوحيدة لاصل الشعر. وفي هذا شيء مبالغ فيه وفرنسي تماماً اعجب به واتحاشاه. لكنه كقارىء للنصوص الشعرية مقنع جداً، اما لوتمان

فـلا يتناول مـوضـوعة أصل الشعر بهذه الطريقة المباشرة، لكن يبدو انه يشعر بان القصائد يمكن ان تأتي كما يحلو لها، ما دامت تتبنى التقنيات والاسـاليب، التي تمكننا من ادراكـهـا وقـراءتها كـشـعر وقد بدا واضحاً من الامـثلة التي ضربتـهـا ان قصـائد «ميرون» القصيرة تستجيب لكلا النوعين من القـراءة السـيميائية. وانا اختار قصائد ميرون لانني معجب بها، ولانها قـصيرة، ولانها تمثل الاتجـاه السـائد في الشـعـر الانجليزي. لكن يجب القـول ان ذلك يجعل منهـا شـعرية جداً، ومنفتحة جداً على القـراءة السـيـميائية التي اقترحها. دعني اذن اتناول قصيدتين مختلفتين من الشـعـر الأمـريكي، قـصـيـدتين قـد تكونان اقل وضوحاً في تقديم ذاتيـهما كنصـوص شـعـرية. اولاهما قـصـيـدة قـصيرة لـ (وليم كارلوس وليـامز) بعنوان «ننتوكيت».

الزهور من خلال النافذة

إقـحوانية وصفراء وقد غيرتها الستائر البيض .

رائحة النظافة.

طلوع شمس ظهيرة متأخرة.

على طبق زجاجي

إبريق زجاج، وقدح

مقلوب، وبجنبه

يضطجع مفتاح ـ وال

فراش الأبيض الطاهر

تسمي هذه القصيدة ، في عنوانها ، مكاناً واقعياً ، هو جزيرة «ننتوكيت» في ماساشوسيتز. لكنه ايضاً مكان ادبي في الموروث الامريكي. فهنا وقع اسماعيل على السفر الذي يرويه في «موبي ديك». وتزدهي الجزيرة بمتحف الحيتان فيها، بموانئها وسواحلها ونوارسها، فهي احدى اجمل المدن القديمة في الولايات المتحدة. والشاعر يستوحي تراثه الثقافي بتسمية الجزيرة في العنوان. لكن نص القصيدة لا يقدم لنا شيئاً من هذه الاشياء. فهو يطرح صورة مغايرة لـ «ننتوكيت» ربما لا تقل عنها واقعية، لكنها اكثر توتراً بسبب المسافة التي تفصلها عن دلالات الاسم الايحائية.

وها هنا نوع من انواع «التجاوز النحوي» ـ فثمة دهشة سنتأملها لاحقاً بعد ان ننظر الى دهشات في القواعد الشعرية والنثرية. فالعادة الشعرية في الابتداء بحروف كبيرة في الابيات تنتهك في هذه القصيدة. فالحروف الكبيرة هنا تبدو غريبة وشاذة لاول وهلة، حتى نعرف انها نثرية. وتتألف القصيدة من خمس وحدات (T) كما تعود النحاة الجدد ان يقولوا، اي خمس عبارات مستقلة يمكن ان تنقط بوصفها جملاً منفصلة، او بوصفها اجزاء في جملة طويلة مركبة. ويسلك النص في الحقيقة الطريقين معاً. فكل عبارة من هذه العبارات تبدو بحرف كبير وكأنها جملة، لكنها مقسمة بالوقفات، لا بالخطوط الافقية، وهي علامات تنقيط الجمل الداخلية، وتفتقر الوحدات الخمس كما تفتقر القصيدة ككل إلى الأفعال الرئيسية كذلك. ، بذلك تبدو القصيدة بكاملها كسراً وشظايا وفقاً لقواعد النثر. لكنها مع ذلك كاملة مكتملة. ونحن نقيس ببساطة على هذه التجاوزات النحوية اللطيفة، ولاسيما حين ندرك ان جذور القصيدة تكمن في الموروث التصويري.

ومع ذلك، ولكي نجعل من هذا النص قصيدة، ينبغي لنا ان ننجز ثلاثة اشياء. ينبغي ان نوفر لها نحواً معقولاً تاماً، ونموذجاً دلالياً، وسياقاً أو موقفاً تداولياً.

لنبدأ بالسياق: أين نحن، وكيف نعرف أين نحن؟ في نتوكيت دون ريب، ولكن أين بالضبطأ ان قرائن القصيدة تدل على اننا في داخل مكان ما، غرفة ما مثلاً، حيث تبدو الزهور من الخارج من خلال النافذة، وقد غيرتها الستائر البيض. ورائحة النظافة رائحة داخلية، وهي نتاج انساني، ثم يدخل ضوء الشمس الى الغرفة. وبالاضافة الى الستائر تضم الغرفة سريراً وطبقاً زجاجياً. انها غرفة نوم. لكن وجود الابريق والقدح يوحي انها غرفة استقبال. وتوحي حركة العين من النافذة الى السرير، ونوع التفاصيل التي تعرضها انها غرفة غير عادية (اننا لا نشم عطر غرفتنا سواء كانت نظيفة أو لم تكن). وأخيراً فان المفتاح يوحي انها غرفة مستأجرة، اي غرفة في «نزل» في «نتوكيت»، اذ لا يمكن الا هناك العثور على هذه التشكيلة من الابريق والقدح والسرير والمفتاح. وتفسيرنا للقرائن يعتمد على التأليف بين معرفتنا وخبرتنا الثقافية. وباستعمال هذا النوع من المعلومات فقد وضعنا «تداولية» للقصيدة من النص محققين سياقاً انسانياً. فنحن نرى ونشم ونلاحظ غرفة غير عادية، قد تكون في نزل. هذا ما يتعلق بالسياق أو الموقف فماذا بشأن البنية الدلالية للقصيدة؟

ان البنية الدلالية شيء ينجزه القارىء بعملية فرز من خلال دلالات الايحاء الواردة في كلمات النص وعباراته، بحثاً عن النماذج.

وليس ما يتطلب جهداً كبيراً ان نرى ان هذه القصيدة تعطينا في أبياتها الافتتاحية ثلاثة ألوان هي الاقحواني والاصفر والابيض وان اللون الابيض من بين الثلاثة هو لون مهيمن يتكرر في البيت الاخير من النص ويرتبط الابيض ايضاً من خلال سلسلة من الافكار والقيم (وهذا نوع من الكناية المألوفة) بالكلمتين البارزتين في القصيدة: (النظافة) و (الطهارة) فهذه الايحاءات والقيم تهيمن على القصيدة. اذن ليست هذه نتوكيت اهاب اسماعيل في موبي ديك، بل انها نتوكيت فتيات «الكويكر» [المتعففات] اللواتي يمكثن في البيوت. فالسرير والمفتاح، السلام والعزلة، الستائر البيض، السرير الأبيض، الابريق والقدح الزجاجي، النقاء. تلك هي البنية الدلالية أو الايحائية للقصيدة، عملية تثبيت بسيطة لموروث «الكويكر» بتفاصيل مادية في غرفة مستأجرة مفتوحة للجميع بروح ديمقراطية. ويجعل المفتاح من هذا الملاذ الآمن قلعة لكل من يسكن أو تسكن فيه.

ويشجعنا النص ايضاً ان نؤلف نموذجاً نحوياً. فثمة حركة متسقة هنا تستمر في عدة أبيات. وبالرغم من ان الالوان لا يبقى منها سوى الفاتح، فان هناك حركة من اقحواني غامق الى اصفر، الى ابيض البياضات، الطاهر وهناك ايضاً حركة للعين، في الاقل، من الخارج عبر النافذة، الى ملاحظة دخول الخارج الى الداخل ـ طلوع الشمس الى الاشياء في الداخل، الابريق والقدح، الى الداخلي الخالص المتمثل في الاشياء المنزلية السرية: المفتاح والسرير. ومن وجهة نظر سببية يبدو ان النص يقدم لنا اضمامة عشوائية من التفاصيل الداخلية والخارجية، غير ان الانتباه الى طريقة توزيع التفاصيل، وايحاءاتها الدلالية وتداولية سياقها يمكننا من ادراك القصيدة بدرجة عالية من

ضرورة اختـيـار المشـهد البصري وتنظيمه. ان كلمة (طاهر) تختم نظام القـيم في القـصـيـدة وتخطو خطوة الى ابعـد من النظافة، اي الى تكرار اللون (أبيض) فـتـخـتـتم النظام اللوني بثـبـات. ويحمل اسم الموضـوع الأخير في الغـرفـة (السرير) كـلا من العين والذهن الى الراحـة بثبات. وقـد قـال وليـامـز انه لا يرى ان على القـصـيـدة ان تصطفق كصندوق يغلق، ولكنه كـان يعرف بالتأكيد كيف يوصل قصيدة الى نهايتها. حين تكون النهاية مناسبة.

يمكن ان نتلقى نصاً كهذا بكسل، فنستهلكه كانطباع غامض، او ان نشـارك مـشـاركة فعالة في انشاء معناه وتوضيح نظام تشفيره النحوي والدلالي والتـداولي سـيـمـيائياً. ولو فعلنا ذلك، وقد فعلناه هنا، لرأينا كـيف أن وليـامـز في اسلوبه ينتـهك توقـعـاتنا التلقـائيـة بصدد القواعد والتنقـيط وبصـدد النظام الثـقافي لنتوكيت من وجهة نظر الحس المشترك العـام. وهذا مـا يجعلنا نتـخـبط في المكان حـتى نجـد مـفـتاح السياق الشـعري الذي الفه. وازعم اننا باتباع هذه الاجراءات التحليلية الفعالة في القـراءة، سنجـرب لذة اكبر في مـواجـهـة النص الشعري، ونتذوق عـمل الشـاعر تذوقاً اعمق، وسيصيبنا شيء من الزهو لمشاركتنا في عمل يجعل من النص قـصـيـدة. وقـد بينت القراءة التي قمنا بها هنا ان هذه القـصـيـدة الانطبـاعـية بوضوح تحتوي على درجة قصوى على ما يسميه ريفـاتير بـ (الفخامة monumentality) وهو يعني ضرورة انتـقـاء القـصيدة ونظمـهـا نظماً محسـوباً لاعطائهـا ديمومة، ضرورة تربط النص الشعري والشـفرات التي يتطلبها تأويله في شبكة اتصالية معقدة. وهذه خاصية اسـاسـيـة من خـواص الشـعـر يمكن ان نجـدها في كل نص يهون من جهودنا لكي نؤلف منه قصيدة.

سوف انهي هذه المناقشة لعلم دلالة الشعر بالنظر في نص يكاد يبدو، في اللمحة الاولى، نثرياً تماماً فهو يشبه مادة في يوميات أو صحيفة، تحيل بوضوح وعلى نحو مباشر الى التجربة الواقعية، لذلك الشخص الذي دونها، أعني «غاري سنايدر» :

تحت وابل المطر

وقفت تلك الفرس في الحقل.

شجرة صنوبر كبيرة وسقيفة

لكنها ظلت في العراء

عجيزتها للريح، مرشوشة بالماء بليلة.

حاولت ان امسك بها في نيسان

لأعتلي ظهرها بلا سرج،

فرفست ونفرت

لترعى البراعم الطرية

في ظل شجرة اليوكالبتوس

المتهاوية على التل.

لقد تجنبت ، عند انتقاء القصائد لمناقشتها في هذا الفصل ، جميع القصائد القديمة ذات البناء الوزني أو التقفية الشكلية المميزة. ولقد اوضح نقاد سيميائيون ، مثل جاكوبسن ، مراراً البنى الصوتية غير العادية التي تعمل في الشعر التقليدي في مختلف انواع اللغات. وقد

اخترت الشعر الحديث والمعاصر بالضبط لانه قريب من النثر، ويجبرنا على النظر في الشاعرية، بوصفها في الأساس ركناً من اركان المعنى وليس الصوت. وكثيراً ما يستخدم «ميرون»، بالطبع، لغة غنية بالصور الاستعارية والكنائية، وهكذا يبتعد بنصوصه عن النثرية. لكن «نتوكيت» عند وليامز تخلو، فعلياً، من الاستعارة والتشبيه، وتستمد شاعريتها من انظمة التعاقب النحوي والدلالي والتداولي التي تأملنا فيها تواً، أما نص «غاري سنايدر» هذا فيبدو انه يفتقر حتى إلى هذا النوع من البنية الضمنية. واذا ما كتبت نثراً، فسوف تقدم قصيدة (تحت وابل المطر) عدداً من المفاتيح لوضعيتها الممكنة كقصيدة، فتجاوزاتها النحوية الفعلية (الكلمات المحذوفة، الجمل المتدفقة) اشبه بخلاصات المذكرات المستعجلة في الصحف، منها بتلك الانحرافات المخطط لها بوضوح عن القواعد المعيارية التي تميز الشاعرية. ففي «نتوكيت» وليامز، على سبيل المثال، تفتقر أية شبه جملة مستقلة الى فعل رئيسي. اما هنا فبعضها يفتقر، وبعضها لا يفتقر. فكيف يقرأ المرء هذا النص كقصيدة؟

إذا وضع نص ما كثيراً من الصعوبات أمام السيميائي الذي يتناوله كقصيدة فواضح ان ذلك قد يكون نتيجة ضعف في المنهج، أو نقص في النص، أو قد يكون لدينا قارىء فقير، أو منهجية غير كافية، أو نص غير شعري. وفي الواقع تبدو (تحت وابل المطر) حالة حدود وسطى ـ بالتأكيد أقل بكثير مما يسود في شعر سنايدر من «الدكة» مثلاً، أو «منتصف آب في مرصد جبل سوردونج» من الكتاب نفسه (الدكة ١٩٥٩، Riprap). ولكن فلنرَ ما نستطيع فعله بها.

قـبـل كـل شيء يـرتـبط هذا النص بنصـوص اخـرى في كـتـاب «الدكـة». وفي الواقع فـانه جـزء من سلسلة قـصـائد كـتبت بين عامي ١٩٥٥ و ١٩٥٦، وهي نوع من اليـوميات الشعرية التي تسجل مشاهد واحـداثاً وافكاراً تمهـد وتصف رحلة سنايدر الى الشرق الاقـصى حـيث بدأ هناك دراسـة جـادة للبـوذية والشـعـر الشرقي. وتكون مجمـوعة هذه النصـوص قـصـة انسـان يعـد نفسه لتغيير حياتي كبير. تقع (تحت وابل المطر) بين قـصـيـدتين اطول منهـا. في القصيدة الاولى (وادي نكساك) المؤرخة في (شباط ١٩٥٦) يراقب سنايدر «كلب صيد ضخماً» يدور في دوائر وينام، بينما يفكر هو بمسـتـقبله، وبخططه في العودة الى ساحل كاليفورنيا في الشارع ٩٩، الى سـان فـرانـسـيسكو واليـابان. يهرع السلمـون (التروتة) وهو ايضـاً سـيـمضي «اكـثر ... / صحوا من ذي قـبل، ومع ذلك فهو مستعد للرحيل) وما يرحل عنه هو سنوات عمره الخـمـس والـعـشرون: «الـذكـريـات الـلـعـينة/ كل النظريات الخـربة، الاخـفـاقـات والـنـجـاحـات الأسـوأ مـنـهـا / المدارس، الفـتـيـات، الصـفـقـات). هناك ثلاثة اشـياء فقط اود ان اتحدث عنها في القصيدة الـتي تصـعب قـراءتها هنا لطولها. الاول انها تشير بوضـوح للغـاية الى بنيـة سردية اكبر، هي بنيـة حـيـاة الشـاعـر، وتكملهـا بالتواريخ واسماء الامـاكن وبعض الحـالات الخـاصـة الاخـرى. والثاني انها تتحدث عن الشـاعـر من حيث هو شاعر يتحدث بمرارة عن ضعفه في محاولة جعل قـصـائده، ومن ضـمنهـا هذه القصيدة، اكثر «شعرية» بالمعنى البلاغي الرديء: «لجـعل هذه القـصـيـدة رغـوة، اسـفـاً». الثـالث ان التقنية الشـعـرية التي يفـضلهـا الشـاعـر على التلاعب بالمجازات اللغوية هي المقـارنة او الموازنة الضـمنية بينه هو وبين شيء آخر ينتصب أمام عينيه،

ولاسيما في الطبيعة. فهو مثل السلمون سوف «يهرع الآن» لان اوان رحيله. وعلى عكس الكلب فلن يدور ويدور، ليقف وينام. هذه الموازنات والمقارنات ليست صريحة وهذا أحد اسباب شعريتها، ولكنها صريحة تقريباً، وربما يكون هذا سبباً في كونها ليست شعرية جداً.

تحمل القصيدة التالية لـ (تحت وابل المطر) تاريخ نيسان ١٩٥٦، وتحمل عنوان «هجرة الطيور» وهذا ايضاً عنوان كتاب يقرأه الشاعر وهو يراقب الطائر الطنان، ويصغي الى عصفور وديك، ويفكر في الزقزاق الذهبي والنورس القطبي، ويلاحظ غياب العصافير الامريكية والسنديان الابيض ويكتب «اليوم والتجريد الكبير على أبوابنا» ويختتم القصيدة بأفكار عن النوارس عبر التل منطلقة الى «الاسكا». والقصيدة التالية في السلسلة بعنوان «توجي Toji» وتقع في اليابان.

القصيدة التي ننظر فيها، إذن، ملاصقة لآخر قصائد المتوالية قبل الانتقال الى اليابان. وتساعدنا هذه المعرفة بالنصوص المجاورة لها على تحديد مكان القصيدة، وتعيين «أنا» ها تداولياً، زماناً ومكاناً وتنظيماً. وفيما بين شباط ونيسان، تبدأ هذه القصيدة في آذار، مع الامطار، ثم تنتقل الى نيسان في البيت الخامس. انها سرد متقطع، يتكون من حدثين عرضيين، يتضمن كلاهما «تلك الفرس». واذا عرفنا أن ما يجريه سنايدر في الشفرة الشعرية من مقارنة أو موازنة بين الانساني والحيواني، هي سمة مبدئية متكررة، كان لدينا مفتاح رئيس للتأويل. ففي القصيدتين المجاورتين، قارن سنايدر أو وازن نفسه ضمناً ولكن بشيء من الوضوح، بالاسماك والطيور، وفي الأبيات التي قبل هذه

القـصـيـدة مـباشرة، بكلب «يدور ويدور ثم يقف وينام». ان التوازي بين الإنسـان والفـرس في هذه القـصـيـدة أقل وضـوحـاً، واكـثر حذفاً وخفاء ، وبالتالي اكثر شعرية، اذا أحسنا اقامته.

يقـدم لنا النص مـشـهـدين، اذار ونيـسـان، المطر والشـمس. في الاول منهما تتـجـاهل الفـرس المأوى الذي يقدمه لها الانسان (السقيفة) والطبـيـعـة (شجرة الصنوبر) وتدير عجيزتها للريح، وقد تنقعت بالماء. في الشـاني، يقترب منهـا الانسـان، مـتمثلاً بشخص الشاعر، وهو يريد امـتطاءها، فتخالفه ايضاً. فهي تقاوم الطبيعة (مطراً) والثقافة (انساناً، يحاول امـتطاء الحـيوان «فيدجنه») ايضاً. في المطر تبقى في الخارج، وفي الشـمس (ليس شـمس الصـيف المؤلمة، بل شـمس نيسان في السواحل الشمالية حـسب) تلجأ الى مأوى. المخـالفـة والمقاومة والمشاكسة في كل مكان. قد يبدو انها تستسلم للمأوى تحت شجرة اليوكالبتوس المتهاوية في الابيـات الأخيرة، ولكن هذا على وجـه الدقـة مـا لا تفـعله، وذلك يجعل هذا المشـهـد من أهم سمات القص التي تنم عن وجـود قـصـيدة قـصيرة جميلة وصـعـبـة التـحليل . ولكن مـاهي هذه « اليـوكالبتوس / المتـهـاوية » ؟ انها ، قـبل كل شيء شـجرة على تل كانت قد تهاوت ، ولكنهـا مـا تـزال توفـر ظلاً، كل هذا يقوله النص لنا، لكنه لا يقول لنا شـيئاً عن طبـيـعـة شـجرة اليوكالبتوس. ولابد ان تأتي هذه المعرفة من مكان آخـر، وليس من المناسب ان تأتي من الطبـيـعـة وحدها، بل من الطبيعة المنهجة ـ اي بكلمة واحدة من كتاب عن الشجر ، على غرار « كـتـاب الزهر وكتاب الطير وكتاب النجم » الذي يصف سنايدر نفسه بقـراءاته في « أشـيـاء لابد من فـعلهـا قـرب المرصـد » . ولقـد رأيت (وشـمـمت) اشـجـار اليـوكـالبـتوس سنوات، ولكن كان لابد من عالم

طبيعة أو كاتب خيال علمي (مثل غريغوري بنفورد) لاطلاعي على تاريخها وطبائعها. فهذه الاشجار ليست من اهل هذه القارة، بل جيء بها من عبر المحيط الهادي لتصنيع الأخشاب. وقد اثبتت عدم جدواها، الا في مد خطوط سكك الحديد، لان سيقانها واغصانها مجدولة ومتشابكة بحيث يصعب نشرها عملياً. وخلافاً لكل الاشجار الأخرى ذات الأوراق واللحاء، تحتفظ اليوكالبتوس بأوراقها ولحائها، ناثة رائحة فريدة لاذعة دائماً. انها من أكثر الأشجار مخالفة.

حين تلتقي الفرس التي لا تُمتطى والشجرة المزروعة التي لا يمكن استغلالها عند نهاية القصيدة، بالشجرة «المتهاوية» في أعلى التل، التي ما تزال تحمل اوراقها، نصل الى خلاصة شعرية بطريقة لا مفر منها، لانها تجيء الى ابوابنا بتجريد كبير. وكفارس بالقوة لم يستطع سنايدر اعتلاء ظهر الفرس من دون سرج، لكنه لم يحاول ان يلجمها. وهو كشاعر يرى اقتران الفرس بالشجرة غنياً بالاحتمالات النصية، ومليئاً بالمعاني، اي ان اللجام الذي يضعه على عالم «النظريات، الاخفاقات، النجاحات الأسوأ منها/ المدارس، الفتيات، الصفقات» ينعكس في هذه المخلوقات الطبيعية «غير الطبيعية». فيخلص لرغبته في تجنب الرغوة والشفقة، ويترك المقارنة بين الفرس والشجرة، وبين كلتيهما وبينه، بطريقة تخلو من التصريح تماماً. واذا كان لابد من استعارة هنا، فيجب ان يولدها القارىء بمعرفة بعض النصوص الأخرى واظهار بعض المهارة التأويلية عليها.

نص سنايدر لا يدفعنا الى الشاعرية بانتهاك المحاكاة. ونحن أحرار في اعتباره قطعة تجريبية، وقد يكون كذلك. لكننا احرار ايضاً

في ان نجعل منه قصيدة، يشجعنا على ذلك شكله، وخاصية الحذف فيه، وموقعه بين نصوص سنايدر الاخرى. وحين نبحث عن بنيته الشعرية نجدها، تناغماً بين دلالات الايحاء التي تؤدي الى شفرة أو ثيمة، تتسع ببنية التوازي للمقابلات الثنائية التي تنتهي بصورة بارزة لفرس حرون تحت شجرة وحشية.

إن المنهج السيميائي في الشعر لا يختلف اختلافاً واسعاً عن سواه من المناهج الفعالة الاخرى، ولا هو طيع وسهل جداً كمنهج. وما يقدمه، وآمل ان اكون قد اوضحته، هو المنهجية الصريحة المتماسكة، وبالتالي، المفيدة تربوياً كطريقة لتطوير المرونة التأويلية والحساسية عند طلاب الأدب وعند الاهتمام بالنصوص الشعرية، حيث المعنى ضمني في الأساس، هناك بالتأكيد دور مهم لمنهج في التأويل يهدف الى جعل بنى المعنى النحوية والدلالية والتداولية واضحة ما أمكن الاتضاح.



السرد والساردية
في الفلم والقصص

لنفترض ان هناك شيئاً ما يدعى السرد، يمكن ان يوجد باستقلال عن أي منهج معين في القص أو قول سردي بذاته، كما نفترض ان هناك شيئاً يدعى اللغة الانجليزية التي توجد بمعزل عن اي شكل معين من اشكال الخطاب أو أي فعل كلامي فردي في اللغة الانجليزية. فالقص، قبل كل شيء، نوع من السلوك البشري. وهو، بخاصة، سلوك محاكاتي أو تمثيلي توصل من خلاله الكائنات البشرية ضروباً معينة من الرسائل. وقد تتنوع صيغ القص على نحو غير اعتيادي. (ينبغي ان اقول انني على وعي بتمييزنا المألوف بين ما يروى وما يفعل، الذي يؤدي بنا الى مقابلة التمثيل السردي بالفعل الدرامي. وفي هذه الحالة فانني استخدم كلمة (قص) بمعناها الاوسع لكي تتضمن كلاً من المسرحيات والقصص، بالاضافة الى بقية اشكال المحاكاة). السرد اذن يمكن ان يروى شفاهاً، أو يدون كتابة، أو تمثله مجموعة من الممثلين أو ممثل واحد، أو يقدم في بانتومايم صامت، أو يمثل كمتوالية من الصور البصرية، بكلمات أو بغيرها، أو كتيار من الصور المتحركة بأصوات وكلام وموسيقى ولغة مكتوبة أو بغيرها.

تشترك كل انواع السلوك القصصي هذه بملامح معينة تمكننا ان نعدها معاً سرداً. قبل كل شيء تنتمي الى فئة خاصة من النشاط

الرمزي تلزم المؤول بالتمييز بين موقعه المباشر وموقع آخر يقدم له بوساطة القص. ففي السرد هناك دائماً مراقب أو مؤول يقع في اطار مرجعي زماني ـ مكاني، مختلف عن اطار الاحداث التي تسرد. وتتوسط عملية القص الاطار المرجعي المباشر عند المؤول، لكنها تشير الى احداث خارج هذا الموقع المباشر. ويصح ذلك على ما ارويه، وأنا اتناول عشائي، من احداث نهاري، كما يصح على اداء «الملك لير» أو «بحيرة البجع» ، أو قراءة «الحرب والسلم». يتوقف القص، اذن، على حضور راو وسيط سردي (الممثلون، الكتاب، الفلم، . . . . الخ) وغياب الاحداث التي تسرد. وتحضر هذه الاحداث كخيالات، لكنها تغيب كوقائع. ويمكن تمييز انواع وضروب مختلفة من القص من خلال معرفة ما يؤكده، فهو اما ان يؤكد عملية القص المباشرة نفسها (كما يثير الممثل الانتباه اليه بوصفه المؤدي، أو الكاتب بوصفه صاحب الاسلوب) أو يؤكد تلك الاحداث الوسيطة نفسها. وباستخدام اصطلاحاتنا النقدية المعروفة يمكن القول ان القص يكون اكثر قصصية حين يؤكد الاحداث المروية، واكثر غنائية حين يؤكد لغته الخاصة، واكثر بلاغية حين يستعمل أما اللغة أو الاحداث لغايات اقناعية.

وقبل ان ننظر عن قرب اكثر الى عملية القص، قد يكون من المفيد التوقع هنا والتفكير في علاقة السرد بنظريات الادب والقيمة الادبية. لقد حاول الشكلانيون الروس وبنيويو مدرسة براغ، ولا سيما رومان جاكوبسن، ان يعزلوا صفة «الادبية» كملمح مضاف الى اللغة الاعتيادية. وعرفوا الادبية بأنها لغة تدعو الانتباه الى ذاتها، او بأنها نوع من الرسائل التي يتم فيها التوكيد على شكل المنطوق اكثر من

صفته المرجعية. ومع ذلك، فان من الواضح، عند طالب السرد، ان هذه الفكرة تصح على البعد الغنائي من المنطوق فقط. ولو اعتبرت السرود أدبية، لكانت ادبية ايضاً على نحو اكثر نقاء بكثير. وسأحاول ان اتناول هذه المشكلة بأسلوب اكثر ملموسية.

يمكننا ان نبدأ بالسؤال الآتي: ما الذي يميز السرد الادبي عن أي رواية لما يحصل لي من احداث يومي؟ أهي قضية الاسلوب الذي أودي به - أي اللغة، والصوت والايماءة، في مقابل ما عند القصاص الادبي - أم أنها قضية الاحداث نفسها - اي الاحداث التافهة المفككة ليومي في مقابل الاحداث المرسومة على نحو متوال لتحقيق نمط اكثر اقناعاً من الناحية الجمالية؟ يعزز هذا السؤال (الذي ينبغي ان يبقى بلا اجابة) فكرة وجود بعدين شكليين متميزين للمنطوقات السردية: شكل تمثيلي مباشر (اللغة، الايماءة . .الخ)، وشكل ممثل لا يبقى عند مستوى الاداء نفسه. ففي الرواية على سبيل المثال، هناك لغة المؤلف، عند مستوى معين، وتمثيل الشخصية والوضعية والحدث، عند مستوى آخر. أما في المسرحية، فهناك لغة المؤلف، وتمثيل الممثل، وأفعال الشخصية، اي ان هناك ثلاثة مستويات يمكن ادراك الشكل من خلالها بسهولة. وفي الفلم يضاف مستوى آخر في الأقل الى هذه المستويات ، من خلال عمليات التصوير نفسها : اي زاوية الكاميرا ، الاضاءة ، العدسة ، الخ.

وبمعنى من المعاني يضيف أي مستوى من هذه المستويات الشكلية قدراً معيناً من الادبية للعملية الموجودة أصلاً. خذ، مثلاً نصاً يمكن ان يقرأ كتاباً، ويمثل على المسرح تمثيلاً، ويصور ثم يعرض على

الشاشة فلماً ـ مثل هنري الخامس لشكسبير. كل مستوى من المستويات المضافة في الاسلوب التمثيلي يزيد من تكثيف الادبية في التجربة بوسيلته الخاصة: اللغة زائداً التمثيل زائداً التصوير. وما يتحقق من نص قصصي هناك على الشاشة يتمتع بخصوصية لا يستطيع النص المطبوع وحده ان يكون نظيراً لها. وثمن هذا التكثيف اختزال في الغنى التأويلي للنص المطبوع، وهذا يحدث مع اضافة كل مستوى. حين تمثل المسرحية على الخشبة، يتيح كل اداء للقارىء خيارات تأويلية، لكن ما من ادائين مختلفين يعطيان الخيارات نفسها. وحين تصور القصة فلماً، تكون الخيارات نهائية، وهذا يعني ضرورة عدم الخلط بين الغنى التأويلي والخاصية الادبية في أي عمل معين. وتقدم الحياة نفسها، بكل توافهها الطارئة، اغنى حقل ممكن للتأويل. غير ان الفن يختزل هذا الحقل بعنف. وهذا هو السبب في تقديرنا له ـ ليس السبب الوحيد بالطبع، بل لعله أهم الأسباب. بالطبع قد يكون المثال الذي اقدمه لكونه فلماً يعتمد على تمثيل نص لغوي غني كل الغنى، مفرط التبسيط ، بل حتى مضللاً في بعض الجوانب . بالتأكيد ، لا اريد القول ان النصوص اللغوية غنية ، والنصوص والسينمائية ، جدباء فيما يخص امكان التأويل . بل ان القصد الذي ارمي اليه هو ان اشير الى الانواع المختلفة من التأويل التي تثيرها النصوص اللغوية والسينمائية ، وان اوضح هذا بامثلة موجزة مأخوذة من الافلام الامريكية المعاصرة . لكن لابد اولاً من العودة الى التفكير في الخصائص العامة للسلوك السردي.

يمكن لاي اخبار أو رواية لسلسلة من الاحداث ان يسمى قصاً. لكن ليس كل قص يثمر سرداً، وليس كل سرد يصنع قصة، فالسرد

حين يتـحول الى قصة، أو يدعي ان يكون قصة يصل الى ادبية من نوع خـيـالي. القـصـة قص يبلغ درجة معينة من الاكتمال، وحتى الجزء من القـصة، أو القصة غير المنتهية يتضم ذلك الاكتمال كجانب من مبدئها المكون، أي القـصدية التي تتحكم ببنائها. وليس من الغريب ان يكون الفلم، وقـد اكـتسب شخصيته الخطية التتابعية، وسيطاً سردياً على نحو طاغ. بل ان تغلب عليه القصص شيء اكثر غرابة، غير انه تغلب عليه القصص الى مدى اكبر بكثير من غلبة الروايات على الكتب.

قـد يكون من المفـيـد هنا ان نراجع بعض المصطلحـات. فالقص عـمليـة اداء أو رواية تعد سمة مشتركة في تجربتنا الثقافية، كلنا يقوم به كل يوم. وحين تكون هذه العـمليـة مـتماسكة بما يكفي وتتطور بحـيث تنفـصل عن مجرى التـبـادل الثـقـافي ندركها بوصفها سرداً. وما ان يبدأ هذا السرد باسـتـخـدام نوع خـاص من الوضـوح والغنائيـة حـتى ندركه بوصـفـه قـصـة، وننظر اليـه توجـهنا مجـمـوعـة معينة من التوقعات عن نمـذجـته التعبيرية ومحتواه الدلالي. ولدينا هنا متصل مستمر مثل طيف الالوان، تقطعـه آليـات ادراكنا الى مـستويات متعاقبة. ويتميز المستوى الذي نتـعـرف فـيـه على «القـصة» ببعض السمات البنيوية في التمثيل، تتطلب بدورها مـشـاركـة فـعـالة من المتلقي سأسـمـيـهـا «السادرية». ويسـتـعـمل النقاد الفرنسيون هذه الكلمة في الوقت الحاضر، على نحو أسـاس، للاشـارة الى بعض خـواص الافـلام، اي خـواصـها السردية. غـير ان هـذه الكلمـة تبـدو مـضللة قليـلاً في اللغـة الانجليـزية، لانها تضـفي على الشخصية قدراً من الحساسية اكثر مما نسمح به على العموم للشـخـصـية المصطنعة. ولهذا السبب ولاسباب اخرى أيضاً، ينبغي ان اسـتـخدم كلمة «ساردية»، لكي اشير الى العملية التي يبني بها القارىء

على نحو فاعل، قصة من المعطيات القصصية التي يقدمها وسط معين. فالقصص يقدم لنا في صورة قص (نص سردي) يوجهنا حين تبحث سارديتنا الفعالة عن اكتمال العملية التي ستحقق القصة.

فطبيعة الساردية محددة ثقافياً الى حد ما. انها قضية سلوك مدروس أو مكتسب، اكتساب اللغة، غير انها تعتمد استعداداً أو قدرة كامنة في النوع البشري لاكتساب نوع معين من السلوك. وفي العالم الغربي المعاصر تبدو ثقافة الساردية متجانسة بما يكفي الى حد اعتبارها، شأنها شأن اللغة الواحدة، كلاً نسقياً. ولم نبدأ إلا مؤخراً بدراسة «قراءة القراء» في مقابل النصوص التي يقرأونها. ولذلك فان ملاحظاتي عن الساردية ستكون اولية وجاهزة، وتعتمد الى حد ما على الاستنتاج الحدسي المستخلص من تجربتي الشخصية قارئاً ومعلم قراءة. غير ان بالامكان دراسة الساردية، في الاقل جزئياً، من خلال النصوص، اذا ما تأملناها في مختلف وسائل الاتصال. ونحن نحتاج الى اكثر من وسط واحد، لأن الاشياء التي تترك لساردية القراء في وسط معين، تقدم مباشرة في أوساط اخرى. وقد مكننا انفتاح الفلم على المشهد السردي من فهم بعض سمات القصص السردي، على نحو اوضح، لانها تشكل جزءاً من القص في الفلم. في حين انها لا تشكل إلا جزءاً من ساردية القارىء في القصص السردي. وحتى نستشهد باوضح الامثلة، فان الخاصية البصرية للفلم تذكرنا بالضرورة الى اي مدى تتضمن السادرية القصصية تقديم تفاصيل فيزياوية أو ترجمة الاشارات اللغوية الى صور. وغالباً ما يخفق القراء العاجزون عن عملية التصور هذه في ادراك الجوانب المهمة من النصوص القصصية. بالطبع لا يطرح الفلم أمثال مشكلة الصياغة الصورية هذه، بل يطرح

مشكلات اخرى سأتأمل فيها لاحقاً. أما الآن فقد يكون من الافضل ان نفصل قليلاً في عملية التأويل الجمالي.

تتضمن فعاليات القراء والمشاهدين للنصوص الفنية ونصوص اعادة الخلق كلاً من الترجمة السلبية التلقائية للاعراف السيميائية الى عناصر معقولة، وعودة فعالة أو تأويلية الى الاشارات النصية بتحويلها الى بنى دالة. ان الجزء التلقائي من هاتين العمليتين هو قضية كفاءة لغوية أو سيميائية، ليست ذات اهمية خاصة بالنسبة الينا الان، بل ان ما يعنينا هنا هو الجانب التأويلي. ان مؤول النص الشعري مثلاً ينبغي بالطبع ان يعرف اللغة والاعراف اللغوية التي تتم بها صياغة القصيدة. غير ان عليه ان يتجاوز مستوى هذه الكفاءة لكي يفهم القصيدة. وبخاصة، يجب ان يقيم بنية سياقية من المفاتيح التي تقدمها القصيدة ـ من يتكلم مع من، وتحت اية ظروف، وغير ذلك ـ ويجب ان يحلل الملامح اللغوية الخاصة بالمعجم الشعري والنحو والتركيب من اجل استيعابها. ولابد له ان يقارن بين البنى الشعرية والبنى النثرية التي يحتاجها في فهم الملامح المنحرفة في القول الشعري. يجب ان يعثر على ما تخفيه الاستعارات من اجزاء. وان يلم بالكلمات الاعتيادية التي تم استبدالها بكلمات غير اعتيادية، لكي يتمكن من معرفة وظائف الكلمات غير الاعتيادية. يجب ان يكشف عن البنى النحوية الاساسية في الجمل التي تخفي جوانب من تلك البنى. ولكي يفهم القصيدة، ينبغي ان يوضح أو يزيل الحجاب عما هو ضمني أو محجوب فيها. وينبغي ان يصمم النص الشعري ليكافىء الفعالية التأويلية. وتتعلق هذه الفعالية بتقديم الملامح السيميائية التي يتطلبها تأويل النص، واقامة بنية تأويلية حول النص نفسه. فالقصيدة ليست النص وحده،

بل ان النص يستخدم لبناء تأويل مكتمل ومعقول منها. القصيدة نص يتطلب اجراءات شعرية ويكافىء عليها (وهذا ما نسميه الشاعرية) بتأويلها.

وبالمثل فان السرد نص يتطلب ساردية ويكافىء عليها. وتتضمن الساردية عدداً من اجراءات البناء التأويلي، غير ان بالامكان افراد واحد من هذه الاجراءات باعتباره الملمح الاهم في هذه الفعالية. وكما تتسم القصيدة الغنائية بحاجتها لتبسيط بناءاتها اللفظية من اجل التأويل، يتسم السرد بحاجته الى تبسيط بعض عناصر القص. اننا نجعل من القصيدة ذات معنى بابراز بعض نماذج الجمل الاليفة في بنيتها اللفظية المتميزة، ونجعل من القص ذا معنى على النحو نفسه، ولكن على مستوى آخر من النص. ان ما يعنينا في القصة هو ترتيب الاحداث اكثر مما يعنينا ترتيب الكلمات. وينصب جهدنا الاساس في السرد على بناء ترتيب مقنع للاحداث. وللقيام بذلك لابد من توفر سمتين: الزمانية والسببية.

تعتمد الساردية على عملية عقلية شبيهة بالمغالطة المنطقية القائلة «بعد الشيء اذن بسببه» Post hoc ergo propter hoc وماهو مغالطة في المنطق هو قانون القص، اي ان علاقة السبب بالنتيجة تربط العناصر الزمانية في كل متوالية سردية. لا اقول ان القصص مغالط في ذاته على نحو ما، بل انه مبني بحيث تكون المغالطة سمة للعالم القصصي. وحين نقول ان العمل ذو صيغة حكائية، مثلاً، فاننا نعني ان العمل يخيب الساردية في الربط السببي بين الاحداث، ونعد ذلك نقصاً قصصياً (برغم عدم استبعاد وجود ما يعوض عن القصص في أي عمل كما هو

واضح). وقبل كل شيء حين نرى في العمل قصة، فنحن ننظر اليه على انه ذو توال زماني يعتمد على منطق السبب والنتيجة. وهذا يعني انه اذا قدمت الاحداث في القصة في متوالية زمانية، فان قدراً كبيراً من سارديتنا سوف ينصرف الى اقامة روابط سببية بين الحدث وما يليه. وهذا يعني، فضلاً عن ذلك، انه اذا قدمت الاحداث خارج المتوالية الزمانية، فاننا سنبحث عما يوصلنا الى فهم المتوالية الزمانية، لكي نتمكن من الامساك بالمتوالية السببية التي تخبرنا بالكيفية التي تنظم فيها المتوالية الزمانية. ويمكن للساردية، حتى في متابعة قصص بسيط، ان تكون معقدة جداً. وبفضل السببي عن الوصفي المحض أو العارض نريد استباق احداث المستقبل من خلال النماذج السببية التي نعرفها، ونعيد النظر في احداث الماضي استناداً الى عمليات الفهم الحاضر. وتعتمد الشعبية غير الاعتيادية للقصة البوليسية منذ (ادغار ألن بو) على الطريقة التي يمتزج فيها الشكل القصصي بمبادىء الساردية في القص نفسه. فنحن نتابع المفتش وهو ينتقل زمانياً من الجريمة الى الحل، في حين انه في المقابل مشغول بعملية بناء قص الجريمة نفسها من عدد من المفاتيح التي يواجهها دون ان تتضح سياقاتها الزمانية والسببية. وينشيء من المفاتيح غير المترابطة سرداً بوليسياً، يحقق في النهاية سارديتنا أو يصححها (لمناقشة التفاصيل انظر: تزفتان تودوروف: شعرية النثر، الفصل الثالث). وهذا النموذج قديم قدم اوديب، ويكاد يطغى على كثير من الدراما والقصص الميلودرامي. ففي المسرح مثلاً ينحى المسار الزماني للاحداث التي تؤدى على المسرح نحو الايجاز والجريان الزماني المباشر، ولكنه يولد، بين الحين والآخر، ايحاءات تنتمي الى زمن ما قبل العرض المسرحي. وغالباً ما تكون

هناك قصة في مسرحية تتضمن احداثاً مهمة تنبثق عن الحبكة التي تؤدى على الخشبة.

ويمكن قياس قوة النزوع البشري الى الساردية البسيطة جزئياً من خلال حساب عدد الاعتداءات التي تشن على هذا النوع في مختلف وسائل الاتصال الحديثة وما بعد الحديثة. ويمثل بيرانديلو وبريخت في المسرح طريقتين لمحاولة الحيلولة دون اندفاع المشاهد الى الساردية. يقطع بيرانديلو الاوهام لاسباب جمالية، ولكي يوضح لنا قوة الوهم، ويبين لنا اخيراً، ان الحياة نفسها ليست سوى تمثيل ووهم. فيما يبحث بريخت عن الساردية ليتيح لمسرحه المجال الايدلوجي لتحقيق غايات اخلاقية. ويمثل رينيه وغودار في الفلم حالتين شبيهتين بحالتي بيراندیلو وبريخت في المسرح. ويمكن ان نجد المماثلات القصصية لهذين الشخصين في متاهات الآن روب ـ غرييه، والكتابات الصحفية عند هونتر تومسن. ومع ذلك فان كل هذه الاعتداءات على الساردية ـ واسلاف هؤلاء مثل سرفانتيس، وكالديرون، وديدرو، وستيرن، وآخرون ـ تعتمد الساردية ولا يمكنها الاستغناء عنها. وربما لا يوجد خطاب طويل يمكن لقارىء أو مشاهد أو سامع أن يتلقاه دون ان يسمح أو يشجع قدراً معيناً من الساردية عند جمهوره.

ويمكن ايضاح طبيعة الساردية على نحو آخر. فهي لا تعتمد على ما هو مغالط في المنطق وحسب، بل على سلوك يعد في علم النفس سلوكاً عصابياً أو ذهانياً. فالساردية هي شكل من أشكال جنون الاضطهاد المسموح به والحميد (ما اكثر ما يشير طلاب المدارس الى مؤلف ما بصيغة الجمع «هم»؟). ويفترض مؤول العملية السردية

وجـود هدف مـقـصـود من فـعـاليـة القص، الذي اذا وجـد في العالم، فـينبـغي ان يكون تدميرياً بحق للفـردية وللشـخصية كما نعرفها (اترك جـانبـاً الـسـؤال عما اذا كـان هـذا تطويراً). يفترض قـارىء السرد أو المشـاهد له انه في قـبـضـة عـملية مسيطر عليها من الخارج، ومصممة لاشـيـاء لن يقـوى على مـقاومتها. وان كل ما يبذله من جهد لن يؤدي بـه الا الى الـوقـوع في شراك المؤلـف. ويـأتي الـكـثـير من نفـاذ صبرنا بالقـصص غير الناضج من فقدان الايمان بقدرة المؤلف. فحين يخفق في استـبـاق ردود افـعـالـنـا، ويخـفق في نصب الأحـابيل التي نسـقط بها مـتلذذين، نبـدأ بالتـسـاؤل مـا اذا كـان متمكناً، فنخشى بأن علينا ان ننتـقل من السـاردية الى القص نفـسـه، أو أن نعـود، عودة نهائية، الى الـسلوك اللاسردي.

ان سـمـة من سمات السـاردية تتـمثل في رغبتنا في الاذعان لبعض ابعـاد الوجـود، وبعض المسـؤليات العادية، ووضع انفسنا تحت تصرف الهدف الوهمي لصـانع السرود الذي نعـتمده لاننا نحترم طاقاته. وهناك شيء غير ديمـقـراطي في كل هذا، وغير نقدي ايضاً. فالنقد يبدأ حين تتـوقف السـاردية. سـمـهـا هرباً، أو تعـالياً، فان الساردية حالة وعي يلتـذ بها لكونها مختلفة عن بقية الحالات، اختلاف الجزء الحالم من النوم عـن بقـيـة الاجـزاء. وهذا العنصر من السـاردية الذي قـد يكون اكـثـر ابعـادها اهميـة وبدائيـة، مصدر عدم رضا عند كثير من الكتب وصناع الافـلام المعـاصرين. فخاصية الاذعان والتسليم التي تشكل اهم سمات الفـاعليـة السـاردية، قـادت بعض مـبـدعي الاعمال السردية الى اكـراه القـارىء وابعـاده عن نماذجه الاليفة من الساردية الى موقف اكثر حركية وانحـيـازاً الى النص. ذلك ان البـحث عن «درجـة صـفر الكتابة» التي

يقـدم فـيها الكاتب مواده التي يبني منها القارىء نصا، هو في ضوء ما استـخـدمـته من مصطلحات محاولة رد الساردية الى القص نفسه. وقد يتـمـثل اعـمق شكل لهذا الميل في كتاب ذي صفحات بيض، أو قطعة مـوسـيقية صامتة (كما فعل جون كيج)، أو اطار لوحة فارغ، أو شاشة صـور مـتـحـركة يضيئها مصباح كشاف لا يكشف الا نسيجها، وربما الغـبار المتناثر في المسافة الوسطية أو البقع الموجودة على العدسات. لقد جـربت وتجـرب كل هذه الصور المضادة، لكنها كانت قليلة النفع. بل ان استـعـادة قطعـة موسيقية صامتة تمثل مشكلة. كما ان درجة الصفر للحياة هي الموت.

أرى أن أفـضل السـبل أمـام الفنان السردي لتزويد جمهوره بتجربة أغنى من مجرد التـحـذير المسـتسلم لا تتمثل في ان ينكر عليهم رضاهم بالقـصـة، بل ان يولد لهم قصصاً تكافىء لهم هذا النوع الفعال والدقيق من السـاردية. وبالامكان، كما كـان شكسـبير يعـرف ارضـاء البـسـيط والمتـعب، في الوقت الذي يكافىء ايضـاً اولئك المسـتعدين لتوجيه انتباه قـواهم العـقليـة والعـاطفـيـة كـاملة للسرد. وفي الجـزء المتـبقي من هذا الفـصل، أود ان انصرف الى الطريقة التي يمكن ان يحقق بها الفلم على الخـصـوص هذا الشيء، وهو مـا يحقـقـه الآن حتى في الاعمال التي قد تـسـمـى اعمالاً من الدرجـة الوسطى، والتي لا ترقى الى ذرى التـذوق الجمالي، ومن اجل ذلك ـ وخـشـيـة تناول موضوعات لم يألفها قرائي ـ سأبدأ بمـراجـعـة مـوجزة لطبيعة الاشارات السينمائية. كما بين كريستان مـيتـز بوضوح بالغ، فان الفلم والسرد يشبهان بعضهما بقوة الى حد ان العـلاقـة بينهما تفترض وجود قانون أسمى. وحين سعى لسنج في القرن الثـامن عشر جـاهداً للمـقـارنة بين احتمالات المحاكاة في السرد اللغوي

وفـن الرسم، قـسم العـالم ببراعـة (وهي براعـة لاريب فـيـهـا) بينهما، فـخص سرد الافـعـال بالاشـارات المتـواليـة الاعـتباطية للقص، وخص وصف الموضـوعـات والاشـخـاص بالاشارات المتزامنة المقصودة للرسم. ولو قـدر له ان يعـود الى الحـياة اليوم لتعرف في السينما على ما يوفق بين عـالميـه المنقـسـمين، لان الفلم في الصـور المتحركة يعطينا الموضوعات والاشـخـاص وهي تتـحرك وتمثل في نظام صوري للسرد يجمع بين قوى الشعر والرسم في تركيبة غير عادية.

وبرغم ذلك فـان نتـاج هذه التركيبة شيء مختلف جداً عن القص اللفظي اكـثـر مما نتـصور احياناً، وعلى نحو يفهمه لسنج ـ مختلف لان الاشـارات في الـسـينما تؤدي وظيـفـة مـغـايرة للاشـارات في القـصص الـلـفظي. فـفي لغـة القص اللفظي تؤول كل اشـارة بأنها مـفـهـوم أو صنف، وحين يتـضح هذا ويكون ممكناً، يرتبط بمـرجع من نوع مـا، هـكـذا حـين أقـول لك (هناك كلب على التل). فـانت سـتترجم هذه الصـورة الصـوتيـة (كلب) الى حيوان من صنف الكلبيات، ولو تحركت لتنظر وتراه من النافـذة، لرأيت بالتـالي مرجعاً خاصاً يحل محل الصنف المفـهـومي في العـمليـة التأويليـة التي قـمت بها. واذا قدمت لك كلباً خـيـاليـاً في السرد، فـان عـملية تحويل هذا الكلب من صنف فارغ الى حـقـيـقة ملموسة سوف تعتمد على التفاعل بين قصّي وسارديتك. حتى لو قلت: (انه يرفع سـاقـه) فان خيالك سيرفع ساقاً، وستفضل الساق الخلفـيـة، غير ان اختيـارك متروك لك، مـا لم، أو حـتى اعطيك من المعلومـات اللغوية ما يلزمك بتصحيح الصورة.

لو انني، من ناحـية اخرى، قدمت لك كلباً سينمائياً، فان عملية

الـدلالـة تخـتـلف تمامـاً. ذلك انك تواجـه اشـارة ترتبط بقـوة بمـرجع مـعين، قـد تقـرنه بمـفـهوم صنفي أو مجموعة من المفاهيم، بعملية قد يكون بعـضـها شعورياً وبعضها الاخر غير شعوري. وقد أضللك، اذا كـان بمسـتطاعي اسـتعمال الكلمات في الفلم. فانادي كلباً ذكراً باسم (لاسي)، واذا كـان الكلب ذا شـعـر كـثيف وحركة الكاميرا حاذقة بما يكفي، فـقد تنطلي عليك الحيلة، وبذلك ترد المرجع الى صنف صائب قـصـصـيـاً، وزائف واقـعـيـاً. وهـي مـشكلة لا تكاد تظهـر في القص اللغـوي، حـيث اذا سـميت كلبة باسم (لاسي) فإنك ملزم بان تضفي عليـهـا مـا يترتب على ذلك، أو ان تترك اجـزاء منهـا بيضاء حتى اوجه انتباهك اليها.

مـا أود قـوله من هذا الاسترسـال في طبـيـعـة الاشـارة اللغـوية ان السرد الواحـد، وان امكن تقـديمـه في صـورة لفظيـة أو صـورة سينمائية مـعـاً، فـان القص والسـاردية سـيكونان مختلفين. وهذا هو السـبب في كون المثال الذي ضربته من هنري الخامس كان مضللاً الى حد ما. وما دام الجـزء اللفظي في المسرحـية شفوياً تماماً، فيمكن اعادة انتاجه انتاجاً تـامـاً في الـفـلم. أمـا الرواية فـتـقص لغـتـهـا بالوصف والتأمل الذي سـتـضطر الترجمة السينمائية الى الاستغناء عنه. وحتى القص الصوتي في افـلام مـعـدة عن روايات ومـسـتـعملة استعمالاً مؤثراً جداً في فلم جيد مـثل (وداعاً حبيبتي) أو فلم عظيم مثل (جول وجيم) فهو بالغ الانتقاء قـيـاسـاً الى اسهاب الكتب الشامل. وتقابل هذه الاختلافات في القص اخـتـلافات مهمة في الساردية. ان العمليات السردية للقارىء حين يهتم بقـصص مطبـوع تـتـجـه أسـاسـاً نحو عملية التصوير التخيلي. وهذا ما يجب ان يقـدمـه القـارىء لنص مطبـوع. أما في السرد السينمائي فينبغي

ان يقـدم سـاردية اكـثـر تصنيـفاً وتجريداً. وهذا هو السبب في كون نقد الافـلام اكـثـر اثارة من النقد الأدبي. فالفلم المتقن يتطلب تأويلاً، بينما لا تـتطلب الرواية المتـقنة الا فـهماً. وهنالك اسـهـاب في تقـديم تعليق لـغـوي عـلى مـوضـوع لـغـوي، لا يـصح حين يكون الموضـوع بصرياً بوضوح.

ويمكن النظر الى بعض الحـركـات في القـصص المعـاصر بوصفها محاولات لاكـتـساب الغموض والحرية السينمائيين من التفكير المفهومي. لـقـد جـهـد ألان روب ـ غـريـيـه أن يكون آلة تصـوير، وانتج بعض الانجـازات اللفظية المهمة. غير أن هذه التجارب في الكتابة ضد الاتجاه الـتـلـقـائي للقص اللفظي محدودة في ممكناتها المتطورة. فـالكاتب الذي يريد ان يكون آلة تصـوير، ينبغي له ان يصنع سينما، (كما فعل روب ـ غـرييـه بالطبع مع نتـائج مختلفة). كذلك يمكن لصناع الافلام السردية ان يعـملوا ضـد الاتجـاه التلقـائي لعملهم. وقد انتجت افلام تحاول ان تصـوغ الواقـعي صـيـاغـة مـفـهومية بالغة الى حد انها غاصت في بحار البـلاغـة. اذ تتطلب هاتان الوسـيلتـان السرديتـان المختلفتان وتشجعان نـوعـين مخـتـلـفـين من السـاردية، برغم أن هذين النوعين يشتركـان في اتاحـتـهما التكثـيف البـالغ والتـعقيد الكبير. وقبل ان اصل الى النهاية، أود ان استـكـشـف بـعـض جـوانـب الـسـاردية في عـدد من الافـلام الامـريكيـة توضيـحـاً للعـمليات التي ناقشتها على نحو قد يكون بالغ التـجـريد. وتنطوي هذه العـمليـات على صياغة مفهومية للصور وبناء اطر السببية والقيمة حول هذه المفاهيم.

قـبل عـدة سنوات وجـدت نفسي مدفوعاً بطرق مختلفة جداً لانواع

مختلفة من الساردية قدمتها ثلاثة أفلام امريكية هي «فالدوبيبر العظيم»، و «العراب ـ ٢» و «الرؤية المغايرة». واذا رأيت كلاً من هذه الافلام مرة واحدة، فلست في موقع يسمح لي بتبيان مزاياها بصورة فعالة، ولا بتحليلها مدعياً العمق والدقة. غير أن كل واحد منها كان قد أثارني، وتركني مع بقايا الساردية التي كانت جزءاً من ادواتي المعرفية.

«فالدوبيبر» فلم ساحر، وربما على وعي كبير بسحره. ويختزل لنا أمريكا كما صورها نورمان روكيل، ولكنه يتجاوز هذه الخاصية في مناسبات عديدة. ففي المشاهد المزدوجة حول تحطم الطائرة القدري نجد عالم روكويل، وقد تحول الى شيء ما سبيه بعالم ناثنائيل ويست. ثم فجأة يتم انفجار التعطش الى الدم والوحشية فيما وراء السطح الهادىء لوسط امريكا من خلال مظهر روكويل، وهو الاكثر اقتناعاً بسبب الاخلاص الذي اقيم عليه ذلك المظهر في الفلم. في عملية سارديتي التي استمرت بعد ان انتهى العرض فترة طويلة، وما زالت مستمرة، رابطة بين صور الفلم الواصف metafilm العظيم الذي بنيته في ذهني، جاءت صور اخرى لتطغى على ما اتذكره من الفلم. ليست وجوه روكويل، ولا البهلوانيات الهوائية العجيبة، بل صور البستنة والانسانية الاقرب الى غرانت وود منها الى روكويل. وعلى الخصوص ارى بيتاً مسيجاً، شجرة، شخصاً أو شخصين في بيت تحيطه هذه الاشياء، وفيما وراء ذلك الحقول والسماء. الكاميرا ثابتة أو تتحرك ببطء، والاحساس بالسكينة، بانسجام الانسان مع الطبيعة، طاغ. وتولد فيّ هذه الصور الشعور نفسه الذي اجربه حين أعود الى «إيوا» حيث تستطيع ان تشم خصوبة الأرض، وتفهم كيف يحبها الناس،

وكيف ان حب المزارع للارض يتجاوز الحدود الوطنية، ويعود قروناً الى ما وراء التاريخ. ان ضرورة ان يكون الاحساس بالارض قوياً الى هذه الدرجة في فلم عن السماء، عن اللاارتياح، عن شعب لم يجد له مأوى على الارض، مسألة مهمة. فتعقيد فلم بسيط في جوانب كثيرة يأتي من حب الانتباه الى الصور التي تدعونا الى اختراقها وصولاً الى المعاني الخبيئة وراءها.

تبدأ الساردية، فيما يخص فلماً مثل فالدو ببير بالمحاولة البسيطة لتسجيل الصور، وتصنيفها، واضفاء قيم عليها بحسب الشفرات الثقافية المتاحة. واذا استخدم نورمان روكويل وغرانت وود فقد يستعمل شخص آخر نماذج مختلفة لا تحمل اسماً على الاطلاق. على اية حال، ما ان نتابع التسلسل السردي للفلم، حتى نؤلف قصة فالدو نفسه، من الاحداث التي تعرض امامنا، ونشحن تلك القصة بقيمة وعاطفة بطرق معقدة جداً. وما أقوله هنا أن جزءاً من العملية الحيوية والمعقدة التي نقوم بها لتحقيق هذا التنشيط للقص تعتمد اشياء مثل القيم المشفرة المعزوة الى صور معينة. في هذه الحالة يكون قدر فالدو ما يكونه، لان حياته ممزقة بين وداعة منظر الريف الذي يذلله الانسان، وبين تفاهة الانسان وقسوته ككائن اجتماعي. ولا يستطيع فالدو ان يقبل بوداعة احد جانبي ثقافته، فيزدري الجشع والايثار الدنيويين عند الآخر، ولم تكن اكاذيبه وتحليقاته سوى محاولات للتعالي فوق هذه الوقائع، ليبني عالماً اسطورياً يمكنه ان يعيش فيه مطمئناً. لكن لابد من هبوط الطائرة بين حين وآخر. وقد تخلق الاساطير، لكنها لا تعاش.

قـد يعترض انصـار الافـلام على مناقـشـتي باعـتبار انها بعيدة عن واقع الفلم، وتقـفـز نحـو عـالم وهمي من التأمل بالموضـوع. ولكن هذا هو مـا ينبـغي ان نقـوم به لتـحـقـيق الفلم السردي، فـالعـالم السينمائي يدعـونا، بل يتطلب منا، الصـيـاغـة المفـهـومية. أن الصور المقدمة لنا وتـرتيـبـهـا وترادفـهـا، هي تخطيطات سردية لقـصص ينبـغي ان تبنيـه ساردية المشاهد.

تختلف صور أمريكا في «العراب ـ ٢» عن صـورها في «فالدوببير» اخـتـلاف ايطاليـا الصـغيرة عن نيبراسكا أو لاس فيغاس عن كيوكوك. غير أن الصـور تثير عـمليات مشابهة من الساردية في اذهاننا. وبالنسبة إليّ فأن مـشاهد جزيرة ايليس (في ميناء نيويورك) تعادل ركاماً من كتب التـاريـخ. وفي لـقـطة طويلة على الخـصـوص، تتـابع الكاميرا ببطء، مجمـوعـات من المهـاجـرين توسم وتسـاق كالماشية، مقربة حلم امريكا وواقـعـهـا قـرباً مدوخاً. لقد وقف اجدادي في تلك الصفوف، غير أني شـعرت بقرب أكثر منهم وأنا أراقب كما لم أشعر من قبل. لقد اعطتني الـكـاميرا البطيئة، والضـوء الدافىء، والحـشـود الصـابرة برجـاء صـورة اقـرب الى قـلـب هذه البـلاد، من صـورة الـ «مي فـلاور» أول سـفـينة للمـهـاجـرين أو «صـخـرة بلمـوث» أول صـخـرة وطأها المهـاجرون. الـفـلم، بالطبع، يتـحـدث عن خـديعـة هذا الحلم: زعـيم المافـيـا في حـصنه، والسـيناتور في مـبـغـاه، ومؤتمر السفاحين والسياسيين في كوبا باتيـسـتـا. ولابد من وضع هذه الصور بعد تلك الصفوف الصابرة من المهـاجـرين لتكتـمل سخرية الفلم. غير أننا ما أن نراها حتى تعلق في ذاكرتنا زمناً طويلاً.

«النظرة المغايرة» فلم لم ينل من الاهتمام ما ناله الفلمان الآخران، واظن انه كان أقل نجاحاً من الناحية التجارية. لكنه بالنسبة إليّ فلم ذو إثارة غير عادية برغم ضعفه، والى حد ما بسبب هذا الضعف. فقد حاول أن يقوم بعملين سرديين مهمين، فأخذ جنون العظمة الذي يكمن في قلب العملية السردية نفسها، وجنون العظمة الآخر الذي يهدد بسحق حياتنا القومية، وحاول ان يطابق بينهما. وتولى تقديم مشهد فريد يتطلب أكثف ساردية واجهها فلم أتذكره. تقدم اللوحة قصة تفترض وجود مؤامرة وراء عمليات الأغتيال التي يتعرض لها السياسيون الليبراليون، وتدين الرضا والاشتراك في الجرم عند التحقيق بهذه الاغتيالات. كل شخصيات الفلم التي تدرك المؤامرة تموت بعنف، بل أن آخر مدافع بطولي يقع في فخ موقف حيث يؤخذ بجريرة الأغتيال، ويقتله، أخيراً، القتلة الحقيقيون الذين يتظاهرون بمساعدته في اعتقاله. فلم قارس وقريب قرباً فاضحاً من الوقائع الحقيقية المعاصرة. ويسهم مع قراء المجلات الفضائحية وأنصار مؤامرات نظريات جنون العظمة بنشر صور امريكا اللاعقلية، المرعبة. وكفلم يفتقر الى النجاح الشعبي الناجم عن حقيقة ان الجمهور لا يستطيع أن يقبل بذبح أبطاله. فمثل هذا الفلم في القصص الشعبي يطلب لتمثيل البطل المنتصر الذي ينقذ البلاد من عصابة المتآمرين الشريرة. لكن هذا الفلم، بقبوله جنون العظمة الكامن في جزء من الجمهور العام، ورفضه سطوة الخيال، وتحقيق الرغبة الذي يرافقها في العادة، اغترب عن جمهوره المتوقع. وبالطبع منذ البدء يتم تجاهل من يعدون أنفسهم فوق هذه الاشياء.

لدى الفلم مشكلات أخرى ـ في التسارع، في منطق الاخبار، في

الاستناد بثقل الى اساتذة غير مرئيين للمؤامرة لربط النهايات السائبة في الحبكة، وتشجيع الساردية غير المتقنة وغير المكترثة عند المشاهد. غير انه منحنا مشهداً غير عادي يواجه فيه البطل الجسور الذي يحاول ان يتسلل الى المتآمرين، اختبار الشخصية المستقبلية. ولكي يكون قاتلاً غير محترف يجب ان يتظاهر بمظهر المصاب بجنون العظمة. وينطوي الاختبار على شده الى كرسي كهربائي يضبط ردود أفعاله، في حين تعرض عليه سلايدات محسوبة لمعرفة الاثار العاطفية القوية التي تظهر عليه: مسؤولون، اعلام، فتيات، منحرفون، مشاهد عنف وحشية، فطائر تفاح، جميعاً في متوالية سريعة التكرار والترادف. ولكي يجتاز الاختبار لابد لبطلنا ان يبدي ردود الافعال التلقائية المناسبة لفحص جنون العظمة. ونحن الذين نرى على كرسينا السلايدات التي يراها، ملزمون بالضرورة باغتياله، عن طريق التقمص، بمحاولة فرض ردود الافعال المناسبة في أجهزتنا العصبية. والنتيجة هي نوع من العبء الحسي المتعب للذهن، وقطع الساردية التي تلح على اتمام كل شيء بسرعة. ان غموض الضبط نفسه، وغياب قواعد هذه اللعبة، يشير الى أن صناع الفلم لم يكونوا ذوي مكنة خيالية لتصويرهم. هكذا يحاول الفلم، تكراراً، ان يسمح بجنون عظمة واقعي وحاقد لاستبدال جنون العظمة المعتدل في قلب الفاعلية السردية. يحاول الفلم ان يخفي عجزه الخيالي وراء قصصه غير المكتمل. ولاشك ان هذا اخفاق مرسوم، ولذلك نرى افكاراً كان يجب ان تؤدى بقوة، وقد اختزلت الى مجرد حيلة حسية أمام أعيننا.

لقد حاولت في هذه النظرات الثلاث الى عمليات الساردية السينمائية ان اكتشف قوة واهمية الصياغة المفهومية التي يقوم بها

المشاهد لتحقيق الافلام السردية. بالطبع هناك ما يعني السرد السينمائي اكثر بكثير مما قلت . وهناك ايضاً أقل بكثير. بعض جوانب الفلم السردي ليست اكثر من قضية مثير واستجابة تتضاءل فيها الصياغة المفهومية الى الحد الادنى، وهذا تعريف مفيد للادب الاباحي سواء أكان مثيراً للذة أم للالم. ولا نحتاج الى مفاهيم موسعة عن الافعال الجنسية أو الوحشية المؤلمة لكي نتأثر بتمثيلها، أو حتى لنتأثر بصور الواقع. غير أن هذا التأثير مهما كان عنيفاً غير مشتق من أية عملية سردية. فرؤية شخص متعذب أو مكتف جنسياً أمام أعيننا قد تكون اكثر تأثيراً، وبتأديتنا الدور الرئيس نكون نحن الشرط الاكثر تأثيراً، ولن تكون هذه التجربة سردية بأية حال. وانا اود ان اكون حياة وليس قصصاً.

لأن الفلم يبرز الوسائل السردية الاخرى جميعاً في قدرته على تصوير الموضوعات والافعال المادية للكائنات، فهو الأقرب من الواقع، ومن التجربة الحقيقية غير المتميزة. أما الأدب فيبدأ باللغة، ويجب ان يمارس الآلام غير الاعتيادية ليحقق انطباعاً عن الواقع. لهذا السبب استخدم السرد المكتوب في الاعم الاغلب فكرة الواقعية أو احتمال المطابقة مع الواقع كمعيار للتقويم. المشكلة مع الفلم مختلفة. فهو يجب ان يحقق مستوى معيناً من التأمل والصياغة المفهومية ليبلغ شرطه الامثل كسرد. وقد حققت افضل الافلام السردية دائماً هذا، وقامت بشكل سينمائي رائع عبر المشاهد والصور بما يحفز في متلقيها ساردية مناسبة .



مدخل سيميائي للسخرية في الدراما والقصص

« في بلاد العميان ، الأعور ملك »

ـ مثل قديم ـ

أود أن ابدأ بمـقـتطف من نص أدبي، وهو قصة قصيرة كتبها هـ. جـ. ويلز عنوانها «بلاد العـمـيـان» . وفي هذه القـصـة يضل شخص مـبصر طريقـه فـيـقع على قـرية قصية أصيب جميع سكانها بالعمى منذ اجيـال. يـتـوقـع الـرجـل المبصر، وقـد وضع نصب عـينيـه هذا المثل القـديم، ان يصير سـيـداً بين العـميان، غير ان الاحداث لا تجري كما يشتـهي، فـيـقع أسيراً بأيديهم، وفي ظن آسريه انه مجنـون. ويتحدى ذات مرة أحد آسريه:

قال له:

ـ سيأتي زمني.

أجاب الأعمى:

ـ ستتعلم، في العالم أشياء كثيرة تتعلمها.

ـ ألم يخبرك أحـد بأن الأعور في بلاد العميان ملك؟

سأله الأعمى بغير اكتراث وبلا فهم:

ـ وما الأعمى؟

تمنحني هذه الفـقـرة، شأن القـصـة كلهـا كـثيراً من المتعة. ولهذه المتـعة أسباب كثيرة. فأنا أحب طريقة بناء الحكاية بوصفها تجريباً لفكرة طلعت من قـالب المثل القـديم، ومن مـثـال أفلاطون عن «الكهف». أحب الطريقة التي يستنتج بها ويلز ما سيقع من المولد أو القالب matrix وتأليـفه الأنيق بين المنطق والخيال. أحب كل هذه الأشياء، ولكن يبدو لي من المسـتـحـيل تفسير مـتـعـتي بهذا النص دون الرجوع الى مفهوم السـخـرية. فـالبنية الكبرى للقصة نفي للمثل القديم عن بلاد العميان الذي هو مـولد القـصـة، وهذه هي سـخـرية سردية أو دراميـة. يقـيم البطل المبصر توقـعـاته على أسـاس المثل فـتـدحض الاحداث توقعاته. وهو، فـضـلاً عن ذلك، نفي يولد مـعنى جـديداً. ولذلك يعـيد كتابة المثل بطريقـة مؤثرة «في بلاد العميان، يعد الأعور مجنوناً».

ليس هذا مجرد اعتراض على القـول المأثور القـديم. فـهـو ينطوي على نشـاط ابداعي أو اعـادة تشـفير فيما وراء النفي الأولي. فهل تنطبق فكرة السـخـرية، بوصفها مجاز الخطاب السردي، على نفي المثل القديم فـقط، أم على اعـادة كـتـابتـه ايضـاً؟ دعني أرد هذه البنيـة الكبرى الى مـسـتـوى القـضـية المنطقية. خذ المثل الاصلي واعادة صياغة بسيطة له باجراء استبدال واحد:

«في بلاد العميان، الأعور ملك»

«في بلاد العميان، الأعور مجنون»

هـل لدينا مجاز هنا؟ واذا كـان لدينا، فأي مجاز هو؟ بالطبع تغطي العـمليـة التي تتـضـمنهـا القـصـة ككل أكـثـر مما تغطي صورة القضية المنطقـيـة، ويجب ان ننتبـه الى ذلك. ويجب ايضاً ان ننتبه الى أن المثل

الاصلي هو نفسه مجاز ايضاً. فهو أمثولي allegorical وهو في الحقيقة لا يدور حول بلاد العميان، التي ليس لها وجود، بل حول التفوق النسبي لقلة قليلة على من لا وجود لهم مطلقاً في جميع جوانب الحياة، اذ يمكن ان تعاد كتابته عن بلاد الصم، أو بلاد الجياع أو بلاد من لا سيقان لهم، وهكذا وهكذا، وهو باق يحمل المعنى نفسه على المستوى الأمثولي من التجربة.

ما تفعله قصة ويلز اذن، هو أخذ صفة الامثولة في المثل ونقلها أدبياً بلا حياء. فتقلب «بلاد العميان» المجازية الى بلاد «تمثيلية»، أو بعبارة أدق، بلاد «حكائية». على هذا المستوى، السخرية مجاز مضاد. ومع ذلك لابد ان نصنفها مع تلك الاستعمالات الابداعية أو اللاهية للغة، التي تمنح المتعة لكل اولئك الذين يجب ان يستعملوا اللغة استعمالاً حرفياً بطريقة أقل مجازية. غير ان هناك مستوى آخر للنص، ينبغي ان نفحصه قبل ان نتركه. اذ يعطيني سطر من الفقرة المقتبسة متعة معينة («ما الأعمى؟» سأله الرجل الأعمى). ويأتي مصدر متعتي الى حد ما من الطريقة التي تضغط على نحو رائع قضايا واسعة من القصة وتضمنها، غير انه هناك ايضاً خاصية امتاع متميزة في تجربتي التي أريد ان اعزوها الى نوع آخر من التعقيد في السطر فكلمة «أعمى» تستعمل بطريقتين: هي عند الأعمى ليست حتى كلمة، بل مجرد تأليف غريب بين مجموعة من الحروف أو الفونيمات، أو هذيان مجنون. أما عند الرجل المبصر في القصة، وعند الراوي، والمؤلف، والقارىء، والناقد، وقراء الناقد، والى غير ذلك، وعند من يعرف اللغة الانجليزية، فإن «أعمى» كلمة ذات معنى، لكن الحالة هنا ليست مجرد قضية يسأل فيها شخص آخر ان يحدد معاني كلماته.

فسؤال الاعمى لم يكن سؤالاً لغوياً شارحاً (metalingual) ـ لا عنده ولا عند سامعه المبصر ـ ولا حتى عندنا نحن على الخصوص. انه جهل الأعمى بالعاهة التي هي خاصيته المميزة عند الآخرين، وقد أبرزها النص بتكرار لطيف للكلمة التي يسأل عنها في خطابه، وهو جهل ساخر بالتأكيد. وعلى أية حال، فليست لدينا كلمة اخرى للتعبير عن هذه الظاهرة اللغوية. وهذه سخرية موقف أو وجهة نظر. فهي تنتج عن الاستعمال المزدوج لكلمة «اعمى»، ولكن ليس في الكلمة ذاتها، بل في المبانية بين شفرتين تجعلان من المفردة ذاتها، مجرد هذيان عند واحد، واشارة لغوية عند آخر. هذه الصيغة التزامنية للسخرية السردية، كما ان خيبة توقعات بطل القصة هي الصيغة التعاقبية. ويمكن رد كلتا الحالتين الى مستوى الكلمات في النص، غير ان السخرية لا تكمن في الكلمات، بل انها في الحكي (التعاقب) وفي الخطاب (التزامن).

لقد كنت اركز على المتعة في هذا النقاش، لان المتعة تقدم لنا مقترباً آخر للقضية الكاملة في ماهو الأدب. فالقول بأن نصاً ماهو أدبي الى حد انه يقدم للقارىء المتعة، يعني صياغة مفهوم بسيط ولكنه قوي، يعني ادعاء موقف يمكن تبنيه لزمن طويل ضد الاعتداءات الخطيرة التي بالتأكيد سيكون السبب في وجودها. ولا أتردد شخصياً في قول ذلك ـ بل أنني اقوله في الحقيقة ـ لكن يبدو لي أن الأهم الذهاب الى ما وراء هذا الموقف والمخاطرة بمحاولة قول كيف تعمل المتعة الادبية.

يمكن تعريف مصادر المتعة في الخطاب الأدبي بوصفها مواد

القـدرة الاتصـالية. تقدم النصوص الأدبية المتعة للقراء موفرة لهم فرص استـعمال كـامل نطاق قـدراتهم التأويليـة اكثر من النصوص اللاأدبية. وسـاردية القـارىء، بوصـفها ما يولد الحكي وينظمه من خلال المخطط النصي لرواية مـا، هي مـثل على ذلك. وشـاعـرية القارىء، كما يمكن ان نسـميـهـا، التي تعـمل على اللغة المجازية للنص، هي مثال آخر. ويذكـرنا الفرويديون الجدد، ولاسيما جاك لاكان وحلقته، أن المجازين الشـعـريين الرئيـسيين عند جاكوبسن، وهما الاستعارة والكناية، قريبان في المعـنـى مـن التكثيف والاستـبدال عند فـرويد، كما لاحظ ذلك جـاكـوبسن نفسـه. فـاللاشـعـور يتحدث في هذين المجازين ليتجنب رقـابة الشـعـور، وفي مثل هذا الخطاب يجد المكبوت ما يعبر عنه، محققاً المتـعـة للمـتكلم. هكذا تمضي النظرية، وقـد اختـزلت الى حـد كبير. لكنهـا لا تقـدم تفـسيراً كافياً للمتعة التي نحصل عليها من مجازات من هـذا النوع، المتـعـة التي لديها الكثير فـيما يتـعلق بالانتـاج الشـعـوري للمعنى وبالتعبير اللاشعوري عنه.

السـخرية طريقة للخلاص من الرقابة، ايضاً، سواء أكان الرقيب سـيـاسـيـاً، أم ذاتاً عليـا. وهي في الحـقـيـقـة كـثيرة الشـبه بـ «النفي» الـفـرويدي، الذي هو وسـيلة تتـيح لنا أن نقـول «لا أريد أن أقلقك» حين يكون في نيتنا شـعـورياً أو لا شعورياً، القيام بذلك بالذات. ولم يكن بالسـهل قط دمج السـخرية بحقل المجازات أو الوسائل البلاغية، لأسـبـاب قـد تسـاعدنا الدراسات السيميائية على فهمها. وفي حين يتم التـعـبير عن الاسـتـعـارة والكناية ويفـهمان في الاسـاس على المسـتـوى الدلالي للخطاب، تعـتـمـد السـخـرية الى درجة غير عادية على تداولية الموقف. فـفي الكلام، غـالبـاً مـا تشير الاجزاء اللالغوية من القول الى

السخرية (مثل التنغيم والايماء)، في حين أن الاستعارة والكناية مستقلتان عن هذه السمات. الاستعارة تتجذر في وظيفة التسمية في اللغة، في حين تقوم السخرية على أساس الوظيفة الاتصالية. فهما تستعملان سمات مختلفة من المهارة الاتصالية، وتلجآن الى امزجة أو حساسيات مختلفة، ربما تكون السبب في ميل كثرة من الكتاب الى انتاج نصوص تهيمن عليها احداهما دون الاخرى، بدلاً من الجمع بينهما معاً. وبسبب من تجذر السخرية في الجزء اللالغوي من الاتصال، فانها مجاز النصوص السردية والدرامية بشكل جلي، كما ان الاستعارة هي مجاز النصوص الغنائية. وفي الحقيقة فإن المباينة بين القول والفعل عند كثير من الكتاب الساخرين، هي أساس البنية الساخرة، ما دامت الكلمات مرتبطة بالمظهر، والافعال بالواقع.

لا أعني من إعادة وضع السخرية في قلب نقاش النصوص الأدبية ان اسبغ عليها انغلاقية المنهج الشكلاني أو النقدي الجديد الذي يقلب هذه النصوص الى أعمال. ولن أتحدث عن النقائض الذاتية أو أنواع الغموض التي تشل المعنى وتتيح للقارىء أو المشاهد تأملاً جمالياً خالصاً للنص. لا أريد هذا أبداً، ذلك لأنه السخرية، من بين جميع المجازات هي الوحيدة التي يجب ان تخرجنا دائماً من النص، الى الشفرات والسياقات والمواقف. وفي الحقيقة فان تحيز السخرية هذا هو بالضبط ما يجعل منها مشكلة سيميائية مثيرة أخترت لتوضيحها عدداً من النصوص المأخوذة عن أنواع وفترات وثقافات مختلفة من الأدب الغربي في القرنين الماضيين.

في أيار عام ١٧٧٧، حين كان الانجليز يحاولون إخماد تمرد ضئيل

في مستعمراتهم الامريكية الشمالية، وقع حدث اكثر اثارة في لندن، حيث عرضت مسرحية جديدة. ولقد حظيت تلك المسرحية، وما زالت تحظى بالنجاح المتواصل حتى اليوم، برغم كونها، كما تشكى ناقد معاصر، «مجرد قطعة تتألف على المسرح حسب» «تقليدية» وبلا «وجهة نظر حقيقية». ان فكرة وجود مسرحية ناجحة جداً رغم انها لا تقول شيئاً، تبدو وكأنها تحقق متطلبات الشاعر الفرنسي «مالارميه» من الفن، لكننا نتحدث هنا بالطبع عن مسرحية «مدرسة الفضائح» من تأليف ريتشارد شيردان وهي كوميديا سلوك (Comedy of Manners) أضحت معروفة في الموروث الانجليزي الذي يمتد من «وتشرلي» الى «وايلد».

أكثر المشاهد إدهاشاً في هذه المسرحية المدهشة هو الفصل الرابع المشهد الثالث، المعروف باسم «مشهد الستارة» ودعني ارجع بذاكرتك اليه قليلاً. في المسرحية ثروة يريد ان يهبها عم ثري لأحد ابني أخيه: تشارلز وجوزيف سرفس. تشارلز متوحش قليلاً، يشرب ويقامر بكثرة، لكنه نزيه وطيب القلب. وجوزيف، من ناحية اخرى، رجل عاطفي، اي انه حسن المظهر وطلي التعبير في كل المناسبات لكنه في الحقيقة وضيع وسافل. هكذا تطرح المسرحية مشكلة بعبارات ساخرة. هناك سطوح لابد من اختراقها، ويجب ان يقرر العم الثري الذي عاد من جزر الانديز بمعونة صديقه القديم السير بيتر تيزل، أي ابني أخيه سيكون المستفيد منه. ويزداد الامر تعقيداً حين ينخدع السير بيتر تيزل، وهو زوج مسن من عروس شابة، بمظهري الاخوين ولا يدرك ان جوزيف العاطفي يحاول فعلاً إغواء الليدي تيزل.

يبـدأ مشهد الستارة في بيت جوزيف سرفس العاطفي، الذي يأمر خـادمـاً بوضع ستارة أمام نافذة مكتبته لان «جارته المقابلة سيدة عانس ذات طبع فـضـولي». هكذا تستـعـمل الستـارة لتـحـول دون النظر، ولتـمنع القـيـام بفـعل المراقـبـة والتـفـرج، أمـا نحن المتـفـرجين على المسرحـيـة، فنجلس على الجـانب الآخـر من الغـرفـة، ولا ستارة تحول دون نظرنا. ان السـبب الذي دعـا جوزيف لوضع الستارة، هو بمعنى مـا مجرد اعـتـذار من شريدان عن وضـعها على خشبة المسرح، غير انها ايضـاً تقـوي احـسـاس المشـاهدين بالافضلية، ومتعة اختلاس النظر. فنحن نكاد نشهد اغراء، ومعرفتنا بنوايا جوزيف تقدم لنا دليلاً لتأويل سخريات في طريقها الينا.

تدخل الليـدي تيـزل. زوجـة السير بيتر ويبـدأ جوزيف بمحاولة دفـعها الى الخيانة، محاججاً إياها أولاً بأنه ما دامت هناك فضيحة يجري الهمس بها عنهـا أصـلاً (وهذا ما يعرفه جيداً، وقد واجه به أخاه)، وما دام زوجـهـا يشك بها، فـانها لابد ان تقضي معه حق الجنس، لتخدعه فـعلاً. ويضيف الى ذلك برهاناً مذهلاً. في ان زوجها يجب الا ينخدع بها، حـتى اذا شك في خيانتها له، فيجب ان تكون «سهلة الانقياد الى اطراء فطنتـه وحـصـافته». بعبارة اخرى، يجب ان تجعل الوقائع تتطابق مع قـراءته المغلوطة لسطح الواقع في سبيل شرفه.

يبني شريدان مسرحـيته على ثيمة السخرية نفسها، اي الفروق بين المظاهر والوقـائع، أو الاقـوال والأفـعـال. فما ان يبدأ جوزيف الانتقال من الاقـوال الى الافعال، وبرغم ان الليدي ما تزال تناقش ردها، حتى يدخل خـادمـه ليـعلن مجيء زوجـهـا السير بيتر، الذي كـان في طريقـه

الموصل الى الغـرفـة التي جـرى فيها الاغواء. وبصرخة «ماذا سيحل بي الآن يا سيـد منطق؟» تختـفي السيـدة تيزل خلف الستارة حين يدخل زوجها.

عند هذه النقطة تصير الاشياء اكثر امتاعاً عند جمهور المشاهدين. فنحن نرى الرجلين على خـشـبـة المسرح، عـارفين ان احدهما يتحدث بـبراءة، دون ان يـعـلـم أن زوجـتـه تتنصت اليـه، وان الآخـر منافق. ونحن نؤول الاحـداث لا بالنسبة الينا وحسب، بل بالنسبة الى المشاهد الاخـر الـذي يـقف وراء السـتـارة. وبذلك تتـضـاعف السـخـريات، وتتـضاعف متعة مشاهدتنا اياها ايضاً. ولا يمكن ايراد النقاش، الغني بالسـخـرية أيضـاً، الذي جرى بينهما، غير ان فحواه كانت شك السير بيتر بأن لزوجـتـه عـلاقـة بأخـيه الغائب تشارلز. وما هي الا قليل حتى يـدخـل الخـادم مـرة ثانيـة ليـقـول ان تشارلز نفـسـه وصل ويصر على الدخـول. فـتـقـدح في ذهن السير بيتر فكرة الاخـتفاء، وذلك ليتمكن جوزيف من جـرجرة تشارلز في الحوار الى علاقته المفترضة بزوجة السير بـيـتر. وعـنـد ذلك يذهب السير بيتر للاخـتـفـاء وراء السـتـارة ـ مـثيراً توقـعات الجمهور الساخرة ـ لكن جوزيف يوقفه في الوقت المناسب.

يصر السـيـد بيتر انه لمح تنورة فـيها وراء السـتارة، فيقول جوزيف ان بائعـة قـبـعات فرنسية كانت عنده لزيارته، اختفت وراءها، فيدخل السير بيتر في مختلى صـغير. يدخل تشـارلز ليـؤدي مع جـوزيف مشهداً أمـام جمهـور واسع من مختلسي النظرات: الليدي تيزل، التي تعرف ان زوجـهـا ايضـاً يتنصت، والسير بيتر الذي لا يعـرف بحـضـور الليدي تيـزل، وبالطبع نحن جميـعـاً ايضـاً. جـوزيف، الذي يمثل الآن أمام

جمهـور اكثر عدداً ممن يخدعهم في العادة، في وضع حرج. ونحن الذين نؤول كل كلمـة، كما يجب ان تفعل الليدي تيزل والسير بيتر ايضاً، في احـسن وضع وأمـتـعـه لأننا نربط بين السـخـريات المتعددة التي تتوالد أمـامنا. وبنزاهة يتـهم تشـارلز، جـوزيف بمـغازلة الليدي تيزل، حينئذ يضطر جـوزيف الى ازالة طبـقـات السـخـرية حين يخبر تشـارلز بوجود السير بيتر في المخـتلى. يخجل تشـارلز السير بيتر ويكرهه على الظهـور، فـيـقـر الـسير بيتر بخطأه. في هذه اللحظة، تصل صـديقـة جـوزيف الحـمـيـمـة الليـدي سنيرويل، فـينزل الى الاسـفل ليمنعها من الصعود وتعـقـيـد الموقف. عندئذ يخبر السير بيتر، تشـارلز عن بائعـة القـبـعات المفترضـة التي تختـفي وراء الستـارة، ويجر تشـالز الستـارة، كاشفاً عن الليـدي تيزل، في اللحظة نفسها التي يعود فيها جوزيف. يطبق عليهم الصـمت جميعاً، فيسألهم تشارلز بعض الاسئلة، معيداً على سمع السير بـيـتر وجـوزيف عـبـاراتها التي تأخـذ معنى جـديداً في هذا السـيـاق الساخر، الذي يغادر تشارلز بعده.

عند هذه النقطة تقـول التـوجـيـهات المسرحية: «يقفون زماناً ينظر بـعـضـهـم الى بـعـض». وأنـا اعـترف ان هذه لحظة من اعظم لحظات الصنعـة الخالصة في تاريخ المسرح. وانها لتخلو من الكلمات. النظرات التي يتـبـادلونها تتـيح مجالاً مذهلاً للممثلة والممثلين المشاركين، ويعطي الجـمـهـور مجالاً مذهلاً للنشاط التأويلي. وكل طبقات الادراك الساخر يـتـاح لها الآن ان تـنطلق ضـحكاً وتصـفـيـقـاً. وتقـول الروايات عن العـروض الاولى في «مسرح دوري لين» ان الضـجة في المسرح كانت لا نظير لها، وقـد روعت الناس في الشـارع خارج المسرح.

بعـد ان حـقق كل هذا خلق شريدان لنفـسـه مـشكلة العثور على كـلام تسـتأنف به المسرحـيـة مـرة ثانيـة. ولقد اثبت انه أهل تماماً لهذه المهـمـة. فجوزيف يقطع الصمت قائلاً «السير بيتر، برغم انني اعترف ان المـظاهر ضـدي، واذا مـا اصطبرت عليّ قليـلاً، فلن اثير شكوكك، بل سأفسر كل شيء لمرضاتك».

مـا يـزال جـوزيف، رجل الكلمات، مـقـتنعـاً انهم سـيظلون غير قـادرين على اخـضـاع «المظاهر». غير أن المسرحـيـات جميعاً، ولا سيما هذه، مـبنية على بنية ساخرة من التوقع الذي يتم فيه امتصاص المغايرة بين الكلمـة والفعل بسرعة، وبذلك يتم فيها ايثار ماهو ممثل على ما هو «مـروي»، أو المظهـر على التفسير. فليس المشـاهدون مراقبين سلبيين لعـرض صـامت، بل هم مـؤولون فـعـالون لعـمليـة حـركـية. النص المكتـوب مجرد دليل للمـمـثلين، ويعـتمد الممثلون على القدرة التأويلية عند الجـمـهـور. إن لحظة تبـادل النظرات الصـامـتـة قـبل نهاية مشهد السـتـارة لحظة مسرحـيـة عظيـمـة لانها يمكن ان تبـقى ما بقي الممثلون يحاكـون، والجـمـهـور يؤول ظلال المعنى الاضـافية. واذا كان الجمهور سـاذجـاً، لوجب على المـمـثلين تحـريك المشـهـد بسرعـة، امـا اذا كـان الجـمـهـور حـاذقـاً، والممثلون مهرة، فيمكن اطالة مدى هذا الصمت الدال على المسرح الى زمن طويل على نحـو مـدهش. الشيء الفعال في هذا المشـهـد ليس السـخـرية وحدها بالطبع، بل إن السخرية الجوهرية في التـوقع تأتي في آخر المطاف، فهناك وجهات نظر مختلفة تنتج مشاعر مختلفـة، وسطوح لا تقـول الحـقـيـقة كلها. ففي مشاهدة المسرح ندرك دائماً انها كلهـا لعـبة، أو تمثيلية، وأن تحت سطوح الازياء، والميكياج، والاصـوات، والامـزجـة، يعـيش كـائن آخـر ليس هو الشـخص الذي

نتابع حياته. المسرح يعتمد على عزل الممثل عن الفاعل. وبغير ذلك فنحن نشارك في موعظة، ولا نشاهد دراما. إن سخرية النظرة المزدوجة هي ما تجعل الدراما ممكنة، وتعتمد هذه بالمقابل على تطور المهارة التأويلية عند الجمهور الدرامي.

تعتمد مسرحية شريدان فضلاً عن ذلك، على شفرة قيم بسيطة الى حد ان أي متفرج يمكن ان يشترك بها. الخداع سيىء، والخيانة سيئة، والنزاهة والكرم جيدان. ما من شيء اشكالي هنا، وللسبب المعقول نفسه، وهو إن أي شيء من هذا النوع سيتداخل بالضحك الذي اعدت المسرحية من أجله. السخرية موجهة الى وغد سافل من كل الوجوه، وهو جوزيف سرفس، وهي تقوم على أعمق وابسط اركان الشفرة الاجتماعية التي لم تكن موضع شك في انجلترا عام ١٧٧٧. وتعمل المسرحية اليوم لانها تقدم لنا عالماً يسهل الدخول اليه، برغم اننا قد نشعر بغرابته، مثل عالم حكايات الجنيات في مسرح الدمى.

في رواية بلزاك الصغيرة التي كتبها عام ١٨٣٣ «أوجيني غراندي» ندخل عالماً مختلفاً جداً تعمل فيه السخرية على نحو مختلف جداً. اننا ننتقل من المسرح الى الكتاب، بالطبع كما ننتقل من انكلترا الى فرنسا، ومن القرن الثامن عشر الى القرن التاسع عشر. وهو تغير هائل من كوميديا السلوك الى نوع من القص تعلمنا ان ندعوه «واقعياً» و «علمياً» دون أن نشعر بالحرج كما يجب ان نشعر به ونحن أمام الصراع بين هذين المصطلحين. ولقد اخترت نصاً من هذا النوع، وسخرية من هذا النوع، لأني اشعر أنهما يمثلان ضرباً من التطور المتطرف في

السرد ـ أو نوعاً من السخرية يمكن الاتساع به الى اقصى ما يسمح. ويتضح هذا الاتساع في كل مكان في النص، ولكن ربما لا يتضح في أي مكان بأفضل من «الخاتمة» التي ظهرت في الطبعة الاولى، وحذفت من الطبعة الامريكية التي تدعي انها «كاملة وغير مختصرة». ويدعي بلزاك هناك انه ليس سوى ناسخ متواضع عن الحياة. أو كما يقول في عبارته الذائعة «ليس هناك أي ابتكار في هذا المجال» ولكن بعد مقطعين فقط ينهي الخاتمة والكتاب بالكلمات الآتية:

«من بين النساء، ستكون أوجيني غراندي نموذجاً للاخلاص التائه في خضم عواصف الكون التي تبتلعه وكأنه نصب مختطف من بلاد الاغريق، يسقط في أعماق البحر، في أثناء نقله، ليظل مجهولاً هناك الى الأبد» (١).

لا يمكن لتأنق هذه اللغة ان يكون تمويهاً على العبارة السابقة. فلماذا لا يوجد ابتكار في هذا المجال؟ ربما لا يوجد في هذا التشبيه الملحمي، ولكنه موجود بالتأكيد في هذا القدر الكبير من الزخرف.

يريد بلزاك ان يرسم صورته بوصفه رساماً من الحياة، وفنان منمنمات متواضع، وبالتالي فنان وقائع عالمه. غير ان هذه الصور جميعاً عن الكاتب بوصفه فناناً تشكيلياً لا تسعف الا في طرح السؤال الأساسي المتمثل في كيف تستطيع الالفاظ ان «تستنسخ»، وبأي معنى كان، وجوداً يمتد الى ما وراء العالم اللفظي. ولكي يمثل بلزاك حياة «سومور» تمثيلاً دقيقاً، يؤطر قصته بأكداس من الخطاب. وبهذه

(١) اشكر الصديق الدكتور مهند يونس على ترجمة هذا المقطع والمقطعين التاليين عن الفرنسية (المترجم).

الطريقة فقط يشعر بالرضا في أنه يستطيع ان يرسم صورة عالمه رسماً مقنعاً. وفي مقدمته لطبعة ١٨٣٣ (المحذوفة ايضاً من الطبعة الامريكية) يتكبد المشاق لتسويغ حق المؤلف في ان يكون كريماً في فقرات الحشو المملة التي تتطلبها «دائرة الرسم الملزم بالتحرك فيها».

قد يبدو اننا ابتعدنا عن السخرية هنا، لكننا في الحقيقة لم نبتعد. فالسخرية البلزاكية في عمل مثل «أوجيني غراندي» تقوم بالضبط على حرية المؤلف في الانتقال الى ما وراء حدود شخصياته. واتفاقاً ترد اوضح عبارات الكتاب، بعد ان يصف بلزاك إذعان النسوة الثلاث في بيت «غراندي» لتنمره الشحيح. وبعد ان يخبرنا الراوي ان غراندي كان يعتقد بأنه كريم جداً مع زوجته، يضيف راوي بلزاك: أليس من حق الفلاسفة الذين يلتقون نساء مثل فانون، أو مدام غراندي، أو مثل أوجيني ان يجدوا في السخرية المصدر الحقيقي لطبيعة العناية الالهية؟» (٢). حسناً. ربما تكون السخرية المصدر الحقيقي للعناية الالهية أو ربما لا تكون، غير انها بالتأكيد أساس القص العليم ومصدره. ويتسع أمامنا الطريق مفتوحاً من «أوجيني غراندي» الى «إيما بوفاري» و «تيس» بطلة هاردي، عبر هذا الهمس البلزاكي.

اننا نشعر بالسلطة الساخرة عند راوي بلزاك في كل المستويات من المتن الحكائي الى الخطاب الذي يقع على الشخصيات، حين يلطخ فتيل الشمعة المشتعلة تنانير النسوة الثلاث من عائلة كروشو. ولكنها لا تتضح في مكان، كما تتضح حين ينتقل الراوي من شخصية الى شخصية، ومن جسم الى ذهن، ليعرض الدواعي المتناقضة، والحيل،

(٢) العبارة بالفرنسية في الاصل .

والانانية الحقيرة التي تحيط باوجيني، ولاسيما في المشهد الاول الكبير. حيث تجتمع عائلتا كروشو ودي غراسان في عيد ميلاد اوجيني، وكل منهما ترجو ان تمهد الاسباب لمرشحها حتى يصل الى طلب يد الوريثة، وفي هذه الاثناء يصل شارل غراندي من باريس.

قد يتريث المرء هنا بعض الوقت، ليلاحظ التغيرات الساخرة في وجهة النظر، ولكنني سأتأمل في جملة ونصف جملة فقط على سبيل الايجاز. لقد سلم ادولف دي غراسان على اوجيني وقدم لها هدية عيد ميلادها: «اهداها علبة ادوات تحوي آنية من الفضة المذهبة بحلية بضاعة حقيقية مشحونة بحلية مبهرجة، بالرغم من ان شعار الشرف الذي نقش عليه اسم اوجيني غراندي يمكن ان يوحي باسلوب متقن. عند فتحه أحست اوجيني بفرح غامر ما كانت تتوقعه، ذلك الفرح الذي يجعل الفتيات الصغيرات يتوردن من فرط السعادة ويرتعشن من الحبور».

تتمثل السخرية أساساً في ان اوجيني يدفعها شيء تافه مطلي بالفضة، أو كما يقول الراوي، «حلية مبهرجة»، وهي بضاعة لا تزيد عما لدى أي بائع متجول. ومن التباين في تقدير قيمة هذا الشيء عند اوجيني وعند الراوي، وقد اثراه رد فعل نسوة كروشو الثلاث، تنشأ السخرية كأنها في مسرحية لكن المسرحية لا تستطيع ان تطمئن الى تقييم مثل هذا الراوي. أما في رواية بلزاك فينصرف قدر كبير من الخطاب الى توفير هذا الاطمئنان، مثل: «نقشت عليه بدقة، الحروف الاولى» التي قد تخدع شخصاً أقل معرفة من الراوي، ومثل صيغ «ذلك. . . الذي» un de ces .... qui ، التي هي ضرورية في خطاب بلزاك

ضرورة النعوت عند هوميروس. ان عبارة «ذلك الفرح الذي . .» لا تشير الى تورد خدي الشخصية وارتعاشها، بل الى العلم الكلي الموسوعي والالهي بحق عند الراوي الذي تقوم سخرية النص على الشخصية التي يقدمها لنا.

ولأن بلزاك غير مطمئن الى جمهوره اطمئنان شيردان ولانه يحاول ان يوفق الى هذا الاطمئنان ، يولد خطاباً سردياً متفوقاً ، ومتنمراً ومطمئناً، الى ذاته. لابد للسخرية ان تضيء أوجيني لنا. ان كون الانفعال الحقيقي تبعثه فيها قطعة مبهرجة يهديها لها شاب احمق في رأسه أطماع شخصية ـ وليس مجرد انفعال حقيقي، بل انفعال جامح يحدث لها التورد والارتعاش ـ يجب ان لا يؤدي بنا الى ان نبتسم من اوجيني بتفوق ساخر. ولكي يمنع الراوي حصول ذلك، يقلب السخرية الى عاطفة، حتى على اسماعنا، أو يديرها الى هؤلاء المحيطين بها. ولا ينفرد خطاب بلزاك السردي بهذا الاسلوب. بل اننا نجد هذه التقنيات عند ديكنز ايضاً، وعند فلوبير (وان يكن صافياً وصقيلاً) وفي جميع الموروث الواقعي ـ الطبيعي. ان خطاب بلزاك يحتاج الى ما فيه من علم كلي لا ليولد سخريته وحسب، بل ليحول دون تأويل القارىء هذه السخرية بحرية بالغة ايضاً. وهذا ما يجعل زغب شيردان المسرحي متفتحاً كزهرة الربيع حتى الآن، في حين تواجه ولاءات بلزاك الجادة مقاومة كبيرة مع كل عام يمر. ونحن نعيش كما تقول ناتالي ساروت في عصر الشك ولا نكاد نقوى على مقاومة راو يريد ان ينوب عنا في التفكير باستمرار، ويزعم لنفسه العلم الكلي الذي يتناقص اطمئناننا اليه شيئاً فشيئاً.

يقاوم معظمنا مقاومة خاصة عند قراءة بلزاك، أو مقاومة غير علنية باخضاعه للاهتمامات التفكيكية للنقد الفرنسي الجديد. وتتمثل احدى ابرز المقاومات لبلزاك في مادة ظهرت في صحيفة «النيويوركر» في ١٧ آب ١٩٦٨. كانت بعنوان «أوجيني غراندي» وقد اخذت شكل اعادة صياغة موجزة لقصة بلزاك في نص يتكون من صفحتين فقط، فيها بعض الرسوم، كتبه «دونالد بارتليم». يبدأ النص بخلاصة للحبكة، منسوبة لـ «معجم اختصارات الكتب» وتستمر بمقتطفات من الترجمة الانكليزية الفعلية، مع اضافة بعض الايجازات والمحاكاة الساخرة والتوضيحات، الى حد يصعب فيه التمييز بين النص الاصلي والعبث اللاحق به. ويضطرنا باتليم الى أن نعيد النظر في بعض اركان نص بلزاك في هذا الضوء الجديد. وهكذا يكون لدينا الآن نصان من «اوجيني غراندي». وحيث حاول بلزاك ان يحصر بؤرة السخرية في خطابه المصر على العلم الكلي، يجعل بارتليم السخرية تبدأ بداية جديدة. يجب ان نرى أوجيني نفسها، والكتاب، وبلزاك، بأكثر من طريقة، وعبر اكثر من خطاب. ان مقاومة خطاب بلزاك لم تمكن فقط بالاستجابة الساخرة عند بارتليم بل انها تسببت فيها.

تأمل على عجل بعض حيل بارتليم ووسائله، فهو يقحم خارج اطار الترتيب الزماني، وصفاً لموت غراندي العجوز : «يشد غراندي العجوز على صدره بشدة، ثم يستسلم. ثمانمائة الف في السنة! يلهث. الموت لهاثاً».

هذا بالطبع محض ابتداع يربط موت غراندي بالدخل الذي حصلت عليه ابنته بعد سنوات وهي ارملة عذراء. وهو ايضاً محض

لعب بالالفـاظ. فـهـو يسـتسلم capitulate لانـــه رأسمالي Capitalist (٣) الـصـوت يـؤثـر في المـعـنى ويحط منه. ولقـد سـبق لبـارتليم ان إعطانا مقتطفاً آخر:

«إليك مليـون ونصف فـرنك، أيها القـاضي، قـالت أوجيني وهي تسحب من صدرها شهادة بمئة سهم في بنك فرنسا».

هذا الحدث المستحيل الذي يربط كالسابق بين مبلغ كبير من المال وبين الصـدر الانسـاني على نحـو مـضـحك يجيء اقـتباساً مضبوطاً من الترجمة الانكليـزية، التي هي هنا دقـيـقـة جـداً. غير ان وضع الخطاب العـبـثي المبـتـدع والخطاب الاصلي على المسـتـوى نفـسه يولد سخريات جديدة للقارىء الحاذق.

في الحـقـيـقـة ليس في نص بارتليم خطاب خاص به. فهو كولاج خطابات قـدمت دون احـالة الى مـركز تأويلي. وأحد أطول المقتطفات واكـثـرها ابعـاثاً للحيرة هو دون شك مـقـابلة بين احـد اعـضـاء عائلة غـراندي ورجل جـاء ليرسم صـورة أوجـيني . وفي سـياق المقابلة يذكر الرسام انه امريكي اسمه جون غراهام، وان عمره يمتد من ١٨٨١ الى ١٩٦١ . واذا تركنا جـانباً استحالة ان يعرف الانسان عمره، فلا يمكن ان يلتـقي غـراهام باوجـيني قط، مـا دام بلزاك ينهي قـصـتـه في الزمن المعاصر بقصة أي سنة ١٨٣٣ . وتنتهي المقابلة بعد ان يعرض غراهام نماذج من صور لاناس من الغرب الامريكي.

«ـ لماذا كلهم حُول؟

---

(٣) في المفردتين جناس لا تمكن ترجمته .

ـ هـذه هي الطريقـة التي ارسـمـهم بها. ولا ارى في ذلك خطأ. فهذه غالباً ما يحصل في الطبيعة.

ـ غير ان كل واحد منهم هو . .

ـ حسناً، ما الغريب في ذلك؟ انا فقط أود . . . هذه هي الطريقة التي ارسمها. أود . . .» .

نهاية المقابلة. لكن كيف نؤولها؟ كان بلزاك مفتوناً بمقارنة نفسه برسام أو ناسخ من الحياة. ما علاقة ذلك بهذا المتخصص برسم صور الحول؟ أيفترض ان نستخلص ان بلزاك كانت له تفضيلاته التي ابعدته عن ان يكون ناسخاً دقيقاً شأنه شأن الرسام الذي يرسم جميع شخوصه حولاً؟ هل هذا قول عميق عن اسلوب في الفن؟

لا يفترض فينا ان نصل الى نهاية بذاتها. الامر متروك لنا في القيام بالعاب تأويلية بهذه المواد، غير ان علينا ان نحمل نصيباً كبيراً من المسؤولية عن النتائج المترتبة عليها. فنحن عائمون في بحر السخرية هنا، وعلينا ان نتعلم السباحة أو نغرق. ومن المبرر عقلياً ان نرى ذلك احتجاجاً ضد ثقل تاريخ الادب، ضد وجود بلزاك نفسه، ضد فكرة «العلم الكلي» وما يرافقه بالضرورة من قسر أو تلاعب بالقارىء. وفي عصرنا الحالي، قلب الكتاب سخرية الخطاب المكتوب على الخطاب نفسه، الى درجة بالغة لم تحدث من قبل، كما ستذكرنا اسماء كافكا وبريخت وبيكيت وبورخس وناباكوف، اذا لم نضف اسماء جمهرة من الكتاب الشباب مثل بارثليم نفسه الذي يسير في هذا الاتجاه.

يمكننا ان نستخلص نتيجة بسيطة، وقد تأملنا في نصوص ثلاثة كتاب ساخرين. في الكوميديا الكلاسيكية عند شريدان، كانت لدينا سخرية لم تكن بحاجة الى خطاب موثوق للتركيز عليه، بل ركزت على مبادىء قيمة بسيطة، واجماع اجتماعي واضح، ومع بلزاك وجدنا سخرية لم يكن بالامكان السيطرة عليها الا على حساب تقديم خطاب قسري ومتضارب، ومع بارتليم وكتاب معاصرين آخرين لدينا خطاب يدعو السخريات الى نفسها، ومن خلال التقديم المتعمد، الى كل من القصة والخطاب وفجوات وتناقضات ومضحكات. لا حاجة هنا للتساؤل عن التقدم. كل ما يمكن ان نقوله هو أن هذا هو عصرنا، وكل محاولة لخلق خطاب متحرر من السخرية في حدودها المعرفية لن تكون سهلة. ففي بلاد الساخرين، يبدو العلم الكلي نفسه مضحكاً.

المداخل السيميانية الى قصة

«ايفيلين» لجويس



الغاية من هذا الفصل غاية بسيطة ، فأنا أرغب هنا أن أزعم وأرجو أن ابرهن على زعمي ، كأفضل ما يمكن البرهان ، ان بعض المقتربات السيميائية من النصوص القصصية ، وكلها غير كامل بمفرده ، يمكن الجمع بينها على نحو يسهل النقد التطبيقي للقصص . والمقتربات الثلاثة التي أود الجمع بينها في منهجية واحدة هي الآتية :

١ ـ مقترب تزفتان تودوروف ، كما أوضحه في كتابه «قواعد الديكاميرون» .

٢ ـ مقترب جيرار جينيت في كتابه «الخطاب السردي» .

٣ ـ مقترب رولان بارت في كتابه « س / ز » .

لقد حاول الناقد في كل حالة من هذه الحالات الثلاث ان يولّد منهج تحليل مناسب للمادة التي يتأمل فيها ،ثم أنْ يفحص هذا المنهج بالمادة . ولكن في كل حالة كان للمنهج استعمال تطبيقي أوسع أيضاً . الموضوعة التي أريد إبرازها في هذا الفصل انّ لكل من هذه المناهج الثلاثة استعمالاته التطبيقية الأوسع فعلاً ، وإنها يتممّ بعضها البعض الآخر في تناول النص القصصي من مختلف الزوايا ، وأخيراً فانها تقترح سياقاً استعمالياً يقدم فيه كل جزء نفسه في «منهج شارح» Metamethod تعمل فيه هذه المناهج الثلاثة كوحدات في عملية تبادلية واحدة ، وحدات يكون ترتيبها الترتيب نفسه دائماً . ويتضمن المنهج الشارح الذي أود إيضاحه الاقتراب من النص من خلال تودوروف ، وجينيت ، وبارت على هذا الترتيب . وسيقوم

الايضاح على قصة قصيرة عنوانها «ايفيلين» من كتاب «أهالي دبلن» لجيمس جويس .

يختبر النقاد الثلاثة في الحقيقة مستويات أو ملامح مختلفة من النص ، برغم أن عملهم يتداخل في بعض النقاط ، ويسمّي تودوروف ، الذي يقيم منهجه على الحكايات المائة من كتاب الديكاميرون لبوكاشيو ، دراسته «قواعد» ، بينما يصر جينيت الذي يوضح نظامه بالبحث عن الزمن الضائع لبروست على تسميته «مجازات» تعمل على المستوى «البلاغي» في النص . أمّا بارت ، الذي يعمل على رواية قصيرة لبلزاك ، فسيميائي أكثر اكتمالاً ، لأنه يبحث عن تشفير جميع الطرق التي يولد فيها النص القصصي دلالاته . هؤلاء الكتاب الثلاثة ، إذن ، يقدمون لنا قواعد وبلاغة وسيمياء للقصص . وهذا صحيح مع بعض التحفظات التي ستظهر في مجرى النقاش التالي .

لقواعد تودوروف سمتان رئيستان . فهو يرد القَصَص إلى بنى حبكة يمكن تمثيلها من خلال منطق رمزي بسيط ، وهو يُشفِّر الملامح الدلالية لنظام تدوينه الرمزي بحيث تكشف عن الامور الموضوعية الأساسية للفعل في أية قصة . ويدعو منهج تودوروف إلى تقديم خلاصة الفعل في القصة قبل كل شيء ، ثم اختزال أو ردّ هذه الخلاصة إلى صيغة رمزية . غير أنّ في هذا الاجراء عيبين كبيرين . الاول ان الخلاصة لا بدّ أن تكون حدسية ، لا يغطي عليها نظام صريح ، والثاني ان لنظام التدوين اللاحق دقة زائفة ،

تعتمد المماثلة مع الخلاصة اكثر مما مع القصص نفسه .

المشكلة ليست كبيرة جداً حين نعمل على قصص بسيطة وسهلة الوصف مثل حكايات بوكاشيو ، لكنها تصير خطيرة حين نحاول الانتقال إلى القصص المعاصر .

على ناقد النصوص القصصية المعاصرة أن يستخدم منهج تودوروف كأداة استكشافية ، وطريقة في تركيز التأويل على بعض سمات النصوص القصصية . ويعتمد ادراكنا للقَصَص بوصفه قَصَصاً ، جزئياً ، على فهمنا لما يسميه بارت شفرة الافعال . ونحن نتعرف على القصة كقصة لأننا نتلقاها في نظام سببي / زماني له ، كما أشار إلى ذلك أرسطو ، بداية ووسط ونهاية . ويقدم لنا تودوروف طريقة لفرز الفعل الأساسي في أي عمل قصصي لكي ننقله إلى صدارة اهتماماتنا . وباستعمال نظام تدوينه الرمزي ، نبحث عن القصة في داخل اي عمل قصصي . ومن الواضح أن أغلب القصص ليس مجرّد قِصَص وحكايات ، ولا سيما القَصَص الحديث ، بل أن بعض القَصص قِصَص وحكايات مضادة ، وقصص زائفة تتم فيها محاكاة فكرة القصة على نحو ساخر ، أو تُرفض لغرض أيدلوجي أو ثيمي (موضوعي) . ويقدم لنا تودوروف طريقة للبحث عن القصة في أيّ قَصَص ، ولتدوين نتائج هذا البحث . فإذا لم نجدْ قصة ، أو وجدنا قصة جزئية فإنّ هذه ستكون أيضاً نتيجة ذات دلالة .

لكن ما القصة ؟ يساعدنا تودوروف على الدقة في الاجابة عن هذا السؤال . القصة هي نوع من توالي القضايا . والقضايا القصصية على نوعين : الصفات والافعال . وأهمّ متوالية قصصية هي الصفة ،

الفعل ، الصفة ـ أي البداية ، الوسط ، النهاية . ولأوضح ذلك . إذا كانت الشخصيات أسماء ، والصفات نعوتاً ، والاحداث أفعالاً ، فيمكننا أن نقدّم قصة بسيطة على النحو الآتي :

$$X - A + (XA)\ optX \rightarrow Xa \rightarrow XA,$$

حيث :

X = صبي

A = يحبّ ، أو يحبه شخص آخر .

a = البحث عن الحب ، أو التودد .

opt X = الصبي (X) يرغب في (opt)

– = نفي الصفة : A ـ هو الافتقار للحب ، أو كون المرء غير محبوب .

وهكذا تقرأ هذه المتوالية أن صبياً يفتقر إلى الحب زائداً صبياً يريد ان يكون محبوباً تؤدي إلى صبي يبحث عن الحب ، وتؤدي هذه إلى صبي محبوب . ونحن نعرف انّ هذه قصة لأنها متوالية من القضايا التي تتضمن الموضوع نفسه ، تكون فيها آخر القضايا تحويلاً للأولى . ويجب أن تكون النهاية التعيسة تكراراً بسيطاً للقضية الاولى : X - A . ويجب أن تكون النهاية التعيسة جداً !X - A ، صبي يفتقر إلى الحب بعنف . وسواء أكانت النهاية سعيدة أم تعيسة ، فإن ما يجعل من المتوالية قصة هو العودة إلى القضية الافتتاحية في النهاية . فالقصص تدور حول التحويل الناجح أو الفاشل للصفات .

في تطبيق منهج تودوروف على القصص الحديثة ، فإن المشكلة الاولى غالباً ما تتمثل في فرز متوالية الافعال الاساسية ، للعثور على القصة الاصلية . قصة (ايفيلين) اكثر بساطة من هذه الناحية ، غير أنّ قصصاً أخرى في (أهالي دبلن) اكثر صعوبة بكثير . فالعثور على قصة في (يوم اللبلاب) ليس بالأمر السهل على هذا النحو . بل ان (ايفيلين) تثير مشكلات من نوع آخر . فسلسلة الرموز التي تمثل نحو القصة ليست سوى جانب من «قواعد» ها. والجانب الآخر هو المعجمي أو الدلالي . ويجب ان نردّ مركب الخصائص التي تقترن بالشخصيات (اي ما يسميه بارت الشفرة الايحائية) إلى بعض السمات المجملة التي تنشطها القصة نفسها . وهذا الاجمال أو الاختصار الدلالي هو الجانب الحاسم جداً في العملية التأويلية على هذا المستوى من التحليل . وفي الممارسة الفعلية يجب أن يحكك القارىء الصفات حتى لا يعود بالامكان تنقيتها مرة أخرى . ويتطلب المنهج هنا مهارة مؤوّل متمكن ، وسوف يقابل أيّ نقص لمثل هذه المهارة بجحود . لكنّ المنهج لا يستطيع أن يوفرها .

وها هنا صورة من قصة (ايفيلين) :

$$\overset{1}{XA} + \overset{2}{XB} \rightarrow \overset{3}{X-C} + \overset{4}{YaX} + \overset{5}{(X-A+X-B \rightarrow XC)predX} \rightarrow$$

$$\overset{6}{(XbY)predX} + \overset{7}{XA!} \rightarrow \overset{8}{XnotbY} \rightarrow \overset{9}{(XB + X-C)\ !\ imp}$$

X	ايفيلين
Y	فرانك

A	دبلني
B	اعزب
C	سعيد ـ محترم ، امن
a	الفرار من بيت الاهل
b	القبول بالفرار
-	نفي الصفة
not	نفي الفعل
pred	يتنبأ أو يتوقع
ipm	متضمن في الخطاب

يمكن أن يُقرأ التعليق كما يأتي : ايفيلين دبلنية ـ وتعني حرفياً مقيمة في دبلن ، أمّا مجازاً فتعني الكثير . فهذه الصفة قائمة على متوالية القصص كلها ، وهي في الحقيقة ، ما تدور حوله القصص ، كما يشير إلى ذلك عنوان الكتاب . وتؤشر هذه القصة ، مثل أغلب بقية القصص بقوة سماتٍ مثل العزلة ، والحرمان ، والكبت ، مقرونة بالعجز عن القيام بفعل لتغيير ظروف الحياة . ايفيلين بتول أيضاً . فالدبليون يميلون إلى ان يكونوا متبتلين أو أزواجاً تعساء . وتؤشّر صفة التبتل في العادة بوصفها صفة سلبية ، موحية بالنقصان والخصاء والعزلة . وتشير القضية الثالثة إلى أن ايفيلين تعيسة في حياتها . وهذا شيء أقل وضوحاً ، لكن يمكن استنتاجه من استجابتها لمقترح فرانك ومن أوصاف أخرى في حياتها المنزلية . فعل

القصة يبدأ باقتراح فرانك عليها الفرار معه ، وهذا ما يجعل ايفيلين تتخيل ان وضعها سيتحسن ، ويستدل عليه بقلب العلامة في الصفات عند القضية الخامسة . ويتحدد تنبؤها بالفرار نفسه في القضية السادسة بالتغيرات التي تتوقع حصولها في القضية الخامسة . كل هذا واضح تماماً في النص . غير أن ايفيلين دبلنية !ولهذا ترفض بالتالي الفرار من البيت ، وتنتهي القصة بتضمين قوي مفاده استمرار وضعها الاصلي، دون ان يتغير شيء سوى ازدياد حدته بتضييع فرصتها في الرحيل عن دبلن وتغيير حياتها . وهذه قصة بسيطة يمكن تشفيرها بسهولة بوصفها نفياً لاحدى حكايات الجنيات الروسية عند فلادمير بروب . يأتي الأمير لإنقاذ الاميرة من زنزانة الوغد ، غير أنها تقرّر بالتالي ان الزنزانة أقلّ رعباً من فكرة الرحيل عنها ، فتعيد البطل إلى وطنه خالي اليدين فالطبيعة تولد أحياناً أصالتها ومشروعيتها بقلب الرومانس . لكن لنعدْ إلى عملية التدوين وما تكشف عنه .

إذا نظرنا إلى الصيغة النحوية هنا وجدنا أن ثلاث قضايا صفاتية تؤلف «موقع» ايفيلين تتكرر بالحاح عند أو قرب خاتمة القص . وبرغم انّ هذا التكرار اكثر تعقيداً من مجرد استعمال صياغة ، فإن التضمينات واضحة تماماً . يمكن أن نرى أيضاً أنّ الصفات تبقى بلا تغيير : أي أن الموقف الشقي في الأساس يظل حتى النهاية ، ويزداد حدةً . وهذا في الحقيقة هو القانون في (أهالي دبلن) . وتميل قواعد هذه القصص إلى التمسك بالظروف غير السارة ـ أي من السيىء الى الأسوء . قصص قليلة تكشف تغيراً من الأحسن إلى الأسوأ . وتكشف قصة واحدة فقط عن تحسن الموقف الافتتاحي وهي قصة (النبيلان) ، التي يستفيد فيها لينهام المعدم من تطفله على صديقه

كورلي الذي حصل على عملة ذهبية من خادمة رداً على جميله الجنسي ، لكنْ وراء هذه النهاية «السعيدة» تتضح اكثر فأكثر صورة لينهام كمتطفل ناضج يقع في فخ وجوده المتدبلن ، فليس ظرفه بأحسن من ظرف إيفيلين .

المسألة الأساسية في هذا النقاش هي أن نظام التدوين الرمزي عند تودوروف يلزمنا بأن نركز على قضايا الصفة ، ويلزمنا بأن نستخرج ثيمة العمل . وحين يُطَّبق على مجموعة أعمال لمؤلف واحد ، مثل قصص (أهالي دبلن) ، فإنه يصرف انتباهنا إلى سمات متكررة في التشفير النحوي والدلالي ، طارحاً مشكلات عن قضايا مثل لماذا تتعلق كثرة من هذه القصص بالتبتل وبدائله المختلفة ، وأخيراً عن الصفة النهائية ، أي كون المرء «دبلنياً » . وهذا المنهج خام نسبياً ، لا يتفحص سوى سمتين إجماليتين من سمات النص ـ وهما الفعل والصفة غير أنّ عدم انتفاع المحلل والمعلم به مسألة حقيقية .

أفضل جهاز نقدي إحكاماً ونسقية تمّ تطويره حتى الآن لدراسة النصوص القصصية هو ذلك الذي اقترحه «جيرار جينيت» في كتابه «الخطاب السردي» ، وفي سياق نقاش واسع عن «بحث» بروست ، يقدم جينيت منهجاً لتحليل النص القصصي استناداً إلى الزمن والمظهر والصوت ، وبذلك يستعير مصطلحاته من القواعد التقليدية للفعل Verb ، على أساس أن كل قَصَص يمكن أن يُنظَر اليه بوصفه «اتساعاً لفعل ما » . يبدأ جينيت بتمييز ثلاثة جوانب في النصوص القصصية تمكننا من التعرف عليها بوصفها قصصية وتوفر لنا أيضاً نقطة شروع

لدراستها . فكل نص قصصي يرد الينا بصورة خطاب سردي ، أي نص فعلي . ويخبرنا هذا الخطاب عن مجموعة من الاحداث القصصية التي يمكن فرزها عن النص نفسه . فكل نص ينقل لنا قصةً ، توجد في موقع زمكاني مختلف عن النص نفسه ، وعن انتاجه أو قراءته . فضلاً عن ذلك ، فكل نص سردي ينقل لنا أيضاً ، ضمناً أو صراحةً ، بعض أحوال القص ، وشيئاً من تفسير وجوده كنص ، بالنسبة إلى كل من الاحداث المروية والمروي له أو الجمهور . وحين يتم فحص الموقف السردي لنص ما عن قرب ، فلن يتطابق الراوي والمروي له تطابقاً تاماً مع المؤلف والقارىء ، ولن تتفق أحوال القص مع الظروف الحقيقية لتأليف الكتاب وقراءته .

واضعاً نصب عينيه هذه العناصر الثلاثة للقصص المكتوب (أي النص والقص والقصة) يبدأ جينيت دراسته للسرد بفحص أركان ما يسميه «الزمن» القصصي . ففي الترتيب الزماني للقصص يميز ثلاث مناطق رئيسة للبحث ، هي : الترتيب ، والديمومة ، والتردد . الترتيب Order هو تنظيم الأحداث المعبرّ عنه كعلاقة بين القصة والنص ، أي التقسيم الزماني للقصة في مقابل الطريقة التي ينظم بها الخطاب تقسيمه الزماني ويقدمه لنا بها . (وهذا قريب من تمييز الشكلانيين الروس بين القصة والحبكة) .

والديمومة Duration هي العلاقة بين الاتساع الزماني للأحداث في القصة ، والانتباه الذي يكرسه الخطاب لها . وهذه مسألة سرعة أو بطء يمكن التعبير عنها بتقسيمها إلى ساعات وأيام وسنوات في زمن القصة ، وكلمات وصفحات في النص المطبوع . ويتضمن الجانب

الزمـاني الثالث في النص القصصي ، الذي هو التردد Frequency الطرق التي يمكن بها تكرار الاحـداث سـواء في القـصـة نفسـها (إذا حدث الـشيء الـواحـد أكـثـر مـن مـرة) أو في الخـطاب (إذا وصف الحـدث الـــواحد أكثر من مـــرة) .

في داخـل هـذه الجـوانب الرئيـسـيـة الثـلاثة للزمن يضع جـينيت تميـزات أخـرى لن يحضر منهـا هنا سـوى بعـضـهـا ، لأنها كلّها ليست بذات دلالة لدراسة «ايفيلين» .

ترتيب تقـديم الاحـداث في (ايفـيلين) هو في الوقت نفـسه بسيط ومـعـقـد . فـالزمن الحـاضر للسرد هو المساء المقترح لرحيل ايفيلين عن دبلن . ويقـدم جـويس هذه الأحـداث في مـشـهدين : يبدأ الأول في الصفحة الأولى من النص بظلمة تطبق حين تجلس ايفلين إلى نافذتها ، وينتهي حين تنهض ، قبل آخر صفحة . ويبدأ المشهد الثاني بعد نقاط الحـذف في الصـفـحة نفسها . والزمن هو الليلة نفسها (برغم أننا يجب ان نسـتنج ذلك) ويستمرّ المشهد حتى نهاية القصة . وفي داخل مخطط التـقـسـيم الزمـاني الخـارجي البـسيط هذا ، تنتقل القصة في تعقيد غير اعـتـيـادي للتنظيم الزمني . وإذا اكـتـفـينا ، مـؤقـتـاً بالفواصل الزمنية الجـاهــزة سلفـاً ، فـيـمكننا تمييز حركة الزمن في القصة بشيء شبيه بما يلي ، وقـد اعطينا هذه الفـواصل الزمنية الأرقام من (١ ـ ٦) :

أ ـ الحاضر (البداية ، إلى المقطع الثاني) ٥ .

ب ـ الطفولة (منتصف المقطع الثاني) ١ .

جـ الحاضر (نهاية المقطع الثاني ، وبداية الثالث) ٥ .

د ـ (قطعة معقدة سنعود إلى تفحصها عن قرب فيما بعد) .

هـ ـ الماضي القريب (الانسة غافان والمخازن) ٤ .

و ـ المستقبل (بيتها الجديد)٦ .

ز ـ الماضي القريب (مساء السبت ، الخ) ٤ .

حـ ـ المستقبل (كانت على وشك) ٦ .

ط ـ الماضي القريب (علاقة ايفيلين بفرانك) ٤ .

ي ـ الماضي البعيد (تاريخ فرانك) ٢ .

ك ـ الحاضر (عمق الماضي) ٥ .

ل ـ الماضي البعيد (مرض ام ايفيلين وموتها) ٣ .

م ـ الحاضر مختلطاً بالمستقبل (نهاية القطعة الاولى)٥/٦ .

ن ـ ثغرة في الحاضر ٥ .

س ـ الحاضر (المشهد الثاني كاملاً يتخلله شيء من المستقبل)٥ .

حتى لو تجاهلنا التحولات الزمانية الصغرى ، فإننا يمكن أن نميز خمسة عشر مقطعاً متميزاً تمتد على طول ست حقب منفصلة من حياة ايفيلين، بدءاً من طفولتها حتى مستقبلها الممكن مع فرانك . ولكن بسبب الطريقة التي عالج بها جويس المنظور في هذه القصة ، فقد انخرطت كل هذه الازمنة في داخل الزمن الحاضر للمشهدين . فهي كلها تُقدَّم لنا بوصفها جوانب من تفكير ايفيلين في الزمن الحاضر

الذي هو قريب جداً من زمن «المضارع» ، حتى لو كان مروياً في ماضٍ تقليدي . حتى الشغرة تمثل مساراً حاضراً ودرامياً للزمن . وما دام جينيت يناقش المنظور بوصفه جانباً من «الطبع» ، فإننا سنعود له لاحقاً فاحصين عن قرب اكثر بعض جوانب الزمن التي اطّرحناها جانبــــاً .

الوحدة الزمنية الرابعة التي لاحظناها أعلاه معقدة جداً لدرجة انني أحجمتُ عن تحديد موقعها في الزمن . والآن دعونا ننظر اليها عن قرب أكثر . لقد اعادنا المقطع الثالث إلى الزمن الحاضر بكلمتي «الآن » و«بيت» ، حين كانت ايفيلين تنظر حوالي غرفتها التي تزداد ظلاماً . ولنتفحص الآن الحركة الزمانية في عدد من الجمل هنا :

نظرت (الحاضر) حوالي الغرفة ، وهي تعاين (الحاضر) كل اشيائها الاليفة ، التي كانت تنفض عنها الغبار (ماضي ، تكراري) مرة كل اسبوع عدة سنوات ، وكانت تتساءل (ماضي ، تكراري) من اي مكان في الأرض جاء كل هذا الغبار . ربّما لن ترى مرة أخرى (مستقبل ، شرطي ، منفي) هذه الأشياء الأليفة التي لم تحلم قط (ماضي ، منفي ، تابع للمستقبل) بالانفصال عنها (مستقبل ، في داخل الماضي المنفي ، في داخل المستقبل) .

لدينا هنا تذبذب سريع بين الماضي منظوراً اليه كتكرار ، كجولة اليفة في الاحداث المتكررة ، عائماً ولكن مريحاً ، ومستقبل يُدرَك على نحو معتم ، كغياب لما يكتنفها من أشياء اليفة . المستقبل بوصفه غيابياً (لن ترى مرة أخرى) مشروع مرعب . ولانها تحاول ان «تزن

كلّ جانب في القضية » فإنّ افكار ايفيلين تواصل انتقالها من الماضي إلى المستقبل ، لكن المستقبل بالنسبة إليها سلبي في أحسن احواله : «أبداً» ، وشرطي في أسوأ أحواله : «سوف تتزوج . . . وسوف يعاملها الناس باحترام حينئذ لن تعامل كما عوملت امها من قبل» . ويؤدي بها المستقبل بالضرورة إلى الماضي . وهي لا تستطيع ان تراه إلاّ على نحو معتم وسلبي ومشروط . ليست له عندها حقيقة ، باكثر من الحقيقة التي لبوينس ايرس كمكان على ملبورن ، على حدّ تعبير أبيها . وحين تبدأ بالتفكير بنفسها زوجة تنتهي بالرغم منها بالتفكير بأمها . وبهذا الصدد يجب أن ننتبه إلى ان مستقبلها ، إذا ما بقيت في البيت ، موضوع يراوغها أكثر بكثير من مستقبلها في بوينس ايرس ، وهي «تزن كل جانب في القضية» . نحن نعرف ان لديها وجيباً ، وان اباها (فيما بعد) قد بدأ بتهديدها بالعنف الجسدي . ونستطيع ان نستنتج أنّ أمها كانت قد تعرضت لهذا العنف في الماضي وتقرّ ايفيلين كثيراً بهذه الفكرة ، شعورياً ، حين تفكر بأنها قد تُعاملُ كما لم تُعاملْ أمها من قبل ، ثم تنتقل في الجملة التالية إلى التفكير بعنف أبيها . ففي حلم يقظة ايفيلين ، الكثير مما لم تعبر عنه صراحة بالنسبة إلى كلّ من الماضي والمستقبل .

لقد انسقتُ في تطوير هذه التأملات من أفكارنا عن الزمن إلى قضايا الصوت والمنظور . وكما يشير جينيت ، فإن هذا شيء لا مفرّ منه في التحليل ، ما دمنا نقسّم ، اعتباطاً ، على سبيل النقاش ، ما لا ينقسم ، لأننا لا نستطيع قول كلّ شيء عن النص دفعة واحدة ، غير أنّ هذا التحليل سينصرف بنا إلى شؤون القصة لو انسقنا معه . والزمن ، كما نرى الآن ، ليس مجرّد سمة من سمات بناء هذا النص

السردي ، بل هو أهم عنصر في وضع ايفيلين . «كان وقتها يجري » كما يقول الراوي ، وهي تعرف ذلك . انها تواجه لحظة اختيار مرعب بين مستقبل لا تستطيع ان تراه ، ومستقبل لن تطيقه . ويتميز البشر عن سواهم من الحيوانات بقدرتهم على تناول المستقبل كمشروع ، والوصول اليه من خلال اللغة والرؤية . لكنّ ايفيلين منشدّة إلى فخ الماضي ـ بوعدها لأمها الميتة ، بممارسة طقوس كنيستها ـ إلى درجة انها لا تخشى المستقبل وحسب ، بل تتراجع عن وعي الماضي بكل معنى الكلمة : «حركت شفتيها في صلاة صامتة محمومة » فقد فقدت أخيراً هبة الكلام ، وكل قدرة على الادراك والاتصال . فتتحول «سلبية ، مثل حيوان لا حول له ولا قوة » .

بالانتقال من الترتيب الزمني للنص إلى ديمومته ، يميز جينيت أربع سرعات أساسية في القص :

١ ـ الثغرة ـ سريعة بلا حدود

٢ ـ الخلاصة ـ سريعة نسبياً .

٣ ـ المشهد ـ بطيء نسبياً .

٤ ـ الوقفة الوصفية ـ درجة الصفر للتقدم

ويشير إلى انّ الايقاع الروائي الاساسي هو تعاقب بين الخلاصات غير الدرامية التي تؤدي وظيفة الربط ، وبين المشاهد الدرامية التي تحدث فيها الافعال الفاصلة . ولدينا في (إيفيلين) كل هذه الأنواع

الأربعة من الديمومة : فهناك ثغرة بين المشهدين في السرد ، وخلاصة الحياة الماضية لإيفيلين وفرانك ، والمشهد الدرامي على رصيف الميناء ، بل حتى بعض الوصف ، وإن يكن قليلاً إلى درجة انه لا يخلق اية وقفة حقيقية في القصة . لكننا بحاجة لمعرفة بعض الجوانب الخاصة باستعمال جويس لهذه التقنيات . فهو ، قبل كل شيء ، يخلط هذه الاشياء بحيث يتم تقديم الوصف والتلخيص كجوانب من تفكير ايفيلين ، ومن هنا تعمل كدراما أو مشهد . ولا تشكل المقاطع السردية المكتوبة في الزمن الحاضر مشهد ديمومة واسعة يحتل فيها زمن قصير نسبياً في القصة جزءاً طويلاً من النص . ويعطينا المشهد الأول ، بكل تذبذبه الزمني ، احساساً بالحاضر الذي يمرّ ببطء شديد . ثمّ يؤكد المشهد الثاني ، بعد الثغرة ، ببسط الزمن اكثر ، على مرور الثواني ، حين تجلب عملية رحيل السفينة العنيدة (الزمن والمد لا ينتظران أحداً) المستقبل والحاضر إلى نقطة مطابقة ، بينما ايفيلين التي لم تعدْ قادرة على موازنة الماضي بالمستقبل ، يتم اخراجها من نطاق الزمن الانساني تماماً إلى حاضر متجمد في وجود حيواني .

توفر معالجة جينيت للطبع القصصي طريقة ذات فائدة في تحليل قصة جويس أيضاً . اذْ يقسم جينيت الطبع إلى جانبين : المسافة والمنظور . المسافة السردية هي وظيفة حجم ودقة التفاصيل التي يقدمها النص . فكلما زادت التفاصيل ، اقتربنا من الوصف المشهدي . وقد تقدم بعض التفاصيل على نحو مجاني ، وبلا مسوّغ ، وكأن المراد منها ان تعطي «اثر الواقع » لشيء سُمّي فقط ، لأنه «هناك

واقـعـيـاً » . في (إيفيلين) تبدو فقرات مثل «رائحة الكريتون المغبر» أو «الـصـورة المـلـونـة للوعـود التي أبرمت لمارغــريت مــاري الأكـاكـيـو المبـاركـة ،تعـمـل بهذه الطريقـة « المجـانيـة » ، كـمـجرد كسر مــن « الحياة» . ولكن هذه الكسر المعلوماتية ، مــن المحتمل ان تحمــل بين يدي جويس بشكــل خاص ، معاني بأكثر مــن شفرة . وبهذا الصدد لا بـدّ مـن إكمال مـنهج جـينيت بمنهج رولان بارت ، كما سأعـرضـه مفصلاً فيما يأتي :

في نقـاشـه للمـسـافـة والمنظور يتأمل جـينيت الحـوار النقدي عن العرض Showing في مقابل القص Tellingفي القصص والابراز الحداثوي للعـرض ، الذي يرى فيها تفضيلاً للمشهد على الخلاصة ، مع تغييب مـلازم لدور الراوي . وجويس ، كما هو واضح ، خير مثال على هذا المـيـل ، على الاقل في (ايفـيلين) ، حـيث يتّسع المشـهـد ليـتـضـمن الخـلاصـة كلهـا وحـيث يجب ان نمارس براعـة فائقة للكشف عن قناع الشـخـصـيـة السردية التي تختفي وراء صوت ايفيلين ومنظورها . ويصر جـيـنـيـت أيـضـاً على ضرورة مـلاحظة المحلل ، التـفـريقَ بين المنظور والصـوت في الدراسـة النقدية . فقد لا تكون العينان اللتان نرى بهما ، والصـوت الذي نسـمـعه للشخص نفسه في السرد بالضرورة ، وان يكن يبـدو في (ايفـيلين) اخـتلاف صغير ذو دلالة . المنظورات المختلفة التي يـتـبـنـاهـا الـقـصص قـضـايا بؤرة . وقـد يتم توضـيح بعض جـوانب الاحـداث في أية قـصـة بوساطة البؤرة السردية ، بينما يتم اخفاء جوانب أخـرى أو التـعـتـيم عليـهـا ، على نحـو مـؤقت أو على نحو دائم . وتحـدد البـؤرة إلى اي مـدى نسـتطيع ان ننفـذ الـــى الحـيـاة الداخلية

للشخصية ، وكم من الشخصيات ستكون عرضة للمعاينة . الداخلية : يقول : «انّ نوع البؤرة ليس بالأمر الثابت بالضرورة في العمل كله ، بل بالنسبة إلى مقطع محدد قد يكون وجيزاً » . ويطوّر جهازاً اصطلاحياً لعدد من أنواع المنظور ـ فهناك الداخلي والخارجي والثابت والمتحول والمتعدد والخالي من البؤرة unfocused - غير أنّ هذه المصطلحات ، مثل نظائرها في النقاش الأمريكي لوجهة النظر القصصية ، قد لا تكون لها قيمة تحليلية كافية لتسويغ تصنيفها المعقد . فالمتغيرات في البؤرة السردية التي تؤثر حقاً قد تعمل على مستوى تأخذ فيه الحساسية والحدس اللغويان بنظر الاعتبار شيئاً أكثر بكثير من مجرد الجهاز الاصطلاحي نفسه . وحتى هنا ، فضلاً عن ذلك ، فإن جينيت يعطينا دلائل نافعة ، فهو يشير إلى ميل القصص إلى استخدام استراتيجيات يسمّيها الادماج Paralipse وتجاهل العارف Paralepse، اي اخفاء بعض المعلومات عن القارىء ، كان يجب ـ استناداً إلى البؤرة الغالبة ـ ان يتلقاها ، وتقديم معلومات للقارىء كان يجب على مستوى التبئير الغالب ان يجعل من المتعذر الحصول عليها . جويس ـ فيما يبدو لي ـ كاتب يعتمد تجاهل العارف إلى حد كبير في (إيفيلين) وفي أعمال اخرى أيضاً . وهو يختار ، في هذه القصة ما يسميه جينيت بالبؤرة الداخلية الثابتة ، أي ان كل الافكار تمرُّ بالمصفى الذهني لايفيلين نفسها ، وتقدم في لغة تشبه إلى حد كبير لغتها الخاصة نحواً واداءً (برغم انّ هذه ، من هذه الناحية الفنية ، قضية صوت اكثر مما هي قضية منظور ، أو بالأحرى ، أن لغتـ «ها» قضية منظور ، أمّا لغتـ « ـه» ، أي الراوي ، فقضية صوت) . وفي اختيار ايفيلين بؤرةً انتقى جويس ـ كما في قصص

اخـرى كثيرة ـ عقلاً مركزياً ليس بالذكي جداً . وهنا يختلف كثيراً عن بروست وهنري جـيمس ، اللذين كانا يفضلان عقلاً كعقليهما في مركز عـملهـما . (هناك بعض الاسـتـثناءات ، كـما في (مـا كـانت تعـرفه مـيزي) ، ولكن يمكن القول انه حتى ميزي هي عقل جيمس ضمناً ، وهي مـغلفة بالتأكيد بصوت جيمسي غني) . لكن جويس فضلّ ، في قـصص (أهالي دبلن) منظوراً داخليـاً ثابتاً في ذهنٍ ما ، هو غير مأخوذ عن مـعـرفـة محددة باحـداث القصة ، بل محدود بصورة مطلقة بالتربية والذكاء .

تعطي هذه الاذهان المحـدودة بأوضـاعها المؤلمة ، القصص نكهتها السـاخرة والطبيعية أكثر من اي شيء آخر . وقد طرح هذا المنهج عـلى جويس مشكلة جمالية ، إذ ابتهج بحل معضلة تجاهل العارف ، أو بأنْ ينقل إلى القـارىء مـعلومـات أكـثـر مما تستدعيه الشفرة بمنظوره الذي يجب ان ينقل .

بلاغـيـاً ، مـتى نواجـه الادمـاج أو تجاهل العارف نكنْ في حضرة السـخـرية . وقـد لاحظنا في حـالة ايفيلين كيف تتجاوز بعض الافكار عن مـسـتـقـبلها في دبلن ، والطريقة التي تربط بها ، اقترانياً ، الافكار عن وحـشـيـة ابيـها وخبل امها وموتها ، دون ان تعترف بالربط المنطقي بينهما . وفي هذه الامثلة يقودنا جويس إلى صياغة استنتاجات تساعدنا في «بناء » القـصـة التي نقـرؤها . وبفعل من افعال الاستنتاج ، نكمل بعض اوضـاع ايفـيلين ، ونكون في الوقت نفـسـه قـادرين على استنتاج آخر مفاده انها تتخلص من هذا الذي استنتجناه . ويأخذ هذا جويس في اتجـاه مـا يـسـمـيـه رولان بـارت بالنص «الكتـابي» ، أو القـصـص

الحداثوي الذي يلزم القارىء بالمشاركة في خلق أحداثه ومعانيه . ولكنني أود القول انه يتوقف فجأة عن منحنا الحرية في بناء المعاني التي نتوخاها . فاستنتاجاتنا موجهة ، بلا إقحام ، ولكن بثبات ، في الطرق التي كنا نبحثها ، وسنستمر في بحثها .

ها ان النقاش يأخذنا إلى ما وراء نطاق منهج جينيت في التحليل القصصي ، ولكن لسبب وجيه جداً فمعالجته للصوت القصصي ، التي يوضحها فيما يخص بروست ، ليست بذات عون كبير حين نطبقها على جويس ، برغم انّ جويس واحد من اكثر الكتاب ارتفاع صوتٍ . وهذا لأن جويس يتأمل تحت عنوان الصوت ، القضايا التي تنطوي على العلاقة بين الرواة الذين يمكن تمييزهم ، وبين الحكايات التي يروونها فقط . وهذا النوع من تأثير الكلام الداخلي عند جويس ، الذي يروي فيه بصوت شخصية معينة ، في حين يرى الشخصية . بوصفها شخصاً ثالثاً ، يحدد نفسه بقول ما تدركه الشخصية ، ولكنه يستعمل هذا القول لنقل وجهات نظر راوٍ خفي غير مرئي ـ ولم يأخذ جينيت هذا الاحتمال بنظر الاعتبار بما يكفي ، ربما لانه يتضمن تفاعلاً بين المنظور والصوت ، وقد عانى جينيت المشاق للفصل بينهما . وفي الحقيقة فان رولان بارت هو الذي يقترب كثيراً من إعطائنا ما نحتاج اليه لاكمال تحليل نص مثل (ايفيلين) .

في (س / ز) ، وهو تحليل يستغرق كتاباً لقصة بلزاك (سارازين) يشق بارت طريقه إلى النص ، بتناول عدد قليل من العبارات والجمل كل حين ، مؤولاً هذه «الجمل السردية» Lexias ،

كما يسميها بحسب الطرق التي تولّد بها المعاني في خمسة نظم دالة أو شفرات ، وشفراته الخمس هي كما يلي :

١ ـ شفرة الفراسة ، أو شفرة الافعال التي يدعوها «أول غلاف للنص القرائي» ، والتي يعني بها ، بين أشياء أخرى ، انّ النصوص جميعاً سردية . وفي حين يبحث نقاد أكثر سلفية مثل أرسطو أو تودوروف عن الأفعال الرئيسية أو الحبكات ، يرى بارت (نظرياً) أنّ كلّ الافعال ممكنة التشفير ، ابتداءً من العملية المبتذلة في فتح الباب ، وانتهاء بمغامرة رومانسية . ويطبّق (عملياً) بعض مبادىء الانتقائية ، فنحن نتعرف على الأفعال ، لأننا نتمكن من تسميتها ، وفي أغلب القصص (أو النصوص القرائية عند بارت) نتوقع أن تكتمل الافعال التي بدأت ، وهكذا يصير أول فعلٍ أوّل غلافٍ لمثل هذا النص . (يحاول نظام التدوين الرمزي عند تودوروف أن يعزل هذا الغلاف الاول للدراسة) .

٢ ـ الشفرة التأويلية ، أو شفرة الألغاز التي تعبث برغبة القارىء في الوصول إلى «الحقيقة» لكي يجيب عن الاسئلة التي يثيرها النص ، وفي فحصه «سارازين» يسمّي بارت عشرة أوجه للتشفير التأويلي من التساؤل الاولّي أو إضفاء ثيمة على موضوع سيتحول إلى لغز ، حتى الانكشاف النهائي وفك مغالق ما كان حبيساً . ومثل شفرة الافعال ، فإن شفرة الالغاز عنصر بناء أساسي للسرد التقليدي . وفيما بين طرح اللغز وحلّه في السرد ، يضع بارت ثماني طرق مختلفة للاحتفاظ باللغز حياً دون الكشف عن حله ، بما في ذلك المراوغات ، والاحابيل ، والاجوبة الناقصة ،

إلى غـير ذلـك . وتهـيـمـن الـشـفـرة الـتأويليـة ، في بعض انواع القصص ، مثل القصص البوليسية ، على الخطاب بكامله ، وهي تشترك مع شـفـرة الافـعـال في التـعليق السردي لرغـبة القارىء في إكمال النص ، والانتهاء منه .

٣ ـ الشـفـرات الثـقافية ، وهي كثيرة . وتشكل إحالات النص لاشياء «مـعـروفـة» سلفـاً وقـد شـفّرتها الثقافة . ويرى بارت أن الواقعية التـقليـدية ينبـغي أن تعـرّف باحـالـتـها إلى ما هو معروف سلفاً . مـعـجم فلوبير في الافكار المقـبـولة هو انجـيل الواقـعية . وتشكل الـبـديهيـات والامـثـال فـي ثقـافـة أو مـا تحت ثقـافـة مـا شكائم مـشـفـرة أصـلاً يمكـن ان يسـتند اليهـا الـروائيون . وعـمل بلزاك مشفّر بهـذه الطريقة إلـى حـدّ كبير .

٤ ـ الشـفرات الايحائية . تحت هذه العنوان لا نجد شفرة واحدة ، بل شـفرات كثيرة ، ففي القراءة يضفي القارىء الثيمات على النص . ويلاحظ ان بعض ايحاءات الكلمات والعـبارات في النص يمكن ان تُضَمّ إلى ايحـاءات مـشـابهـة للكلمات وعـبـارات أخـرى . فما أن نتـعـرف عـلى «نوى مـشتركـة» للإيحاءات حتى نضفي على النص ثيـمـة . وما ان تتعلق عناقيد الايحاء باسم علم معين حتى نتعرف على شـخـصـية ذات صفات معينة . (من الجدير بالذكر أن بارت يعـد دلالة المطابقة آخر وأقوى دلالات الايحاء) .

٥ ـ الحـقل الـرمـزي ، هذا هو اكـثر اركان التشفير القصصي «بنيوية» أو بعـبـارة أدق ، أكـثرها ما بعد بنيوية في تقديم بارت . ويعتمد

على فكرة أنّ المعنى يأتي من التضاد أو التمايز الثنائي الاولّي ، سواء كان على مستوى تحول الأصوات إلى فونيمات في انتاج الكلام ، أو مستوى التقابل النفسي ـ الجنسي ، الذي يتعلم من خلاله الطفل انّ أمه وأباه يختلفان عن بعضهما ، وانّ هذا الاختلاف هو الذي يجعل الطفل متماثلاً مع أحدهما ومختلفاً عن الاخر في الوقت نفسه ، أو على مستوى فصل العالم الثقافي البدائي إلى قوى أو قيم متقابلة يمكن تشفيرها اسطورياً . وفي النص اللغوي يمكن تشفير هذا النوع من التضاد الرمزي بمجازات بلاغية مثل الطباق ، الذي هو مجاز أثير في نظام بارت الرمزي .

وما دام المكان والزمان غير متوفرين لجولة بارتية بطيئة في الجمل السردية في «ايفيلين» فسوف اقلب إجراءه واكتفي بوضع بعض العناصر من كل شفرة كما هي في نص جويس .

١ ـ *شفرة الأفعال (الفراسية) :*

في «ايفيلين» تمتد هذه الافعال من الفعل الاعتيادي نسبياً ـ (جلست) الذي لا يكتمل إلاّ بعد أربع صفحات بـ (نهضت) حتى الفعل النهائي بمغادرتها دبلن بحثاً عن الجيّد الذي لا يحدث بالطبع . فهذه قصة شلل ، هو شفرة ايحائية أساسية في جميع قصص (أهالي دبلن) . ومما لا يخلو من دلالة أننا لا نرى ايفيلين تخطو خطوة واحدة . حتى في ذروة المشهد الأخير توصف أفعالها بأنها «وقفت . . تشبثت . . . وضعت وجهها » . وتضفي هذه الصلابة

المتزايـــدة على الشفـــرة الايحائية ثيمـــة الشلل .

٢ ـ *شفرة الالغاز (التأويلية) :*

لا يعتـمد جويس كثيراً على هذه الشفرة ، وقبل كل شيء فهو لا يشعر بحاجة إكمالها ، فنحن نبدأ ببعض القضايا عن من هي إيفيلين ، ولماذا هي متـعبة وما أشبه ، ولكن ليس في هذا سر . وفرانك بالطبع هو اللغـز . ويخبرنا الخطاب شيئاً عنه ، لكنه لا يعـرض علينا سـوى افكار إيفـيلين عن طراز حيـاة فرانك . وهنالك أيضاً بعض الغموض حـول أم ايفـيلين ، وسـبب مـوتها ، والعـبارة الغامضة التي تفوهت بها، والتي لن يفك أحـد مـغاليقها . غير أن الخطاب لا يكمل أو « يحل » هـذه الاسرار . ومـثـل الـراهب الذي ذهب إلى ملبـورن، تقترح عـالماً غير مـسـتـغلق تمامـاً ، فـيما وراء الواقعية المريحة في الخطاب البلزاكي . ويجـبرنـا الـلـغــز الأخير ، أي رفض ايفـيلين الرحـيل على العـودة إلى النص ، وأن نخـرج إلى بقـيـة قصص (أهالي دبلن) للعثور على حلول لن يكون لها ضمان الحقيقة الأكيدة .

٣ ـ *الشفرات الثقافية :*

التـشـفير الثـقافي في هذه الحكاية ليس بقوة أي صوت سردي، أو الخطاب نفسه ، بقدر ما هو في أذهان الشخصيات ، يرى أبو ايفيلين فـرانك في ضـوء شفرة حكمة ابوية كلبية : «أنني أعرف أخلاق هؤلاء البحارة الشباب» .

وتـراه ايفـيلين مـشـفـراً بقـصص رومانسي : «كان فرانك لطيفاً جـداً ، وعطوفاً ، وطيباً » .

ويفند الخطاب كلتا النظرتين . انه يتجنب الاشارة إلى شفرات دبلن الثقافية التي تهيمن على حياة الشخصيات ، وأقوى هذه الشفرات شفرة الكاثوليكية الايرلندية التي تصنف فعل ايفيلين في عداد الخطايا .

٤ ـ الشفرات الايحائية

الشفرة الايحائية المهيمنة هي شفرة الشلل ، التي هي أهم عنصر في شخصية ايفيلين ، كما في العالم من حولها . ويشار اليها بسكونية ايفيلين على طول القصة . بل انها تظهر في بنية الجمل الرتيبة المملة ـ فاعل ـ فعل ـ خبر ، مراراً وتكراراً . وتدلّ عليها تفاصيل صغيرة مثل الوعود التي ابرمت لمارغريت ماري الأكاكيو المباركة ، التي كانت مشلولة عن أي فعل حتى ، نذرت أن تهُدي نفسها للحياة الدينية . وتقدم الطريقة التي علّقت بها حياة هذه السيّدة المبجلة على حياة ايفيلين مستوى آخر من الايحاء ، هو المستوى الساخر . ومن خلال الجمع الساخر بين الاشارات يقودنا الخطاب ، عن طريق تجاهل العارف ، إلى تكوين وجهة نظر في موقع ايفيلين ، خارج متناول ادراكها . فهي ترى نفسها ذات عزيمة وتصميم . لكنّ الخطاب يشير ، على نحو ساخر ، أنها لا خيار لها . فالاوصاف التي أحاطت بها أوصاف «دبلنية» في شفرة جويس ، والدبلني لا يستطيع اتخاذ قرار ، ولا يتمكن من الهرب . وكما عبّر «جاك القدري» بطل ديدرو ، فكل شيء مكتوب في الأعلى ـ وهذا ما نجده في نص جويس .

٥ ـ الشفرة الرمزية

التضاد الرئيسي عند جويس في (أهالي دبلن) ليس الذكر في مقابل الانثى ، بل الفاعل جنسياً في مقابل العاطل جنسياً ، ويعبّر عنهما في العادة كمتبتل في مقابل خليع ، وهو تضاد لا تربط بين طرفيه كلمة رابطة . والأموات فقط هم أهل الخصب والفحولة في أرض يباب جويس . في «ايفيلين» يوضع البحار فرانك في تضاد مع الاب بوصفه نداً لإيفيلين التي شغلت الفراغ الذي تركته أمها في البيت. وفي هذا التضاد الرمزي يقترن فرانك بالماء ، والحرية ، والمجهول، والمستقبل ، والفحولة الجنسية . منزل الاب يعلوه الغبار ، وايفيلين جارية فيه ، لكنه معروف ، ومتجذر في الماضي ، وغير ذي خصوبة . وكما انّ أباها عبد / زوجة ، ستكون ايفيلين عقيماً ، جدباء ، عزباء ، راهبة من نوع ما ، واحدة من أهالي دبلن . ويظهر هذا التضاد الرمزي بقوة اكثر من صراع دلالات الايحاء في جملة واحدة في المشهد الأخير حين ترى ايفيلين شبح الباخرة الأسود جاثيةً قرب الميناء وهذا الشبح الأسود ، عبارة وصفية بريئة توحي أيضاً بالقوة المدنسة للفعل الذي تفكر فيه ايفيلين هنا . انّ ركوب تلك الباخرة ، ومغادرة البر ، واقتحام البحر يعني مغادرة ما هو معروف وآمن ومشفر سلفاً ، يعني الاستهزاء بتعاليم الكنيسة ، وارتكاب الخطيئة ، وتتقابل العذراء الراهبة ، العزباء بأمان في داخل نظام التشفير الثقافي ، مع المرأة النجسة التي يغلي في جوفها الشبح الأسود على نحو كافر . لكن انظر عن قرب اكثر ، ففي تلك العبارة الوصفية المسالمة «جاثية في "Lyingin" » ايحاء دلالي آخر . فالفعل Lie in (تلزم المرأة فراشها عند الولادة) يعني انجاب طفل ،

يعني العطاء وتجاوز حالة العزوبية ، وليس أداء دور الأم أمام الأب ، بل الحلول محلها كليهما ، واطراحهما إلى الماضي . انه قبول بالحياة وتحسس مخاطر الموت . وتنشط هذه الايحاءات المستوى الرمزي للنص بإردافها الطباقات والمقابلات . وفي ذلك المجاز غير الاعتيادي : «تلاطمت كل بحار العالم في قلبها» يوحي الخطاب ان قلبها محاط بالسائل الامنيوسي (الذي يحيط بالجنين في الرحم ـ المترجم) قابلاً لأن يزخر بالحياة ومفعماً بخشية الغرق في الحياة نفسها أيضاً ، وقد سقط من القرار في أحابيل شخص لا تسمح لنفسها بالتعرف عليه أبداً .

آخر نظرة لنا على ايفيلين هي أنها مخلوق يعاني حالة حرمانٍ رمزي . وإذا كانت الشفرة الرمزية متجذرة في عمليات التعرف والبناء الأساسية ، فإن مدلول هذه الشفرة في نهاية «ايفيلين» ، مخلوق ضيّع عملياته الأساسية ، ليس فقط على مستوى الكلام واللغة ، بل حتى على مستوى الوظائف السيميائية الاكثر اهمية في ملامح الوجه وتعبيراته : «ادارت له وجهها الابيض الشاحب ، سلبية ، مثل حيوان لا حول ولا قوة ، ولم يكن في عينيها علامة حب أو وداع أو حتى معرفة » . وكيفما أوّلنا القصة ، فإن ما قصد لنا أن نفعله بالتأكيد هو ان ننظر بشفقة وخوف إلى وضع هذه الفتاة الشابة ، في حبسها الانفرادي المطلق ، غير قادرة على إعطاء « علامة » .

إيــفيلـيـن

قصة : جيمس جـويس

جلـسـت إلى جـوار النافـذة تتأمل المسـاء يجتـاح الشـارع . وقـد اتكأت برأسـهـا على سـتـائر النافـذة ، وأفـعـمت أنفـهـا رائحـة قماش الكريتون المغبر . لقــد كانت متعبة .

عبر بعض المارة ، واجتـاز الشـارع نزيل آخـر بيت فـيه . كانت تسـمع وقع خطاه تتردد على البـلاط الكونكريتي ثم تغـوص في حـصى الطريق المؤدي إلى المنازل الحـمـر الجـديدة . يومـاً مـا كـان هنا مـيدان تعـودوا ان يلعـبـوا فـيـه كل مساء مع بقية أطفال الحي . ثمّ جاء رجل من بلفـاست اشترى الميـدان وبنى فيه هذه المنازل ـ ليس كمثل منازلهم الصـغيرة القـاتمة ، بل منازل من القـرمـيد اللامع بسقوف براقة . كان أطفـال الشـارع قد تعودوا اللعب معاً في ذلك الميدان ـ أطفال آل ديفين وآل ووتـر وآل دن ، وكـيـــوغ الاعـرج الـصـغـير ، وهـي واخـوتهـا واخـواتهـا . أمـا أرنـسـت فلم يكن ليلعـب مـعـهـم ، لأنه كبر على اللعب ، وغـالبـاً مـا كـان أبوها يطاردهم في الميـدان بعـصاه الغليظة ، لكن كـيـوغ الصـغير كـان احياناً يظلّ يراقب الطريق ، وينادي عليهم حين يرى اباها قـادمـاً . ومع ذلك فـقـد كـان يبـدو أنهم أكثر سعادة حينئذ مما هم عليه الآن . لكن أباها لم يكن سيئاً بهذه الدرجة حينئذ ، وعـلاوة على ذلك كـانت أمـهـا على قـيد الحياة . لقد مضى على ذلك زمن طويل . وقـد كبرت وكبر اخـوتها واخـواتها . ومـاتت امـهـا . كما

مات «تيزي دن» أيضاً ، وعاد آل ووتر إلى انكلترا . كل شيء يتغير . وها هي الأخرى سوف ترحل وتترك بيتها كالآخرين .

بيتها ! . . دارت بعينها في الغرفة ، وهي تعاين اشياءها الأليفة التي ظلت تنفض الغبار عنها كل اسبوع سنواتٍ عديدة ، متسائلة من اي مكان في الأرض جاء كل هذا الغبار . ربما لن ترى مرة أخرى الأشياء الأليفة التي لم تكن تحلم بالانفصال عنها . ومع ذلك ، وبرغم هذه السنين الطوال ، فإنها لم تعرف اسم القسيس الذي اصفرت صورته المعلقة على الجدار فوق آلة الموسيقى العاطلة بجانب الصورة الملونة للوعود التي أُبرمت لمارغريت ماري الأكوكيو المباركة . كان أحد اصدقاء أبيها في المدرسة . وكلّما عرض والدها هذه الصورة على زائر ، كان يعلق بكلمة عابرة :

ـ انه الآن في ملبورن .

لقد قبلت بالرحيل ـ ومغادرة البيت . فهل كان قرارها حكيماً ؟ حاولت ان توازن بين جانبي المسألة. لديها في بيتها مأوى وطعام على أية حال ، ولديها اولئك الذين كانوا إلى جانبها طيلة حياتها ، بالطبع كان عليها ان تضنى تعباً في المنزل وفي العمل معاً .

ماذا سيقولون عنها في «المخازن» حينما يكتشفون انها هربت مع رجل ؟ سيقولون حمقاء ، ربما ، وسيمتلىء مكانها بالإعلانات . ستبتهج الانسة غالان ، التي كانت دائماً حادة معها خاصة حين تكون على مسمع من الآخرين .

ـ آنسة هل ، ألا ترين هاتيك السيدات في انتظارك ؟

ـ آنسة هل ، كوني أكثر حيوية .

لن تذرف الدمع مدراراً لفراق عملها في المخازن .

ففي بيتها الجديد ، في بلاد مجهولة قصية لن تكون على هذا النحو . سوف تتزوج نعم تتزوج ، ايفيلين ، وسوف يعاملها الناس باحترام حينئذ . لن تعامل كما عوملت أمها من قبل . وحتى الآن ، وبرغم انها تجاوزت التاسعة عشرة ، فإنها تخشى أحياناً من عنف أبيها . كانت تعرف انّ ذلك هو سبب وجيب قلبها . وحين كبروا لم يكن يستميلها ، كما كان يستميل هاري وأرنست ، فقط لانها فتاة . والان فقد بدأ يهددها ويتوعدها بأنه لا يتركها لولا أمها الميتة . أما الآن فليس لها من يحميها . فقد مات ارنست ، وهاري الذي يعمل في طلاء الكنائس دائم الترحال في البلاد فضلاً عن ذلك ، فقد بدأت شجارات مساء السبت حول النقود تثير مخاوفها بصمت . كانت تعطيها دائماً كلّ ما تحصل عليه من أجور ، ومقدارها سبعة شلنات ، وكان هاري يرسل دائماً ما يستطيع ، غير انّ المشكلة كانت الحصول على النقود من أبيها . كان يقول انها تعودت على بعثرة النقود ، وانها حمقاء ، وانه لم يعطها النقود التي حصل عليها بشق الانفس لتقذفها في الشوارع ، وغير ذلك كثير . فحالته غالباً ما كنت تسوء في ليالي السبت ، وفي النهاية يعطيها النقود ويسألها ان كانت تزمع شراء غداء يوم الأحد . وحينئذ كان عليها ان تهرع بأسرع ما تستطيع للتبضع ، ممسكة حافظة نقودها الجلدية السوداء في يدها بقوة لتشق طريقها وسط الزحام ، وتعود متأخرة إلى البيت وهي تنوء بحمل المؤونة . كان عملاً شاقاً ان ترتب المنزل ، وان ترعى الطفلين

الصغيرين اللذين تركتهما في رعايتها يذهبان إلى المدرسة بانتظام ، ويتناولان طعامهما بانتظام . كان عملاً شاقاً ـ وحياة شاقة ـ لكنها الآن وهي على وشك الرحيل لا تجدها بغيضة تماماً .

كانت على وشك ان تستكشف حياة أخرى مع فرانك . فرانك الوديع ، العطوف ، الطيب . وعليها ان ترحل معه على ظهر القارب الليلي لتصير زوجته ولتعيش معه في بوينس ايرس حيث ينتظرها بيتها الجديد . ما أنصع ما تتذكر المرة الاولى التي التقته بها . كان يقطن منزلاً في الشارع الرئيسي الذي تعودت ان تزوره . كأنه حصل قبل اسابيع قليلة . كان واقفاً عند الباب ، وقد دفع بقبعته إلى مؤخرة رأسه ، وقلب شعره إلى الامام على وجهه البرونزي . ثمّ عرف بعضهم بعضاً . تعوّد ان يقابلها خارج المخازن كل مساء ، وان يراها اثناء عودتها إلى البيت . واصطحبها لرؤية مسرحية «الفتاة البوهيمية» ، فشعرت بالفرحة تغمرها حين كانت تجلس في مكان لم تتعود عليه معه في المسرح . كان مغرماً بالموسيقى بصورة فظيعة ، والغناء إلى حد ما . وكان الناس يعرفون انهما يتغازلان ، وحين يغني لها عن فتاة أحبت بحاراً كانت دائماً تشعر بارتباك خفيف . تعود ان يناديها بوينز على سبيل الدعابة . في أول الأمر كانت متلذذة لأنّ لها صديقاً ، ثم بدأت تحبه . روى لها حكايات عن بلدان بعيدة ، حيث بدأ حياته كمنظف يعمل بدولار كل شهر على سفينة تابعة لشركة «خطوط ألان» تبحر إلى كندا . أخبرها عن اسماء السفن التي عمل فيها ، واسماء الخدمات المختلفة . كان قد أبحر عبر مضيق ماجلان . فروى لها قصصاً عن الباتاغونيين المتوحشين ، وقد استقرّ به المقام في بوينس آيرس ، كما قال ، فلم يزر بلده القديم إلاّ لقضاء العطلة .

وبطبيعة الحال ، فقد اكتشف أبوها أمرهما وحرّم عليها الاتصال به ، قال :

ـ إنني أعرف أخلاق هؤلاء البحارة .

وفي يوم من الايام تنازع مع فرانك ، فكان عليها أن تقابل حبيبها سراً بعد ذلك .

اشتدت ظلمة المساء في الشارع ، ولم تعد قادرة على تمييز بياض الرسالتين في حجرها . كانت احداهما لهاري ، والثانية لأبيها . كان ارنست أثيراً لديها ، غير أنها كانت تحب هاري أيضاً . وقد لاحظت ان السن تقدمت بأبيها أخيراً ، ولعله سيفتقدها ، أحياناً يكون في غاية اللطف . وحين لازمت الفراش منذ وقت قريب أخذ يقرأ لها قصص الاشباح ويخبز لها الخبز على النار . وفي يوم آخر ، حين كانت امها ما تزال على قيد الحياة ، ذهبوا جميعاً في رحلة إلى «هل هاوث» . وانها لتتذكر أباها يعتمر على رأسه قبعة امها النسوية ليضحك الأطفال .

كان الوقت يجري ، لكنها استمرت في الجلوس إلى النافذة ، مستندة برأسها إلى ستائرها ، وقد أفعمت أنفها رائحة القماش المغبر ، وترامى إلى سمعها من الشارع عزف أرغن . انها تعرف هذه النغمة . ومن الغريب ان تأتيها في هذه الليلة بالذات لتذكرها بالوعد الذي قطعته لأمها ، وعدها بأن ترعى البيت طالما كان ذلك في قدرتها .

تذكرت آخر ليلة من مرض أمها : كانت أيضاً في الغرفة الضيقة المظلمة في الطرف الآخر من الديوان ، ومن الخارج سمعت نغمة

ايطالية حزينة . أمروا عازف الارغن بالابتعاد ، واعطوه ستة بنسات . وانها لتتذكر أباها يتبختر عائداً إلى غرفة الأم المريضة وهو يقول :

ـ اللعنة على الايطاليين ! يصلون إلى هنا ! وأخذت تفكر بصورة أمها البائسة ، وحياتها التي طبعت كلّ وجودها بطابعها ، تلك الحياة الملأى بالتضحيات التي انتهت بها إلى الجنون التام . وارتعدت حين سمعت صوت أمها يردد باصرار أبله :

ـ دير يفاون سيراون ! ، ديريفاون سيراون !

ثم هبت واقفة ، وقد استبد بها الفزع فجأة . الهرب . ينبغي ان تهرب ، وسينقذها فرانك ، سيعطيها الحياة . وربما الحب أيضاً. لكنها ارادت ان تعيش .. لماذا ينبغي لها ان تشقى ؟ السعادة حق لها . سيضمها فرانك بين ذراعيه ، يحتويها بين ذراعيه ، سينقذها .

* * *

وقفت بين الجمع الحاشد في محطة «نورث وول» . وأمسك بيدها ، فعرفت انه كان يتحدث اليها وهو يعيد ويكرر شيئاً ما عن الرحلة . كانت المحطة ملأى بالجنود وامتعتهم الداكنة . ومن خلال أبواب الحظائر الواسعة لمحت شبح السفينة الاسود ، جاثية على رصيف الميناء بنوافذها المضيئة . لم تجب بشيء . شعرت ان خدها قد شحب ، وان القشعريرة تسري في أوصالها ، فابتهلت إلى الله ان يسدّد خطاها ويهديها إلى الواجب الصحيح . أطلقت الباخرة صفيراً طويلاً حزيناً شق الضباب . إذا ذهبت ، فستكون غداً في

عـرض البحر مع فرانك ، يبحران إلى بوينس آيرس . لقد حجز لهما مكاناً في الرحلة . فـهل بامكانها أن تعود بعد كل ما فعله من أجلها ؟ لقـد أيقظت تعـاستها الغثيان في جسدها ، فظلت تحرك شفتيها مرددة صلاة صامتة محمومة .

انقبض قلبها لرنين جرس الباخرة ، وشعرت به يمسك يدها :

- تعالـــــي !

تلاطمت كل بحـار العـالم في قلبـها . كان يسحبها اليها سحباً . كـان سـيـغـرقـهـا . تمسكت بكلتـــا يديها بالممرِّ الحديدي المؤدي إلى الباخـــــرة .

- تعالـــــي !

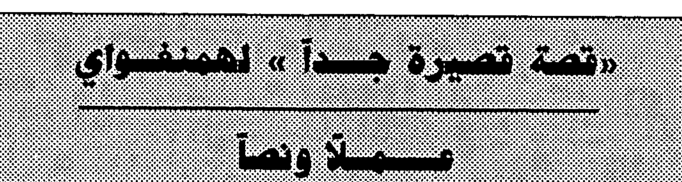
كـلا ، كلا ، كان أمراً مستحيلاً ، تشبثت يداها بالممر الحديدي بجنون . واطلقت وسط بحـار العالم صرخة عذاب !

- إيفيلين ! إيفـــــــي !

انــدفع من وراء الحـاجز وناداها لكي تتبعه . صرخ فيه الآخرون لكي يمضي ، ولكنه كـان ينادي عليـهـا . أدارت اليـه وجـهها الأبيض الشـاحــب ، سلبيـة ، مـثل حيوان لا حول له ولا قوة . ولم يكــن في عينيها علامة حب أو وداع ، أو حتى معرفـــــــــة .






«قصة قصيرة جـداً » لهمنغـواي
عـمـلاً ونصاً

لا تختلف الدراسة السيميائية للنص الادبي اختلافاً كلياً عن التأويل التقليدي أو التحليل البلاغي ، ولا تنوي ان تحلّ محل هذه الانماط من الاستجابة للأعمال الادبية. غير ان الناقد السيميائي يضع النص وضعاً مختلفاً إلى حدّ ما ، فيؤثر ابعاداً مختلفة من النص على سواها ، ويستخدم منهجية نقدية معدة للمشروع السيميائي . وإذ تؤثر أغلب المناهج التأويلية «معنى» النص ، فالنقاد التأويليون يبحثون عن المعنى القصدي أو معنى المؤلف ، والنقاد الجدد يبحثون عن مصادر غموض المعنى «النصي» ، ونقاد «استجابة القارىء» يسمحون للقراء بأن يولدوا المعنى ، يختلف وضع الناقد السيميائي فيما يخص المعنى ، لان هذا الناقد يبحث عن البنى النوعية التي تطلق المعنى وتقيده .

في ظل البحث السيميائي ، لا المؤلف ولا القارىء بأحرار في توليد المعنى . وبغض النظر عن حياتيهما كفردين فهما كمؤلف وقارىء تتخللهما شفرات تتيح لهما المغامرات الاتصالية على حساب تحديد الحدود للرسائل التي يمكن ان يتبادلاها . ليس النص الأدبي ، اذن بمجرد سلسلة من الكلمات ـ بل هو (كما أوضح رولان بارت في كتابه س/ز ، وان يكن بطريقة ليست بالضرورة نفسها) شبكة من الشفرات تتيح للعلامات على الصفحة ان تقرأ كنص من نوع معين .

في فك شفرات النصوص السردية يقوم المنهج السيميائي على أداتين بسيطتين . ولكن تحليليتين قويتين هما : التمييز بين القصة والخطاب من ناحية ، والتمييز بين النص والاحداث من ناحية أخرى . ويستند التمييز بين القصة والخطاب إلى ملاحظة اميل

بنفنست حـول امـتـلاك بعض اللغـات (ولا سيما الفـرنسية واليونانية) زمناً خـاصـاً بالفـعل المسـتخدم لسرد الاحداث الماضية . (انظر ترادف الازمـنة في الفـعل الفـرنسي ، الفـصل ١٩ من كـتـاب «مـشكلات في الألـسـنيـة العـامـة » . انــظر ايضـاً سيـمــور تشـاتمان ، (القـصـة والخـطاب) . هذا الزمن الماضي المبـهم aorist أو الماضي البـسيط Passé simple يـؤكـد عـلى الـعـلاقـة بـين الملفـوظ ، والموقف الذي يشير اليـه المـلـفـوظ بـين القـصص والاحـداث المروية ، وهذا ، بامـتـيـاز ، هو اسلوب النقل المكتـوب للاحـداث اي القـصة histoire ويقـارن بنفنست هـذا الاسلوب باسلوب الخطاب discours الذي يتم فـيه توكيد الاتصال الحـاضر بـين المـتـكـلم والمسـتـمع . الخطاب بلاغي وله صلة بالاقناع الشـفـوي ، اما القصة فمرجعية ولها صلة بالتوثيق المكتوب . الخطاب الآن والقـصة في ذلك الحين . القصة تتحدث عن هو وهي ـ والخطاب قضية أنا وأنت ـ أياك واياي .

إذن فـفي أي نص قصصي ، نستطيع ان نتبين بعض الملامح التي تخص القـصـة : روايات حـول الاحداث ، ذكر الازمنة والامكنة ، وما اشـبـه . ونسـتطيع ايضـاً ان نجد عناصر تخص الخطاب : تقييمـــات ، تـأمـلات ، لغـة تشف عن حـضـور المؤلف أو في الأقل الراوي الذي يخاطب المتلقي أو المروي له ،واضعاً في ذهنه هدفاً إقناعياً ، حين يقال لنا ان شـخـصـاً «ابتسم بقسوة» فيمكننا ان نستكشف المزيد عن القصة في الـفـعـل ، والمـزيـد عـن الخـطـاب في الظرف . وبعض النصـوص القـصـصـيـة ، مـثل قـصص د.هـ. لورنس ، مطردة إلى حد كبير . وحين نقـرأ قـصـة للورانس فإننا ندخل في عـلاقة شخصية مع شخص يشبـه مـؤلف المراسلات الخاصة بلورانس . وغالباً ما يبدو همنغواي ،

من ناحيـة أخـرى ، وقد بذل جهداً كبيراً لاخفاء الخطاب كلياً ، وهو جهد يتضح في «قصة قصيرة جداً» .

يرتبط التـمـييز بين القصة والخطاب بتمييز آخر يختلط به احياناً ، وهو التمييز بين الروي recite والحكي diegesis في الـسرد . ونـعني في هـذه الحـالـة ان نـمـيـز بـين النص الكامل للقص نصـاً من ناحـيـة ، والاحـداث التي تروى احـداثاً من ناحـية أخرى . ويمكننا ان نستعير الكلمـة الاغـريقـية ، الحكي diegesis للتـعـبير عن نظام الشـخصيات والأحـداث ، ونكتفي بتقريب الكلمة الأخرى بكلمة روي recital، أو نكتـفي بالإشارة إلى النص ، حين نعني الكلمات ، والحكي للتعبير عما يستحثنا على خلقه كقصص .

يمكن تحليل النص نفـسـه إلى مكونات القـصـة والخطاب ،ولكن يمكن النظر اليـه ايضـاً في ضوء علاقته بالحكي . واحدى خواص هذه النصـوص الاسـاسـيـة التي نفـهـمها كقصص انها تولد نسقاً حكائياً له اسـتـقلال مذهل عن نصه . بعبارة واضحة ، ما ان تُروى القصة حتى يمكن ان يُعـاد خلقـهـا على نحـو مـتـمـيـز بمجموعة جديدة كلياً من الكلمات اي في لغـة أخـرى . وما ينطوي عليه هذه الاستعمال عميق في التـحليل . ولنوضحْ بعض جوانبه هنا .

لا يسـتـمـد الحكي القصصي قوته من كلمات نصه فقط ، بل من الـثـقـافـة المـبـاشرة والموروث الادبي الذي ينتـمي اليـهما . ان الكلمات السحرية Once upon - a time(يقـابلهـا في العـربية : كان يا ما كان في قـديـم الـزمـان) تنتظم في حـركـة آلة ذات زخم بينّ لا يمكن انهاؤه إلا

باللازمة السحرية المقابلة They lived happilly ever after (ولم يـزالوا في الّذ العـيش واهناه) أو بما يماثلهـا . وليـست الاجـراءات الحكائية في السرد الواقـعي بأقل من هذه الحـاحـاً ، وتتـيح لنا «قـصة قصيرة جداً» ، في مـوضـعـها من النص الاكبر لهمنغواي (في زماننا) ، مع بعض الكلمات المفـاتيح ـ مـثل الاضـواء الكاشـفــة ، الواجب ، التنفـيذ ، الجبهة ، الهدنــة ـ ان نضـيف الافكار الحـاسمة لمستشفى عسكري ، وممرضة ، وجنــدي ، والحـرب العالمية الاولى التي يتطلبها الحكي .

وهـذا الاجـراء حـاسـم إلى حـدّ اننا يجب ان نتـوقف ونوضح مـا ينطـوي عليـه . فـالكلمات التي على الصـفحة ليست القصة . والنص ليس الحكي . القـصة ينشئها القارىء من الكلمات التي على الصفحة بعـمليـة استدلالية ، وهي مهارة يمكن تطويرها . ودور القارىء فيها هو بمـعنى مـا ابداعي اذ لا وجـود للقصة بدونه . ولكنه ايضاً مشروط بقـوانين الاسـتـدلال التي تضع حدوداً لشرعية انشاء القارىء للقصة . يـمـكن دون شك ، ارجـاع أي خـلاف تأويلي إلى «الكلمات التي على الصـفـحـة» ، غير ان هذه الكلمات لا تتحدث عن معانيها . وجوهر الكتـابة ، في مـقـابل الكلام ، يتـمثل في ان القارىء يتكلم بالكلمات المكتـوبة ـ الكلمات التي تخلى عنهـا الكاتب . والاحـساس القوي بهذا المـوقف هو الذي يدعـو إلى إضـافـة مختلف انواع «الملاحق» التي كـان يضـيـفـهـا الكتّـاب لكتبهم في الايام الاولى لظهور الطباعة ، فقد كانوا يشعرون انّ كتبهم كانت بكماء ويتحدث بها الآخرون .

في قـراءة السرد ، إذن ، نترجم النص إلى حكي باتبـاع الشفرات التي كنّا قـد تمثلناها . هذه هــي الطبيـعـة السرديــة لعـمليـة القراءة

العادية . وكما ذكّرنا إ. د. هيرش (في كتابه «فلسفة التأليف » (شيكاغو ١٩٧٧) ص ص ١٢٢ ـ ١٢٣) فانّ البحث في القراءة لما يدنو من قرن (بنيت وهنري عام ١٨٩٤، فلنبوم ١٩٦٦ ، ساشز ١٩٦٧ ـ جونسن ـ ليرد ١٩٧٠ ، لفلت وكبمين ١٩٧٥ ، بروير ١٩٧٥ ـ المراجع مذكورة في كتاب هيرش) قد كشف لنا انّ الذاكرة لا تختزن كلمات النصوص ، بل مفاهيمها ، ليس الدول بل المدلولات. وحين نقرأ نصاً سردياً ، فنحن نعامله ، اذن كحكي . ولو اعدنا رواية القصة ، فستكون بكلماتنا نحن . وإلى حدّ ما ، فإن التمييز بين الشعر والقصص مفيد هنا ، فهو يقوم على فكرة ان الشعر فخم ، ثابت الكلمات في النص ، ولذا فهو غير قابل للترجمة ، في حين انّ القصص اثبت طواعيته للترجمة إلى حدّ كبير لانّ جوهره لا يكمن في لغته ، بل في بنيته الحكائية . وكلما اقترب القصص من شرط الشعر ، ازدادت دقة كلماته اهمية ، وكلما تحرك الشعر صوب السرد ، قلَّتْ أهمية لغته الخاصة .

في قراءة القصص ، اذن نترجم فعلاً من النص إلى الحكي ، فنبدل الوحدات السردية (الشخصيات ، المشاهد ، الاحداث .. الخ) ، بوحدات لفظية (اسماء ، صفات ، عبارات ، اشباه جمل .. الخ) . ونقوم ببعض التغييرات الاخرى ايضاً ، فنحن ننظم المادة التي نتلقاها لكي يمكن تذكرها واستعادتها . وهذا يعني اننا ننسقها قدر الامكان ، وفي النسق الحكائي الذي ننشئه ، يجري الزمان بمعدل ثابت ، وتتم الاحداث بترتيب زماني متعاقب ، وللناس والاماكن صفاتهم المتوقعة منهم ، ما لم يقرر النص شيئاً آخر. وقد ينقل كاتب ما «برج ايفل» إلى شيكاغو ، لكننا ان لم يتم اخبارنا بذلك ،

سنفترض ان المشهد الذي يقع تحت ذلك البرج يقع في باريس - باريس التي أُعطيت كلّ المفردات المعطاة في نموذجنا الثقافي .

ان الأماكن والكيانات ذات اسماء الأعلام المعروفة (نابليون ، واترلو ، برودوي) تدخل الحكي المشفر في الثقافة . وسوف تُختزن الأحداث المنقولة في النص السردي - بما ينسجم مع الشفرة التركيبية التي تقوم على البنية الكرونولوجية (الزمانية - الترتيبية) . قد يقدم النص الاحداث التي تشكل قصة في اي ترتيب منغمراً وسط الاشياء in medias، أو متواصلاً معها من البداية إلى النهاية . غير انّ الحكي يريد دائماً ان يرتبها في سياق زماني ترتيبي . قد يمدّ النص دقيقة في صفحات كثيرة أو يطوي السنين في جملة واحدة لتحقيق غاياته ، غير ان الدقائق والسنين تبقى دقائق وسنيناً في زمن حكائي واحد . وبوجيز العبارة ، قد يناقش النص ما يختار ، ولكن ما ان يدخل الحكي في حركة حتى لا يعود في مستطاع نص ما ان يسيطر عليه . « كم من الأطفال كان عند الليدي ما كبث ؟ » ، ليس هذا مجرد تساؤل لمؤول ساذج ، بل هو تعبير عن حافز حكائي اعتيادي . وحيث يتلذذ الكتاب والنصوص بالمراوغة ، يبحث القارىء عن اليقين والخاتمة لإكمال النمو الحكائي للمواد النصية . ومن صراع المصالح هذا يأتي نوع من التوتر يستثمره كثير من الكتاب المحدثين .

يتناول السيميائي الحافز الحكائي لدى القارئ ويجعله أساساً للبناء . ويوفر منطق البنية الحكائية معياراً وهادياً لدراسة الستراتيجيات النصية . فيمكننا من استكشاف الحوار بين النص والحكي ، ويبحث عن مراكز القوة ، حيث يغير النص طرائقه من

اجل اقتياد المادة الحكائية إلى الغايات التي يريدها . وقد يتم العثور على مفاتيح لكل من العاطفة والقصد عند هذه النقاط . هل يعود النص على نحو تسلطي إلى حدث عرضي من التاريخ الحكائي ؟ هل يقاطع النظام الحكائي لينقل شيئاً مهماً يساعد في تحقيق غاياته الخاصة ؟ هل يحذف شيئاً يحسبه القصور الذاتي الحكائي مهماً ؟ هل يغير وجهة نظره إلى الاحداث الحكائية ؟ هل يخفي الاشياء ؟ هل يفرض التقييم من خلال بلاغة خطابه ؟ انّ العطالة الهادئة في العملية الحكائية التي يحركها ثقل الثقافة والموروث وحاجات الذاكرة نفسها ، تقدم أساساً ثابتاً لرسم خريطة الستراتيجيات النصية . وستكون اكثر نصوصنا امتلاء بالطموح الجمالي ، تلك التي تجد أن من الضرورة القصوى ان تطبع العملية الحكائية بطابعها .

تقدم «قصة قصيرة جداً »لهمنغواي نفسها بصفتها متكاملة على نحو استثنائي . ويبدو اسلوب همنغواي الاليف الذي سماه جيرار جينيت «سلوكياً » ، وهو يمحو ذاته فيقدم لنا محض حكي . يلتقي فتى بفتاة ـ لقاء فاتناً كما يقولون في هوليود ـ فيتحابان ويخططان للزواج، غير ان اندلاع الحرب يفصل بينهما . وأخيراً تتسبب في هزيمتهما قوى ضارية ، هذه هي القصة . أليست هي شريحة شبه ـ طبيعية من الحياة التي غالباً ما تبدأ مثل قصص الجنيات : «كان يا ما كان في قديم الزمان . . » وتنتهي بنفي صيغة قصص الجنيات : «لم يذوقوا بعدها طعم هناء العيش » ، النفي الذي يعلن عن الوضع الواقعي أو الطبيعي للنص ؟ ولكن هنا توتراً أصلاً بين الشكل المفتوح لشريحة الحياة ، وبين الخاتمة الرائعة لحكاية الجنيات ، يظهر بوضوح لو قارنا تطور الزمن الحكائي بحركة النص . ويمكننا القيام بذلك على نحو أوّلي بتفصيل ساعات الزمن الحكائي وأيامه وأسابيعه في مقابل

فقرات النص ومقاطعه . فأبطأ المقاطع هو الأول : ذات ليلة ، والثالث : رحلة إلى دويومو ، وأسرعها الرابع : الزمن الذي قضاه في الجبهة ، والسادس : زمن لوث في بوردينون . والسابع أو الأخير هو الذي يحمل لوث إلى نقطة اللانهاية مع كلمة «ابداً» .

هكذا يزيد السرد من سرعته باستمرار ويحقق ذروة تأثيره باستعمال الألفاظ غير المحددة في المقطع الأخير . لا بد أن النص اكتفى ، بسهولة بنقل حقيقة ان الرائد لم يتزوج «لوث» في الربيع ، ولكنه يشعر بضرورة أن يضيف « ولا في أي وقت آخر » ، تماماً مثلما هو مضطر إلى استعمال كلمة « أبداً » في الجملة التالية . وثمة شيء ما قصاصي يجري هنا . وكأن الخطاب يريد أن يثأر لنفسه من الشخصية ، لماذا ؟

قبل محاولة الإجابة عن هذا السؤال ، يجدر بنا أن ننظر في بعض الملامح الأخرى في علاقة النص / الحكي . منذ المقطع الأول فصاعداً ، يمكن ان نلاحظ ان لإحدى الشخصيتين في الحكي اسماً في النص ، فيما يشار إلى الثانية بضمير دائماً . لـمَ هذا ؟ نجد الجواب حين نربط هذا الجزء بملامح أخرى لعلاقة النص / الحكي . فالنص متكتم كما رأينا وكأنه لا يريد «ان يهذي خلال ذلك الوقت الثرثار السخيف» . غير انه متكتم بشأن بعض الاشياء اكثر من غيرها . ففي المقطع الاول ـ يتم تقديم شخصية الذكر في الجملة الاولى ، بينما تظهر لوث في المقطع الخامس . ونعرف حين تجلس على السرير انها «كانت ندية ونضرة في الليل الحار» . لماذا هذه المعلومة عن درجة حرارتها ؟ أنها هي الممرضة ، وهو المريض . وفي الحقيقة

فهذه المعلومة لا تخص ما تشعر به على الإطلاق ، بل تخص كيفية ظهورها له . ويصمت النص تماماً عن كيفية شعوره بنفسه ، برغم التلميح بأنه يجد برودتها جذابة ، اما كيف يبدو لها ، أو كيف تشعر ازاءه ، فقضايا غير ذات صلة . وهذا تكتم انتقائي . اننا نرى ذاتياً ما يراه (كما يوحي الضمير الشخصي) ، في حين نرى لوث على نحو اكثر موضوعية (كما يوحي اسم العلم) . وآخر تلميح في المقطع الأول يشير إلى انهما كانا يتبادلان الحب حينئذ هناك. غير ان النص المتكتم يحمل القارىء مسؤولية ردم تلك الفجوة الصغيرة في الحكي .

يمكن إقامة قضية وجهة النظر هذه التي يتبناها النص بوضوح اكثر باستعمال نوع من اختبار عباد الشمس الذي طوره رولان بارت . فلو اعدنا كتابة النص باستبدال ضمير الشخص الأول بضمير الشخص الثالث ، لأمكننا القول ما إذا كنا معنيين بما يسميه رولان بارت «النظام الشخصي» أو لم نكن ، اي القادمة ، أو قص الشخص الاول (انظر «مدخل إلى التحليل البنيوي للسرد» في «الصورة ـ الموسيقى ـ النص » ص ١١٢) . في حالة «قصة قصيرة جداً » حيث لدينا شخصيتان بضمير الشخص الثالث لهما نتائج متساوية بوضوح ، فيجب ان نعيد كتابة القصة مرتين لكي نعثر على ما نريد ان نعرفه . وفي الحقيقة تتم تسوية هذه القضية نهائياً بعد المقطعين الاولين اللذين اقدمهما هنا كاملين .

المقطعان الأولان من «قصة قصيرة جداً » بعد اعادة كتابتهما ، وقد تحول الضمير «هو» إلى الضمير «انا» :

«ذات مساء حار في «بادوا» حملوني إلى السطح فاستطعت ان اطلّ على المدينة من الأعلى . كانت السحب التي تقذفها المداخن تلتقي في السماء ، وبعد فترة من الزمن خيم الظلام وظهرت الأضواء الكاشفة وهبط الآخرون وأخذوا معهم الزجاجات ، فاستطعت انا ولوث سماعهم من الاسفل وهم في الشرفة . جلست لوث على السرير كانت ندية ونضرة في تلك الليلة الحارة .

بقيت لوث مدة ثلاثة شهور في الواجب الليلي . سرّهم ان يدَعَوها تقوم به ، وحينما أجروا العملية لي ، هيأتني لطاولة العمليات . وتبادلنا دعابة عن صديق أو حقنة . وقد بقيتُ تحت التخدير منتبهاً إلى نفسي حتى لا أهذي خلال ذلك الوقت الثرثار السخيف ، وبعد ان صرت قادراً على القيام بعكازتين تعودت ان أقيس حرارة المرضى حتى لا تنهض لوث عن السرير ، لم يكن هناك الاّ القليل من المرضى ـ وكانوا جميعاً على معرفة بعلاقتنا . كانوا جميعاً يحبون لوث ، وحين عدت ماشياً عبر الصالات فكرت ان لوث في سريري » .

المقطع نفسه ـ وقد تحول فيه صوت « لوث » إلى « انا » :

«ذات مساء حار في «بادوا» حملوه إلى السطح فاستطاع ان يطل على المدينة من الاعلى . كانت السحب التي تقذفها المداخن تلتف في السماء ، وبعد فترة خيم الظلام وظهرت الاضواء الكاشفة . هبط الآخرون وأخذوا معهم الزجاجات فاستطعت أنا وهو سماعهم من الاسفل وهم في الشرفة جلست على السرير . كنت ندية ونضرة في تلك الليلة الحارة .

بقيت مدة ثلاثة شهور في الواجب الليلي ، سرّهم ان يدعوني أقوم به . وحينما أجروا العملية له هيأته لطاولة العمليات ، وتبادلنا دعابة عن صديق أو حقنة ، وقد ظل تحت التخدير منتبهاً إلى نفسه ، حتى لا يهذي خلال الوقت الثرثار السخيف . وبعد أن صار يقوى على القيام بعكازتين ، تعود ان يقيس حرارة المرضى حتى لا أنهض عن السرير . لم يكن هناك إلاّ بقليل من المرضى وكانوا يحبونني ، وحين عاد ماشياً عبر الصالات ، فكرّ أنني في سريره » .

يتحول الضمير «هو» إلى «أنا» تحولاً تاماً أما «لوث» فلا يمكن تحويلها . وفي ثاني الصياغتين يدخل الشخص الأول الخطاب بفظاظة صادمة ، ما دامت الجمل السابقة عليه قد كتبت من وجهة نظر مريض ذكر . ويصير التأكيد أكبر في آخر جملة من المقطع الاول التي كتبت لكي تشير إلى الكيفية التي ظهرت فيها لنفسها ، غير أن الجملتين الاخيرتين في المقطع الثاني من ثاني الصياغتين اكثر استحالة ، لأنها مكتوبة بضمير الشخص الأول لكي تخبرنا كم كانت محبوبة ، ولتصف أخيراً ، افكاره عنها . في هذه الصياغة الثانية هناك توتر بين زاوية الرؤية والضمير الذي استخدمه الصوت . وفيها يفقد الخطاب تماسكه . لكن الصياغة الاولى متماسكة تماماً لأنها يتطابق فيها الصوت والرؤية . فهو السرد الذي يرويه لنا إلى النهاية . انّ قص الشخص الثالث في النص الاصلي هو قناع ، تنكرت به ذاتية زائفة ألبسه اياها النص لتحقيق غاياته البلاغية .

خطاب هذا النص ، كما قلت ، يمتاز بتكتمه ، غير ان هذا التكتم يقابله قدر معين من الثرثرة في الحكي . هو بالطبع ، لا يريد

ان «يهذي» لكنهما يريدان «كل شخص أن يكـــون على معرفة بعلاقتهما» . في الجملة إذن تضمين : فهـي التي تريد للاخبار ان تنتشر . وما من خطاب مباشر هنا على الاطلاق ، بل ان هناك مقطعين مكرسين للرسائل ، ومقطعاً لرواية النزاع الذي دار بينهما . هنا أيضاً التكتم يجاور الثرثرة . تكتب لوث له رسائل كثيرة ، وهو في الجبهة ، غير ان النص لا يقول انه كتب لها . رسائلها متكررة ومبالغ فيها . ان اسلوب الخطاب يصير هنا وعلى غير عادة متميزاً بكمال الانقطاع[1] Paratactic ـ حتى بالنسبة إلى همنغواي ـ حين تقدم رسائلها بصراحة ، «كـانت جميعهـا تتعلق بالمستشفى ، وكـم احبته ،وكيف يستحيل عليها ان تواصل حياتها بغيره ، ومدى وحشة افتقادها اياه ليلاً » . تكرار السؤال عن الكيفية ، والمبالغة في الاستحالة والوحشة ، وواوات العطف تكشف كلها عن اسلوب نثري غير موفق ، حتى دون الاقتباس المباشر . وفوق كل شيء ، فهي تشير إلى غياب التكتم الذي هو نذير شؤم .

لا يصُوِّر لنا النزاع في النص ، بل يُلخَّص لنا «الاتفاق » الذي يسببه ، جزئياً في الأقل ، وهو يأخذ شكل سلسلة من الشروط التي يجب ان يحققها لكي يتمكن من طلب يدها للزواج . ومن الغريب تصوير هذه الشروط لا بوصفها اشياء من «المفهوم» انه سيقوم أو لا يقوم بها فقط ، بل ايضاً بوصفها اشياء يريد ولا يريد القيام بها . فهو

(١) المقصود ترابط الجمل وترادفها بغير أداة ربط ، وهذا شيء قريب مما يسميه البلاغيون العرب كمال الانقطاع (المترجم) .

«لا يريد أن يرى اصـدقـاءه أو أيّ شـخص آخر في الولايات المتحدة . الحـصـول على وظيـفـة والزواج فـقط» ، ليس من الصـعب تخيل رجل يريد ان يتـجنب اصـدقـاءه ، وان يعمل وان يظلّ متزناً ليسترضي امرأة لكن الصـعب تخيل وجـود أي كائن بشري لا يريد ان يرى اصدقاءه أو أي شـخص آخـر بِـمَ لا يريد ؟ ولِـمَ أي شـخص ؟ يبـدو انّ النص يتـحـدث عن الحكي بطريقة غريبة جداً هنا . وهذا ليس مجرد تكتم ، بل سـخـرية ، وثمة تضمين قوي هو كونه مكرهاً ، ومضغوطاً عليه ، بل مـتـهماً في ذكـورته . ولم نسـمع شـيئاً عما إذا كانت هناك أية شروط مفروضة على لوث.

وأخيراً تصل منهـا آخـر رسـالة ، وفي نقلها يسمح النص بوضوح لإسلوب لوث النشـري بالاشراق مـرة أخـرى ، ويكتـمل بتكرار العبارة المرعـبـة عن المسـاواة بين «فـتى وفتاة» في علاقتهما ، والتشبيج[٢] المبالغ فـيـه بجمال في عـبارة «توقعت على نحو غير متوقع تماماً» . ان سلوكها يناقض كلماتها . فـرعبها الحقيقي ، الذي كشف عنه النص المتكتم فيما سبق ، يتوهج هنا حين يكمل خطابها الشائن سلوكها الغادر .

لكن كـيف تصرّف حين كـانت تكتشف امجاد الحب اللاتيني ؟ لم يقل شيئاً Nihil dixit هنا يحتـفظ النص بما نسـتطيع أن نراه الآن بوضوح بـوصـفـه تـكـتماً رجـولـيـاً على نحـو خـاص . فـهل شرب ؟ هل رأى اصـدقــــــــــاءه ؟ أو أي شـخـص آخــــر ؟ هــل أراد أن يراهم ؟

(٢) التشبيج تعريب مقترح لكلمة cacophony ، تنافـر الأصـوات في الكلمة أو العبارة ، وقد عدّه البـلاغيون العرب جزءاً من المعاظلة . (المترجم) .

لسنا نعـرف . لكننا نعـرف ، فـضـلاً عن ذلك ، طيشـه في سيـارة الأجـرة في مـتنزه «النكولن» والنتيـجة التي ترتبت عليه . أن النص هنا كـريم ورجـولي إلى درجـة التصريح بذلـك بالطبع . لكننا نعرف أيضاً انّ هــذا خطأ لوث ، وليس خطأه . فـقـد أصـابت صميم قلبه ، ثم «بعـد فترة من الزمن » أصابته هذه الفتاة البائعة في مكان اكثر حيوية . هنا يتركـهما الخطاب كليـهما شـقيين ،لكنه يجعل لوث المسؤولة بصراحة عن هذا الشقاء .

فما الـذي يجعله الخطاب منه ؟ المريض طبـعـاً . انه دائماً مـغلوب عـلى أمـره ، فـهــو يُـحـقن ، وتُـجـرى له عـمليـة ، ويرسل إلـــى الجـبـهـة ، ولـيس إلى الوطــن ، ولا يريد شـيئاً ، ويقـرأ الرسـائل . جـريح في البـداية ، وجـريح في النهـاية ، ضحية امريكية : مهذب ، مـتـكـتـم، لا فـعـل له سـوى انتظار مـصـادفـة . من الملوم إذا ظلت مصادفاته تأخذ شكل نساء ؟ حقاً من ؟ خطاب من هذا ؟ قصة من ؟ عـالم من ؟ بالطبع عـالم همنغـواي الذي علّم أجـيالاً بكاملها من القراء الذكور ان يستعدوا لعالم قد يكون الرجال فيه اصدقاء لك ، اما النساء فهنّ بالتأكيد حقنٌ .

تترك القـصـة بطلها جريحاً جرحاً جنسياً ، بالمعنى الحرفي ، نتيجة اتصـاله بامـرأة . ومن السرير في «بادوا» حـتى مـقـعـد سـيـارة الأجرة الخـلـفي في مـتنزه لنكولن يحُمَل بطلنا من جـرح إلى جـرح. لم نسـمع نـبرات صـوتــه ، ولا تنغـيم نثـره ، ولا ينبـغي لنا . النص يتـحـدث مـعــه . صـوت النص صـوته ، وتكتم النص تكتـمه ايضاً . وبهذا . يجب ان ننظر مرة أخرى إلى فقرة في المقطع الثاني :

« تبادلنا دعابة عن صديق أو حقنة ، وقد ظلّ تحت التخدير منتبهاً إلى نفسه حتى لا . . . » .

لسنا ندري حتى هذه النقطة في الجملة الثانية ان هناك تغيراً عن ذلك الموضوع الذي انتهت به الجملة السابقة . ولغة الاحتباس الفموي تتطابق تماماً مع لغة الاحتباس الشرجي . الثرثرة Logorrhea والاسهال diarrhea كلاهما مربك . والحقن enemasعدو محتقن بالعداوة enemies[٣] والهذيان باي شيء في ذلك الوقت الثرثار السخيف لا يقل سوءاً عن الافراغ المجاني من القناة الهضمية . وكما قال همنغواي في مناسبة أخرى «اذا تحدثت عن شيء ، فقدته » .

المسألة الجوهرية في هذا النقاش انّ النص يكشف المبدأ الذي يختفي وراء أسلوبه النثري المتكتم من خلال الكشف عن محنة حيادية ومساوية في فكرة الافراغ المفرط لمادة كلامية أو برازية . انه اسلوب احتباس شرجي اذن بطريقة حرفية مذهلة . ومن خلال هذا الاسلوب يقدم لنا النص درساً عن المرأة . فلوث في البداية تعطي البطل المحتبس حقنة بالمعنى الحرفي للكلمة ، ثم تؤنثه مجازياً وتمسخه إلى امرأة ، بجعله يتنكر للكحول والأصدقاء وكل متع الحياة . وتطلق الفتاة بائعة المواد الكهربائية رصاصة الرحمة الحرفية على قدراته الجنسية المتضررة مجازياً .

ما دمنا بلغنا هذا الشأو في التحليل السيميائي ، فيمكننا ان نبدأ

---

(٣) في الكلمات جناسات لا يمكن نقلها الى العربية الا تقريباً . والجدير بالذكر ان المؤلف اغفل جناساً آخر في تحليله يشترك مع الثرثرة والاسهال في شكله اللغوي والتأويلي . وهو السيلان gonorrhoea الذي هو ايضاً انفلات احتباس يصاب به البطل في آخر القصة - (المترجم) .

بتميزه تميزاً ادق عن تأويل النقد الجديد . وينبغي ان نبدأ بالاقرار بانّ المنهجين يشتركان بعدد من الايماءات التأويلية . وينبغي ان نعترف أيضاً انه ما من تحليلين سيميائين أو تفسيرين ينتمان إلى النقد الجديد يمكن ان يكونا في حالة مطابقة . ويمكن ارجاع الاختلافات الاساسية بين هذين المنهجين النقديين إلى مفاهيمهما المختلفة عن موضوع الدراسة : فهي عند النقد الجديد ، العمل ، وعند السيمياء النص . و «قصة قصيرة جداً » من حيث هي عمل ينبغي ان تعدّ عملاً مكتملاً ، موحداً ، اخذ شكل موضوع جمالي ، أو ايقونة لفظية . والنتائج التعليمية التي ينطوي عليها هذا الشيء مسألة مهمة .

ان الطالب الذي يؤول «قصة قصيرة جداً » من حيث هي عمل ، موضوع في موضع مثير . فهذه القصة ، مثل كثير من قصص همنغواي الأولى ، تقدم شخصية الذكر على نحو ايجابي ، وشخصية الانثى على نحو سلبي . وفي الحقيقة فهي تنطوي على اشياء ايجابية عن الذكورة وأشياء سلبية عن الانوثة . وتقوم بذلك كما اوضح تحليلنا السيميائي ، من خلال تصوير بعض السمات الخاصة ببنية قيمة . الخطاب يدعم شخصية الذكر ، الطيب ، الوفي ، الكتوم ، من خلال منظور الشخص الاول الخفي ، ومن خلال اشتراك اسلوبه بالدعوة لهذه القيم . اما المرأة السيئة ، الخائنة ، المهذارة ، فمنبوذة . حتى وجهة النظر الثابتة بعناية تنتهك في المقطع الاخير ، وبذلك يتتبع الراوي أثر لوث إلى الأبد ، ليطمئننا انها لم تتزوج من الرائد لا «في الربيع ، ولا في اي زمن آخر » . غير ان سيطرة همنغواي على نصه ، هي في اغلب الاحوال ، كبيرة إلى حد تحول الغضب في لبّ القصة

إلى ما يمكن ان نعده نثراً صقيلاً بارداً للفنان اللاشخصي الخالص .

هنالك بلا ريب غضب وراء القصة سنعيره بعد قليل انتباهنا . اما الان فينبغي ان نمضي في متابعة الطالب الذي واجه هذه القصة في صورة «عمل» يجب تأويله . ومفهوم «الطالب» واحد من التجريدات المتعالية التي نقبلها في أول فرصة سانحة ثم غالباً ما نندم على هذا القبول . ونستطيع ان نبدأ بتفكيكها حيث نذكر أنفسنا أن الطلاب جنسان . ويقرأ الطلاب الحقيقيون هذه القصة بطرق مختلفة . فيتعاطف أغلب الذكور مع البطل ، وينتقدون لوث انتقاداً شديداً كما يريد لهم الخطاب تماماً . بينما تحاول كثير من القارئات الإناث أن يقرأن القصة متعاطفات مع لوث ، وموجهات اللوم إلى الأحداث على «ضعف » الشاب ، أو وضع العالم . وهذا تأويل ممكن ، غير أنّ النص لا يؤيده . وهكذا فانّ على الطالبة الانثى إمّا أن «تسيء قراءة »العمل (اي انها يجب ان تقدم أضعف التأويلين تأييداً) أو أن تقبل صفعة أخرى لإحترامها لذاتها من حيث هي امرأة . فإذا ووجهت المرأة بهذه القصة في صف تنافسي ، تعرضت إلى وضع حرج . لأنها ستكون ، في الحقيقة ، في قيد مضاعف .

الراوي من خلال معايير النقد الجديد ، لا شخصي وموثوق . الكلمات على الصفحة هي كل ما لدينا ، وهي تحدثنا عن امرأة ثرثارة خائنة لم تكن تستحق حب شاب وفي . وقد اقترح التحليل السيميائي بديلاً عن هذه النظرة . اذ حين يُنظر إلى هذه القصة بوصفها نصاً يقدّم حكياً ، فانها تكون بعيدة عن الإكتمال بمعنى أن هناك فجوات في الحكي ، وتكتماً في النص ، واستعمالاً متضارباً إلى حد كبير لسرد

الشـخص الأول الخفي . في النص علامات غضب وتوق إلى الانتقام توحي ايضـاً ، لا بوجـود مـؤلف لا شخصي عليم ، بل انسان منحاز مـتصدع ـ مثل سواه من الناس ـ فيما وراء الكلمات على الصفحة .

وبوصـفـهـا نصـاً ، تشير هذه القـصـة إلى نصـوص أخرى : إلى حـكـايات الجنيـات بغير تحـديد ، وإلى قـصص الخـديعـة الأخـرى ، (مـثل ترويلوس وكـرسـيـدا ، التي يؤدي فـيها ديوميديز الاغريقي دور الـرائد الايـطالي) ، والى القـصص الأخـرى التي تحـيط بها في كـتـاب همنغـواي «في زمـاننا» . غير انها يجب ان ينظر اليـهـا بوصـفها نصاً بين مجمـوعـة مـعـينة من النصـوص التي كـتـبـها همنغواي والتي تقدم مادة حكائيـة مـشـابهة جـداً . واذا اتبـعنا ترتيـباً زمانياً ـ تاريخياً ، فانّ هذه الحـكـايـات هـــي مخـطـوطـة بعنوان «شـخصي» (انظر : مخطوطات همنغـواي ، بنسلفـانيـا ١٩٦٩) ، والفصل العاشر من كتابه «في زماننا» (طبـعـة باريس . عام ١٩٢٤) ومسودات مختلفة لرواية طبعت فيما بعد بـعنوان «وداعـاً ايها السـلاح » عـام ١٩٢٩ . كل هذه النصـوص تولد حكايات تركـز على ممرضـة في مـستشفى ايطالي ، ويمكن توليد حكي آخـر أيضـاً من رسـائل همنغواي ، ومن مختلف النصوص الأخرى ، بما في ذلك المقـابلات مع المشاهير . في كل هذه النصوص يلتقي شاب في التـاسـعـة عشرة من العـمـر يعـمل في الصليب الأحمر الأمـريكي اسمه آرنست همنغـواي بمـمـرضـة في الصليب الأحمر اسمها آغنس حنه فون كـوروفـسكي ، وهي امرأة أمريكية في السادسة والعشرين من العمر ، في مـسـتـشفى في ميلانو ، فيتحابان ، تدعوه «صغير» ويدعوها السيدة «صـغـيرة» . وحـين تـتطوع للخـدمـة في فلورنسـا ، خـلال تفشي نزلة الانـفلونزا ـ يكتب لها رسـائل كـثيرة . (يقـول كـارلوس بيكر في كـتـابه

«آرنست همنغـواي ، نيـويورك ١٩٨٠ ، ص٧١» : كان يكتب لها كل يوم احـيـاناً رسـالتين في اليـوم الواحـد ، وكـانت تجيب متى اتاحت لها واجـباتها الكثيرة) . ويستمران في المراسلة ، حين تنتقل إلى «تريفيسو» بالقـرب من «بادوا» لتقـدم العون في معالجة وبـاء آخر . ويتجول هو في ايطاليـا ، لكن جـراحـه تمنعـه من العودة إلى الجبهة . ويرى اغنس قـبل رحيله من ايطاليـا إلى الولايات المتـحـدة بزمن ، ويصف إحـدى هذه الزيارات في رسـالة إلى صديقه «بل سميث» :

«لـكـن أنـظـر أي نوع من الفـتـيـات لديّ : أسرفت مـؤخـراً في الـشرب ـ حـوالي ١٨ قـدح مـارتـيني في يوم واحـد ـ وقـبل أربعـة أيام تركت المسـتـشـفى وركـبت عـلى ظهـر شـاحنة لمسـافة ٢٠٠ ميل عن الجـبـهة ، متغيباً دون اجازة رسمية لأزور بعض الاصدقاء .

وذهبنا في السـيـارة العـسكرية إلى تريفـيـسـو حـيث تعمل السيدة (آغنس فـون كـوروفـسكي) في المسـتـشـفى الميـداني . هل كـانت قد سـمعت بشربي للكحول ، ولم تلق على مسمعي محاضرة ؟ لم تفعل .

قـالـت : «يـا صـغـير انـنا سنكــون شركـاء ، لــذلك إذا كنت سـتشرب ، فـسأشرب أنا أيضـاً ، وبالكمية نفسها » . وجاءت ببعض الـويسكي اللعين ، وصـبت منه شراباً صرفـاً ، ولم تكن قـد شربت من قـبل اي شيء سـوى الخـمـر ، وانا اعـرف ماذا يعني النبيذ لها . لكنّ ذلـك اوقـفـني في الحـال . انها لفـتـاة ، يا بلْ ، وأنا أشكر الله انني أُصـبـت لألتـقي بها . وبرغم انني لا اسـتطيع ان أرى بوضـوح مـا تـراه، فـأنـا ارى بـشيء مـن قـصر البصر ، انها تحبني يا بلْ . لذلك سأعـود إلى أمـريكا وأبدأ بالعمل الجاد . تقول اغ (اغنس) اننا سنتمتع

بوقت رائع ما دمنا فقيرين ، ويمكن تدبر امر فقرنا عدة سنوات مع بقائنا سعداء بشكل عام . ولذلك فان قصارى ما استطيع الآن هو طلب حد أدنى من العيش لشخصين وارتب ستة أسابيع أو نحوها بها يكفي في الشمال ، وأطلب منك اسداء خدمة لي كمرافق للعريس (best man). لماذا يا رجل ، لدي فقط خمسون عاماً ولا أريد ان أضيع منها سنة ، في حين أن كل دقيقة تمر دون ان اكون معها تضيع . » . (كارلوس بيكر ، ارنست همنغواي : الرسائل المختارة ، ١٩١٧ ، ١٩٦١ نيويورك ، ١٩٨١ ص ٢٠) .

حين يغادر ارنست ايطاليا من «جنوا» في كانون الثاني ١٩١٩ لم تحقق العلاقة بينهما اتصالاً جنسياً (استناداً إلى ما تقوله اغنس كوروفسكي نفسها ، والحكم الفاصل لميشيل راينولدز ، الذي ينقلها في كتابه «حرب همنغواي الأولى » (برنستون ١٩٧٦) وكارلوس بيكر الذي يناقش هذه الأحداث في كتابه «ارنست همنغواي : سيرة وحياة» (نيويورك ١٩٦٩) . وفي الواقع يعود همنغواي إلى الوطن معتقداً انه حصل على وظيفة تذلل صعوبة حياة شخصين ، لأن اغنس سوف تعود وتتزوج منه . ولا يمكن تحديد ما كانت تفكر فيه في ذلك الحين .

في الوطن التقى ارنست كثيراً من اصدقائه ، وحضر الكثير من الحفلات ، وبعد احدى هذه الحفلات في بيت والديه تعثر همنغواي واخته الكبرى وهما يغلقان باب المنزل بجسدين لصديقين غائبين عن الوعي لشدة السكر . فيتفقان على انّ الاحتفالات الايطالية قد زادت عن حدها . كان ما زال بلا وظيفة منتظمة حين وصلته رسالة من

اغنس في اذار ١٩١٩ . وهذه هي الكيفية التي تصف بها اخته مارسيلين وقع الحدث عليه : «كان ارني ينتظر البريد أياماً . وكان في انتظاره مهتاجاً وحاداً . ثم وردت الرسالة وبعد ان قرأها ذهب إلى السرير ، واعتلت صحته مرضاً . في البداية لم نعرف ما الذي جرى لارني . لم يكن متجاوباً مع العلاج الطبي ، فأصيب بالحمى . كان ابي قلقاً عليه . ذهبت إلى غرفة ارني لارى ان كان في قدرتي في تقديم العون له . فقذف ارني الرسالة في وجهي . وقال لي من أعماق حزنه : ـ

ـ اقرأيها . كلا سأخبرك

ثم استدار بوجهه إلى الحائط واعتراه المرض جسدياً عدة ايام ، لكنه لم يذكر الرسالة مرة أخرى .

لم تكن آغ لتعود إلى امريكا . كما اخبرني ارني ، بل ستتزوج رائداً ايطالياً بدلاً من ذلك .

تحسنت صحة ارنست بعد فترة من الزمن ، وعاد باصدقائه مرة أخرى (مارسيلين همنغواي «مع آل همنغواي » بوسطن ١٩٦٢ ص ١٨٨) .

وفي نهاية نيسان استرد عافيته بما يكفي للاستهزاء بوضعه في رسالة إلى زميل في الصليب الأحمر : «انني رجل حرٌ . وهذا يشملهن كلهن بما في ذلك اغنس ، يا الهي لم تعتقد يا رجل انني سأتزوج واستقر ، أليس كذلك ؟ (بيكر ، الرسائل المختارة ، ص ٢٤) . لكنه قبل ذلك كان قد كتب إلى ممرضة أخرى من ايطاليا ، هي إلزي مكدونالد ، «يخبرها الأخبار مضيفاً اليها انه حين نزلت اغنس إلى الأرض في ميناء نيويورك عائدة إلى الوطن ، تمنى لو انها تتعثر على

الرصـيف ، فتقتلع كل اضراسها الأمامية » (بيكر ارنست همنغواي ص ٨١) .

وفي حـزيران تلقى رسـالة أخـرى من اغنس تخبره فيها ان العائلة الارسـتـقـراطيـة لصـديقها الملازم الإيطالي (هذه هي رتبته الحقيقية) قد حـرّمت عليـهما الزواج ، لذلك فإنها سـتـعود دون ان تتزوج . ولم يرد ارنست على هذه الرسـالة ، لكنه كـتب لصـديق في وحـدة الإسـعاف عنها : ـ

«تلقـيت أمس رسـالة حـزينة جـداً من اغ بعـثتها من روما . لقد تخاصـمت مع صديقها الرائد ولقد استبد بها الغضب ، وتقول انني لا بدّ أن أشعر بالإنتقام لما فعلته بي .

يا للصـبيـة البـائسة اللعينة . انني آسف عليها بحق . لكنني لا أستطيع فـعل شيء . لقـد أحـببـتـها ذات يوم ، فخدعتني ، ولست ألـومـهـا . غير أني قـررت أن أكـوي ذكـراها واحـرقـهـا بالمرح الدائم والـنـسـاء الأخـريات وقـد انتـهى الان كل شيء » (بيكر ، الرسـائل المختارة ، ص ٢٥) .

لم تنته بعـد هذه الحكاية التي نؤلفـهـا من نصوص مختلفة . فهي تسـتـمـر زمناً آخـر . وبعـد ان يتـزوج آرنست من امـرأة بعـمر آغنس وينتقل إلى باريس ، معتمداً في عيشه على دخلها تقريباً ، يكتب رسالة ودية إلى آغنس ويتلقى منهـا رداً ودياً في كانون الأول ١٩٢٢ .

«لـقـد كـان في الـطريقـة التي انتـهت بها رفـقـتنا بعض المرارة كما تعـرف . . على أية حال ، لقد كنت اعرف دائماً انها ستعود إلى مجراها الصحـيح في النهـاية . وانك سـتـدرك انها أفـضل الطرق ، ويجب ان تقـتنع بانّ مما يّهون الامـر عليّ انك متزوج من هادلي» (بيكـر : آرنست همنغواي ، ص ١٣٦) .

بعد شهور قليلة يكتب مخططاً لمجموعة من الصور القلمية التي ستنشر عام ١٩٢٤ بعنوان « في زماننا » ، وقبل ان يسلم النسخة النهائية إلى مطبعة «الجبال الثلاثة » في باريس (تاريخ التأليف غير معروف) كان قد بدأ بكتابة مسودة بعنوان (شخصي) . وتوجد منها نسخة بقلم الرصاص في اوراق همنغواي . ويذكر الدليل الذي أعده فيليب يونغ وتشارلزمان لمخطوطات هنغواي انها تبدأ بالكلمات الآتية : «ذات مساء حار في ميلانو حملوني إلى السطح » (مخطوطات همنغواي ف ١١) ، امّا في المجلد المطبوع ، فقد أعيدت كتابة هذا المخطط في ضمير الشخص الثالث ، وظهرت بوصفها الفصل العاشر من كتاب «في زماننا» متطابقة مع ما نعرفه الآن تحت عنوان «قصة قصيرة جداً » . غير انّ الممرضة تدعى « آغ» بدلاً من «لوث» والمستشفى في ميلانو بدلاً من بادوا . وبايجاز يمنحنا هذا النص حكاية اقرب إلى الحكاية التي نستطيع تأليفها عن همنغواي نفسه استناداً إلى الرسائل والوثائق الأخرى من النسخة المتأخرة عنها ، وحين تمّ ترتيب الطبعة الأمريكية من « في زماننا» وضعت الصورة القلمية الأصلية الصغيرة «في زماننا» لكي تفصل بين القصص الاطول في المجلد الجديد وبين مجموعتين أصليتين كانتا في طور الاعداد لترقيا إلى مصاف القصص . بهذه الطريقة صارت الصورة القلمية العاشرة «قصة قصيرة جداً » وتحولت «آغ» إلى «لوث» « وميلانو » إلى «بادوا» . لقد اجريت التغيرات لتجنب مظاهر التشهير الممكنة لأن «آغ» تشهيرية فهي اختصار لـ « آغنس » كما يقول هنمغواي (مناقشاً طبعة عام ١٩٣٨ من قصصه الكاملة . انظر :بيكر ، الرسائل المختارة ص ٤٦٩) .

لكنّ همنغـواي كـان ما يزال يفكر بهذه الحادثة ، فبدأ رواية بعنوان «برفـقـة الشباب » خطط ان يتابع البطل نيك آدامز في مغامراته كسائق اسـعـاف «في قـصـة حـب مـع ممرضـة تدعى آغنس » بيكر : آرنست همنغـواي ، ص ١٩١) . توقـفت هذه المخطوطة عند الصـفحة ٢٧ ، حين كان نيك في قطعة نقلية تتقدم إلى اوربا : لكن همنغواي استمر في التـفكير بهذه الحـادثة عن شبـابه حـتى حّول أخيراً آغنس إلى كـاترين باركلي وأقـرها بطلة في روايتـه «وداعاً ايها السلاح» .

إذا كـثـرت النصـوص ، كثرت الحكايات . فما الذي نستطيع ان نقـوله عنهـا ؟ قـبل كل شيء من الواضح اننا غير معنيين بفنان حيادي يؤلف شـقـائق جماليـة مـتـشـابهة هنا ، بل بإنسان عنيد يحاول أن ينتج نصـوصـاً تشق طريقـهـا دون اعتراض كأعمال ، مـعتمداً في مادته على اكـثـر وقـائع حيـاته ألماً . وما الذي يجب ان نفعله ، كمؤولين ، عند تغيير مكـان الحكاية من ميلانو إلى بادوا ، ما دام لم يتغير شيء آخر ؟ لكل مـدينة ايطاليـة كنيـستها ، واسم بادوا أو ميلانو موجود لكي يولد بخـصـوصـيـتـه الواضـحـة «اثر الواقع » كما يدعـوه رولان بارت ، وان يكن الاسم الدقـيق للمـدينة غير مـهم . للحكاية القـصـصـية بالطبع رواؤها الذي نادراً مـا تمتلكه الواقـعـة الخارجية ، وشبقها الذي يمتد إلى مـا وراء الاحـداث التي ينشأ عنهـا ، وبالامكان الآن مـلاحظة الحاجة إلى إضـافـة الشـهـوانيـة إلى أمـر كـان في حـقيقتة قصة «فتى وفتاة» . كلمات لوث هذه عن «عـلاقة فتى وفتاة» كلمات عبثية حين تكتبها امرأة بقـيت نائمـة في السرير في الوقت الذي يقـوم فـيـه حـبيبها المعوق باداء عـملهـا (قـيـاس حـرارة المرضى) في المستشفى بدلاً منها ، وبوصفها كلمات آغنس فـون كـوروفـسكي ـ سواء قـالتـها حقاً أو لم تقلها ـ فقد تكون دقيقة .

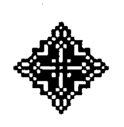
يمكننا ان نلاحظ ان « الصغير » في الحياة الحقيقية لم يعد إلى الجبهة ، لكنها هي تطوعت لإبداء العون في الوباء . ولقد كتب لها بقدر ما كتبت له . وفي احدى المرات وصلتها خمس رسائل منه في رزمة واحدة (بيكر : آرنست همنغواي ص ٧١) والسيلان الذي هزّ أبا همنغواي هزاً عميقاً إلى حدّ انه اعاد نسخ كتابه «في زماننا» إلى الناشر بالبريد ، قائلاً انه «لن يسمح بمثل هذه البذاءة في بيته » (مع آل همنغواي ص ٢١٩) كان تلفيقاً واضحاً ، ولا نستطيع الا التخمين بصدد «صديق أو حقنة» .

يستجيب النص الذي انتجه همنغواي إلى عملية تحفيز مزدوجة . فهو يريد ان يكون فناً ، ان يكون عملاً مكتملاً بذاته . لكنه ايضاً يريد ان يعيد كتابة الحياة ، ان يجعل بطله البديل عاشقاً اكثر انتصاراً ، وجندياً اكثر نشاطاً ، وانساناً اكثر تضحية مما كان المؤلف نفسه .

أين يترك هذا ناقد النصوص الأدبية ، ومعلمها وطالبها ؟ أرجو أن يتركهم متشككين ومرنين . ولقد اخترت نص همنغواي هذا للنقاش لأنه قصة قصيرة جداً ، ولانه اثارني منذ أن قرأته للمرة الأولى قبل التخرج . وبدأت بدراسته دون ان أعلم بما سأجده فيه . وقد قمت بالتحليل الادبي أولاً ، ثم الدراسة الأدبية . ولم يكتمل عملي . ونصي ناقص . ليكن . وربماً لم يتحقق هدفي أيضاً ولأُصَرِّحْ هنا ، انه أيضاً عرضة لسوء التأويل .

لا أقول اننا نطرح البراعة النقدية التي تعلمناها من النقاد الجدد ، وبالتأكيد لن أتخلى عن موقفي . لكني اريد ان اقول اننا

نقترب من القصص بوصفها نصوصاً تتخللها الشفرات اكثر مما هي اختلاقات شكلية ، ويبدو لي انّ المدخل السيميائي يتيح للناقد والمعلم والطالب والقارىء مجالاً فكرياً اوسع ، وحرية أكبر ومسؤولية أجسم ، مما يتيحه المدخل التفسيري المجّرد . ليس نص همنغواي هذا أعظم قصة رويت ، ولا مثالاً فظيعاً ، بل هو صورة مصغرة ، ونموذج من كل القصص . افضل ممنّ كتبه ، لأنه اجتهد بجعله على هذا الشكل ، لكنه ما يزال يتصدع ، ما يزال اتصالاً يفحص ويوزن ، وليس صنماً يُعبد . وكل اشكال الصنمية ، سواء أكانت في الالهة ، ام في الناس ، ام في الأعمال الادبية ، تعلمنا أسوأ الدروس ، أن نركع ونسجد حين يجب علينا بدلاً من ذلك ، أن نتفحص كلّ شيء بحرية وجسارة لكي ننتج مع عملنا النقدي أشياء أفضل منا (٤) .



(٤) يعتذر المؤلف لعدم إدراجه « قصة قصيرة جداً » لكني آثرت ترجمتها عن كتاب همنغواي استكمالاً للفائدة ، كما فعل المؤلف مع قصة «إيفيلين » ـ (المترجم) .

قصــة قصيرة جـــداً

قصة : آرنست همنغواي

حملوه ذات مساء حار في «بادوا» إلى السطح ، فاستطاع ان يطلّ على المدينة من الأعلى . كانت السحب التي تقذفها المداخن تلتف في السماء ، وبعد فترة من الزمن خيّم الظلام وظهرت الأضواء الكاشفة . هبط الاخرون وأخذوا معهم الزجاجات . فاستطاع هو ولوث سماعهم من الأسفل وهم في الشرفة . جلست لوث على السرير . كانت ندية ونضرة في تلك الليلة الحارة .

بقيت لوث مدة ثلاثة شهور في الواجب الليلي . سّرهم ان يدعوها تقوم به . وحينما أجروا العملية له ، هيأته لطاولة العمليات ، وتبادلا دعابة عن صديق أو حقنة . وقد ظلّ تحت تأثير التخدير منتبهاً ، حتى لا يهذي خلال ذلك الوقت الثرثار السخيف . وبعد ان صار يقوى على القيام بعكازتين تعوّد ان يقيس حرارة المرضى حتى لا تنهض لوث عن السرير . لم يكن هناك الاّ القليل من المرضى ، وكانوا جميعاً على معرفة بعلاقتهما . كانوا جميعاً يحبون لوث . وحين عاد ماشياً عبر الصالات ، فكرّ ان لوث في سريره .

قبل ان يعود إلى الجبهة ، ذهبا إلى كنيسة «دوومو» ، وصليا . كانت الكنيسة معتمة وهادئة ويصلي فيها ناس آخرون . أراد أن يتزوجها ، لكن لم يتح لهما من الوقت ما يكفي لتوجيه

الدعـوات ، ولم يكن عند أيّ منهما وثائق مـيلاد . ومع ذلك فقد شعرا بـانهما تـزوجـا ، لـكـنـهما ارادا ان يعلم الجـمـيع بزواجـهما وان يوثقـاه رسمياً حتى لا يضيع .

أرسلت اليـه لوث عـدداً من الرسائل التي لم تصله إلاّ بعد اعلان الهدنة . وصلت خمس عشرة منهـا في رزمة إلى الجبهة ، فصنفها حسب تواريخهـا ، وقـرأها من البـداية إلى النهـاية . كـانت تتحدث كلها عن المسـتـشـفى ، وكم أحـبـتـه ، وكيف يستحيل عليها أن تواصل حياتها دونه وعن وحـشة افتقادها اياه ليلاً .

بـعـد الهدنة اتفـقـا على ضرورة سـفـره إلى الوطن كي يحصل على وظيـفـة تيسر لهما امـر الزواج . ولن تعـود لوث إلى الوطن حتى يحصل على وظيـفـة طيـبـة ، ويكون بامكانه المجيء إلى نيويورك ليلتقي بها . وكـان مـفـهـومـاً انـه لن يشرب ، ولم يردْ ان يرى اصـدقـاءه ، أو أيّ شـخص آخـر في الولايات المتـحـدة . الحـصـول عـلى وظيـفة والزواج فـقط ، وفي القطار من بادوا إلى مـيـلانو تنازعـا حـول عـدم رغبتهما في العـودة إلى الوطن مـبـاشرة . وحين كـان عليهما ان يودّعا بعضهما ، في محطة مـيلانـــو ، تبادلا قبلة الوداع ، ولـــم ينتهيا منهـــا إلاّ بنزاع ، لانـــه يضجر مـــن التوديع عـــلى هذه الشاكلة .

ذهب إلى امـريكا على ظهر باخرة من «جنوا » ، وعادت لوث إلى بوردينون لافـتـتـاح مـسـتـشـفى . كـان الجـو حاراً ومطيراً هناك ، وقد عـسكرت في المدينة كـتـيـبـة الجـرأة . وفي غمرة اقامته في تلك المدينة الموحلة الممطرة شـتـاءً مارس رائد الكتيبة الحب مع لوث ، ولم تكن قد جـربت الايطاليين من قـبل ، فكتـبت أخيراً إلى الولايات المتـحـدة بان

علاقتهما (السابقة) لا تزيد عن علاقة صبي بفتاة .

يا للأسف ، لأنه لا يفهمها ، ولكنه سيسامحها يوماً ما ويحس بالإمتنان لها ، وتوقعت ، على نحو غير متوقع تماماً ، ان يتزوجا في الربيع . كانت تحبه كما أحبته دائماً ، لكنها ادركت الآن انه حب فتى لفتاة . تمنت له ان يحصل على عمل عظيم وانها تؤمن بقدراته إيماناً مطلقاً ، لأنها تعلم ان ذلك خير لهما .

لم يتزوجها الرائد في الربيع ، ولا في أي وقت آخر . ولم يردّ إلى لوث اي رد على رسالتها إلى شيكاغو وبعد فترة وجيزة أصيب بعدوى مرض السيلان من بائعة تعمل في مخازن المواد الكهربائية ، بينما كان راكباً سيارة أجرة في متنزه لنكولن .

(حين كانت المدفعية تدك اشلاء الخندق في «فوسالتا» جثا منبطحاً ، والعرق يتصبب منه ، وابتهل مصلياً : «رباه ، يا يسوع المسيح ، اخرجني من هنا . ايهّا المسيح الغالي ، ارجوك اخرجني . ايها المسيح ، ارجوك ، ارجوك ، ارجوك ، ايها المسيح . إذا حفظتني من الموت ، فعلت كل ما تقول . انني اؤمن بك ، وساقول لكل من في العالم بانك وحدك المهم .

ارجوك ، ارجوك ايها المسيح الغالي . انتقل القصف إلى مكان ابعد من خط القتال ، وتوجهنا للعمل في الخندق ، وفي الصباح ارتفعت الشمس وكان النهار حاراً ورطباً ومبهجاً وهادئاً ، وحين عاد في الليلة التالية إلى «ميستر» لم يقل للفتاة التي صعد معها إلى الطابق العلوي في «فيلاروزا» عن المسيح شيئاً ، ولم يقل لاي شخص ابداً .) .





جسم المرأة نصاً

من معتقدات الدراسات السيميائية ـ وهو معتقد أتفق معه تماماً ـ ان كثيراً مما نعدّه طبيعياً هو في حقيقته ثقافي . انّ جزءاً من العمل النقدي لهذا الحقل الدراسي هو عملية كسر الألفة المتواصلة ، أي التخلي عن التقاليد ، واكتشاف شفرات كانت قد تأصلت إلى حد أننا لم نعد نراها ، بل نظن اننا نرى من خلال شفافيتها الواقع نفسه . ولا يكون هذا الاجراء مهما وقوياً في مكان ، مثلما يكون في ادراكنا لأجسادنا نحن . فنحن نظن أننا نعرف أنفسنا مباشرة ، لكنّ كلا من الـ « نحن » التي تعرف والـ «أنفس» التي تُعرف تتخللها الشفرات بعمق ، أي انهما مشفرّان ثقافياً حتى النخاع .

يمكن أن يكون العنوان الفرعي لدراسة هذا الفصل : «مغامرات عضو في اللغة والأدب» . وقبل ان آتي على هذه المغامرات ، برغم ذلك ، ينبغي لي أن اقدم تحذيراً أو اتنصل ، خشية ان يُساء فهم عملي فأنا أريد ان اتحدث عن أجزاء الجسم ووظائف الجسم هنا ، لكن ليس كما يتحدث عنهما متدرب مختص بالتشريح والفيزيولوجيا . انّ معرفتي لا تتجاوز معرفة اي هاوٍ للجنس البشري ، غير ان اهتمامي هنا لن يمسّ وقائع هذه القضية إلاّ على نحو غير مباشر . وبعض اشارات الجنس ، التي تعمل أيضاً في اللغة ، وخطاب التحليل النفسي والادب ، هي الموضوعات الاساسية في هذه الدراسة . ويجب ان اعترف أيضاً ان الكثير مما يجب ان اقوله ليس بالجديد ، بل سبق ان ذكرته الكاتبات النسويات في سياق أو آخر ،

برغم انني أعتقد ان الصياغة ككل لم يتم جمع اوصالها بالكيفية الآتية تماماً ، التي انسقت اليها لا بوصفي داعياً من دعاة النقد النسوي ، بل بوصفي سيميائياً .

يمكننا ان نبدأ بتأمل الاسطورة التي أشاعها فرويد عن عملية التطبيع الاجتماعي عند الانسان . واقول «أسطورة» هنا ، وانا اعني ما اقول ، لعدة اسباب . فما يعطينا أياه فرويد ليس افتراضاً قابلاً للاختبار ، شأنه شأن الكثير من المرويات الحدسية ذات القوة التعليلية ، مشابهاً بذلك البنى الأسطورية الأخرى ذات الدلالة الثقافية الكبيرة . وفي النظام الأسطوري الفرويدي ، يمرّ الطفل البشري بطقس تكريس جنسي يمكنه من الانضمام إلى الطائفة الاجتماعية ، بطاقاته الليبيدية التي يروضها الخوف والحسد ، وبذلك يتحضر ويستاء ، مثل كل شخص آخر سواه . وفي هذا الاجراء الأسطوري لحظات حاسمة عديدة ، وربما تكون لحظة النظرة الأولى ، أو لعلّ من الأفضل القول ، الملاحظة الأولى للأعضاء التناسلية عند شخص من الجنس المقابل ، اكثرها أهمية . في الاسطورة الفرويدية ترى الطفلة الانثى قضيب الذكر ، فتعي افتقارها إلى هذا العضو ، وتظل تعاني من عقدة الحسد على القضيب . ويرى الطفل الذكر جسم الانثى ، ويلاحظ افتقاراً ونقصاً ، فيضع في ذهنه احتمال ان يفقد عضوه الخاص . وهكذا يمشي في ظل الخوف من الخصاء .

هناك جوانب أخرى من السيناريو الفرويدي بالطبع ـ المشاعر الاوديبية ، استبدالات الرغبة ، وغير ذلك ـ غير ان المسألة الاساسية بالنسبة إلى هدفنا هي ما أمامنا . وبعملية تضاد ثنائي ، يتسم به الفكر

الإنساني ـ في كل من المنطق وعلم الاساطير ـ تم تحديد الذكر والانثى بوصفهما اكتمالاً ونقصاً ، حضوراً وغياباً ، زائداً وناقصاً ، تشغيلاً وتعطيلاً . فالمهبل والقضيب بوصفهما غياباً وحضوراً ـ اي الفتحة التي تحتاج إلى ما يملأها ، والعصا السحرية التي تملأها ـ يبدو انهما يتقاسمان عالم الجنس فيما بينهما . وهذا صحيح ليس عند فرويد وحسب ، بل في عالم النكات ، والحكايات الشعبية والخرافات أيضاً . لكنّ هناك عقبة مع هذا التضاد الثنائي الصرف ـ الذي لا يعكر عالم الجنس الشعبي الصريح والحميم ، لكنه يتسبب في اضطراب كبير بالنسبة إلى الدكتور فرويد الذي درس التشريح ولا يمكنه ان يتغاضى بسهولة عن اجزاء مهمة من الجسم . وبتحليل الجنس البشري واعادة بنائه استناداً إلى هذا التضاد الثنائي الكامل من الغياب والحضور ، يكتشف الدكتور الجيد ، شأنه شأن الطفل الذي يفكك الساعة ويركبها ليعرف كيف تعمل ، انه نسي جزءاً منها . وهذا الجزء الذي لا يتناسب مع المخطط الثنائي الصرف ، هو ما كان يسميه فرويد (في مقالته عن الصنمية) «قضيب المرأة الواقعي الصغير أي البظر » وقد صار هذا المظهر الذكري الملحق بالجسم الانثوي عبءاً كبيراً على فرويد . لأنه يشوه تناظر الغياب والحضور . وهو يسميه «النمط الاولي الاعتيادي لعضو كان يُنظر اليه نظرة نقص» (الصنمية ، في كتاب الجنس وسايكولوجية الحب» ص ٢١٩) . وهو يقوم بكل ما يمكنه للتهوين منه ، وانتقاده ، ومحوه من خطاب الجنس .

سنعود إلى هذا المحو فيما بعد ، ولكننا يجب ان نفصل أولاً بين الاشارة وبين مرجعها الخارجي مؤقتاً ، لكي ننظر في الثروات

العجيبة التي تدخرها كلمة «بظر» "Clitoris" في اللغة ، فحتى لفظها لم يستقر في اللغة الانكليزية . فتضع اكثر المعاجم البريطانية النبر على المقطع الثاني ، بينما تضعه بعض المعاجم الامريكية على المقطع الاول . أمّا (معجم اكسفورد الانكليزي) الذي يمثل الخلاصة الوافية للإستعمال التاريخي ، فيضع خطين امام الكلمة ، مشيراً إلى أنها «لم يتم تطبيعها في اللغة الانكليزية» . يا للمناسب ، يا للطبيعي ، انّ هذا العضو غير الطبيعي ، هذا اللسان الذكري الذي التصق سراً بجسم الانثى ، يجب ان لا تُطبِّعه اللغة ايضاً . هل ذلك مجرد اتفاق ؟ ليست لدينا كلمة عامية للتعبير عنه يمكن ان تحل محل هذه الكلمة ، أي ليست لدينا كلمة انكليزية قديمة تنقش ، مثل الحروف الرونية القديمة ، على مناضد الدراسة . لدينا صيغة اختزال عن الدال "Clit" التي أظن أنها صياغة حديثة ، ولقد عثرت في مكان غريب ، مثل الرسائل الاستمنائية التي كان يكتبها جيمس جويس إلى زوجته عُرفاً ، نورا ، عدة مرات على كلمة Cockey وهي صيغة تصغير للكلمة الذكرية التي تشير إلى البظر على نحو غامض. وبغض النظر عن هذه الصياغات لا يبدو ان لدينا كلمة أخرى للدلالة على هذا العضو غير المطبّع .

ولدى المعجمات الكثير مما تقوله . يعطينا «معجم اوكسفورد الانكليزي» التعريف الاتي : «مثيل للقضيب الذكري ، بقي عضواً غير مكتمل النمو لدى اناث الفقريات العليا» ، وبوثبة قياس ، وطفرة ، وقفزة من هنا إلى النتيجة القائلة ان كل انثى انسانية تولد ولديها هذا العضو غير ان معجم اكسفورد الانكليزي يترك لقرائه إستخلاص هذه النتيجة . ويعطينا هذا المعجم الانكليزي الجيد

الاصل الاشـتـقـاقي للكلمـة أيضاً . لقد وردت هذه المفردة الانكليزية الحـوشـيـة النابية مباشرة من الكلمة الاغريقية كلايتوريس "Kleitoris" المشـابهة لها في المعنى . ويضـيف المعـجم ان هذه الكلمة «ربما» كانت مشتقة من الفعل Klei - ein الذي يعني : يوصـد أو يغلق . ويتـابع مـعـجم وبستر غير المخـتصر معجم اوكسفورد ، لكنه يؤكد أن الكلمة الأغريقية مشتقة من الفعل الذي يعني : يقفل. هكذا قامت اسطورتها المعـجمية : تكهن في نص واحد قدّم تحت لافتة احتراس «ربما» . وفي النصـوص اللاحقة نُسيت هذه الـ «ربما» وتحول التكهن إلى علم .

وسـيـسـمح لنا المعـجم الاغريقي ـ الانكليزي لـ (ليدل وسكوت) ان نعـود إلى التكهن الابداعي مـرة أخرى . فكلمة كلايتوريس Kleit-oris مـتأخـرة ونادرة مـعـاً في الاغـريقـية ، وقد ظهرت للمرة الاولى في القـرن الثـاني بعـد الميـلاد في نص طبي كـتـبه شخص اسمه روفوس بعنوان (في التـسـمـية) ، وقد استخدم روفوس الفعل : يتبظر ، بمعنى «التـبظر» أو لمس البظر . وللكلمة الاغريقية (كلايتوريس)معنى ثانٍ ، وهو صـيـاغـة مـتأخـرة أيضـاً عـثـر عليها في حوار عن الأنهار منسوب لبلوتاخِ الزائف وهذا المعنى الثـاني هو «الجـوهرة» أو «الحجر الكريم» . ولم يُعنَ مـعـجم معاصر ببحث قضية الترابط بين هذين المعنيين ، برغم ان العـمليـات الاستعارية المشابهة غالباً ما تربط أعضاء الأنثى التناسلية بالجـواهر والاحجار الكريمة في الاحاديث الشعبية وفي الادب .

في المـعـجـم كـلمات أخـرى تحـوم حـول هذا المعنى . فـالصـفـة (كـلايتـوس) تعني (ذائع) حين تقـال على عـاقل ، و(رائع) أو (متميز) حين تقال على شيء غير عاقل . الفعل (كلايو) يعني : «يغلق أو يسد

الباب» أو «يحكم المزلاج» كما تقول معاجم اللغة الانكليزية ، غير ان الاسم (كلايس) موجود فيه بمعنى : مزلاج باب ، ماسكة ، سنارة ، وفي اليونانية المتأخرة (مفتاح) . ومع ذلك فكل ما يعطيناه معجم وبستر من هذا الغنى الاشتقاقي هو الاغلاق الوجيز . ومن الواضح أن هناك ما هو أكثر من هذا . وواضح أكثر ان الاسم «مزلاج» أو «مفتاح» هو المرشح أكثر من الفعل «يغلق» لكي يكون جذر كلمة «كلايتوريس» عبر عملية استعارية واضحة تقوم على المشابهة الايقونية . والارتباط بين الصفة (رائع) والمعنى الثاني(جوهرة) يبدو واضحاً أيضاً .

وأخيراً فان العلاقة بين المعنيين الأولي والثانوي ـ العضو الجنسي والحجر الكريم ـ شبيهة بما يكفي لروابط استعارية اخرى تتضمن اعضاء ذكرية ينبغي ان لا تفاجئنا . لكن كيف ضاع كل هذا ؟ كيف افلتت كل هذه البنية التبادلية من عيون المعجميين ؟ إننا هنا في حضرة عملية واسعة من الرقابة ، فيما أرى ، ليست بالطبع رقابة سياسية ، بل رقابة تشفير سيميائي يعمل على تطهير نصوص ولغة اشياء عمل الناس على اخفائها قروناً عديدة . وهذه الشفرة لاشعورية في عملها وقوية في فعلها ، لانها تستمد قوتها من خوف ذكوري عميق يكنه الذكور للجنسية الانثوية .

ويتخذ الخوف الذكوري من الجنسية النسوية صوراً كثيرة ، ابسطها واكثرها اعتدالاً الشعور بانّ النساء يجربن اشباعاً اعمق واشد جنسياً مما عند الرجال . وكما تقول إحدى الشخصيات في قصة (تذكار من اليابان) لـ انجيلا كارتر : «لقد اخبرني انه حين كان معي

في السرير شعر بأنه مثل زورق صغير في خضم بحر عاصف » .
الشخص الذي يشعر هذا الشعور ياباني نحيل البنية يمارس الحب مع فتاة انغلوسكسونية ، فارعة الطول . لكني أحسب ان رجالاً كثيرين بغض النظر عن بنيتهم العظمية والعضلية مروا بالشعور نفسه في مناسبات مشابهة . وهناك رهبة ذكورية من الاستجابة الانثوية رهبة غالباً ما تظلّ على استعداد للتحول إلى عداء . وتعبّر عن هذا الشعور ملاحظة كلاسيكية يدلي بها عاشق بريطاني على امرأته في اثناء عراك ينهي علاقتهما . يقول واصفاً فعل الحب بينهما : «كنت سألتذ اكثر لو كانت لذتكِ أقل » .

يبدو الشك في كون المرأة اكثر حصولاً على اللذة الجنسية من الرجل في مختلف الصور وفي كثير من الثقافات الانسانية . وفي الكتاب الثالث من (مسخ الكائنات) لـ أوفيد يقول جوبيتر مازحاً مع جونو : «أنتن ايتها النساء تحصلن على لذة في الحب أكثر من أزواجكن» . ويذكر أُوفيد ان جواب جونو كان نفياً لذلك. وتتم تسوية هذا النزاع باللجوء إلى تيريزياس ـ الذي تحول ذات مرة إلى امرأة وعاش كذلك سبع سنين قبل ان تستجد الظروف التي تسمح له باسترداد جنسه الذكوري الأول . يقدم أوفيد جواب تيريزياس على سؤال الالهة باقتضاب (أيّدجوبيتر) . وفي حين تغضب جونو ، فتصيب الحكم المنحوس بالعمى ، يعوضه جوبيتر بأن يعطيه البصيرة، أي القدرة على استبصار المستقبل .

لا بدّ ان نتوقف عند عدد من الجوانب في هذه القصة . الأول ان تيريزياس اختار بحريته ان يعود بصورة ذكر . وهكذا فانّ تأييده

لوجهة نظر جوبيتر يهّون الجنس ايضاً . نعم ، لدى المرأة لذة اكبر ، لكن لدى الرجل سلطة اكبر . وكان تيريزياس يعرف ماذا يعني القضيب ، يعرف انه لم يكن اللذة ، بل القوة والسلطة . ولقد كان اوفيد رومانياً جيداً . وككل روماني جيد فقد قلل من قيمة الاختلاف في اللذة التي يجربها الجنسان ، قياساً إلى الطريقة التي يتم بها وصف اللذة في مصادره الاغريقية التي تجعلها كما يلي : ـ

لو كانت أجزاء متعة الحب عشرة أعشار

لذهبت تسعة اعشار الى المرأة ، والى الرجل عشر واحد فقط .

(مقتبس عن : فيرن ل . بلوغ «التنوع الجنسي » شيكاغو ، ١٩٧٦ ص ١١٤) .

توجد اساطير مشابهة في ثقافات أخرى اشهرها اسطورة «بانغاسفانا» الهندية ، كما ترويها المهابهراتا . وبوسيلة انقلاب جنسي مماثلة لوسيلة تيريزياس ، ينجب الملك بانغاسفانا مئة ولد ، رجلاً ، ومئة اخرين ، امرأة . ثم يسألها الاله اندرا ان كانت تريد ان تصير رجلاً مرة اخرى . فترد بالنفي : «ان للمرأة في وحدتها مع الرجل متعة اكبر دائماً . . ولذلك اختار أن أكون امرأة » . بالطبع كان الملك يريد الاولاد أصلاً ، ولقد تعرّض لغضب اندرا باداء طقوس منكرة للحصول عليهم ، وفي الحكاية ، لا يُحَسب إلاّ عددُ الاولاد . فإذا ولدت البنات ، فإننا لا نسمع بهنّ .

اللذة الجنسية من الهند إلى روما تقابل القوة . للرجال القوة

وللنسـاء اللــذة ، في جميع نسخ الاسطورة . لكن ليست هذه القـصة كلهـا . فكلما تحـركت الاسطورة غرباً ، ازداد اهمال اللذة نفسها . لقد دفع بانغـاسـفـانا ضريبـة عالية لكي يبقى امرأة . أمّا تيريزياس فلا . ولذة المرأة في اليـونان ، تسـعـة أضـعاف لذة الرجل . وفي روما ، كلّ ما نعرفه ان تيريزياس لم يردْ ان يختلف مع حاكم السموات .

هـل مـن واقع وراء هذه الاسطورة ؟ هل للنسـاء لذة أكبر ؟ لسنا نعرف ولا يهمّ ان نعرف . ما يهمّ ان الذكر يخشى ان تكون هذه الحالة حـقـيـقـيـة . وفـكرة النهم الجنسي الذي لا يشـبع لدى المرأة هي التي تكمن وراء تحـريم التلمـود لأن تمتلك الارملة عـبـداً ذكـراً أو حـتى ان ترعى كلباً .

وهناك اجـراء مماثل في مـا يسـمّى «ختـان النساء» ، وهي ممارسة كـانت معروفة في العالم الإسلامي ، ولا سيما في شمال افريقيا . ويعني الخـتان في هذه الحالات استئصال البظر في الاساس . وما نتحدث عنه هنا هو خصاء نسوي .

وهـا هي الطريقـة التي تصف بها فيرن . ل . بلوغ هذه الممارسـة في كـتـابها «التنوع الجنسي» : «يتم ختان الذكور باحتفال عام مهيب ، أمـا ختان النساء فخاص دائماً ، حيثما كان موجوداً . لم يرد به نص في القـرآن . وربماً كان من مخلفات الجاهلية في فترة ما قبل الإسلام . وفي بـعـض الجماعـات تغـرز إبرة وخـيط في أعلى بظر الفـتـاة الشـابة ، ثم يسـحب إلى الأسفل . فيقتطع ما يكون بارزاً من البظر . وفي جماعات

أخـرى لا يقتطع منه سوى طرفه الأعلى . وفي بعض المجتمعات ، ولا سيما في جنوب مصر والسـودان ، صـار من الاعتيادي أن يجري ختان أكـثـر قـسـوة فيُـقتطع الشفران الأصغر ، وفي بعض الأحيان الأكبر ، ايضـاً . وقـد جرى في مصر أيام المرحوم جمال عبد الناصر نقاش واسع لمنع الخـتان النسوي ، منذ ان ادانته لجنة الأمم المتحدة بوصفه تعذيباً ، تقطيعَ اوصـال للفـتـيـات . وسـعت السودان أيضاً لإلغاء هذه الممارسة واقرت بعض التشريعات بخصوصها .

من التناقـضـات المتأصلة في خـتـان النسـوة في البلدان الإفـريقـيـة المسلمـة ، انّ المسلمين يعـتـقـدون ويعلمـون ان البظر هو مصدر ونبع الشـهوة الأنثوية . وهذا يعني ان استئصال البظر محاولة متعمدة للتقليل من حـسـاسـيـة المرأة ، وبالتـالي ، فإنها تتعارض مع القرآن الكريم . وقـد ادعـى احـد الـسـودانـيين الذين برروا هذه الممارسـة ان : «خـتـان الـنـسـوة يحـررهن من قـيـد الجنس ، ويمكنهن من تحـقـيق مـصيرهن الواقـعي كأمـهات . ان البظر هو اساس الاستمناء عند النسوة . وهذا الاسـتـمناء مألوف في المناخ الحـار . والأسـاس الروحي للاسـتمناء هو الاسـتـيـهـام ، وفـيـه تـولـد المرأة صـوراً جنسـيـة » . من الواضح ان اسـتـئـصـال الـبظر لا يحول نهائيـاً دون الشـعـور الجنسي ، لكنـه يجعل المـرأة ابطأ في اسـتجابتها ، ويدعوها إلى مزيد مـن الوقت لبلوغ حالة اللذة القـصـوى . وكـثيراً مـا جـعل هذا النسـوة يشجعن ازاوجهن على تناول الحـشـيش والمشروبات الأخـرى لعـدم التـعـجـيل بالاداء . امـا الاسـتـئـصـال الجـذري كما مـورس في بعض البلدان الإسلامية (مثلما في اي مـكـان اخـر) فـيـترك المـرأة بــــلا قـدرة على بلوغ حـالـة اللـذة القصوى » . (٢١٩ ـ ٢٢٠) .

في تقديم البراهين على استئصال البظر ، لا أريد ن أفرد الثقافة الإسلامية أو الإفريقية عن سواها . بسبب واحد هو أننا إذا نظرنا وجدنا الأطباء الفكتوريين يمارسون هذه العملية على نساء جامحات ويزعمون ان لها تأثيراً مهدئاً عجيباً عليهنّ . لكن المهم ان هذا الطقس ، سواء أكان قد اقرته العادة أم سوّغته الممارسة العيادية ، ينوب مناب الخوف والرغبات الذكورية الواسعة الانتشار ، ان لم تكن ، العالمية الشاملة . ولقد كان هذا الإجراء في أوروبا الغربية منذ عصر التنوير حتى الآن ، اجراء سيميائياً في جوهره ، لا يتم تنفيذه على اجساد النساء الحقيقيات اللواتي يتألمن ، بل يكتب في ثنايا النصوص المطبوعة . غير ان النصوص خلقت نصيبها من الألم ، كما تفعل النصوص في الغالب . واود الآن ان أركز على ثلاثة نصوص معروفة تهتم بالجنس لدى الانثى ، مسلطاً الضوء بشكل خاص على حظ البظر في هذه الاعمال . والنصوص الثلاثة هي : رواية جون كليلاند الاباحية التي صدرت عام ١٧٤٩ « مذكرات فاني هل» ، وكتاب فرويد : «ثلاث مقالات في نظرية الجنس» الطبعة الالمانية ١٩٠٥ ، والطبعة الانكليزية الاولى ١٩١٠ ، والطبعة المنقحة الاخيرة ١٩٢٤ ، والطبعة الانكليزية الاخيرة ١٩٥٣ م . ورواية د. هـ . لورانس «عشيق الليدي تشاترلي » . (طبعة المؤلف الشعبية ١٩٢٩) .

أدخل جون كليلاند الراوية الاباحية إلى الأدب الإنكليزي فعلياً في عام ١٧٤٩ في «فاني هل» التي ما زالت شعبية جداً ومفيدة في ما نرمي إليه هنا ، ما دامت خير شاهد على الاسقاط الذكوري . يعطينا

كـلـيـلانـد الجـنس ، ليس كما كـان ، أو كما هو كـائن ، بل كما اراده رجـال ذلـك الزمن ان يكون . «فـاني» سليلة ادبيـة لـ «مـول فـلاندرز» عند ديفـو ، وجـدة بعـيـدة لمعـاصرتنا «خـافـيرا هولاندر» . انها اسعد الصيادين الذين نقلوا تجاربهم في لغة مجازية انيقة لا تسمى فيها الاشياء باسمائهـا . وغـالبـاً مـا يوصف الجنس ، ومنذ وقت مـبكـر بتـفـصـيل محبب ، ولكن دائماً بما يتفق مع شفرة الفضول التي لا تحدد ما يُـروى وحـسب بل تسـيطر ايضـاً على يُرى ، وتوصي بما سيقع ، وبالنسبة إلى ما نرمي اليه هنا ، فـإن السمات الأساسية للشفرة هي ما يأتي : ـ

١ ـ لا توجـد طريقـة لتحقيق الاشباع الجنسي للمرأة إلاّ بايلاج «الالة» الذكرية في «الفتحة» الانثوية .

٢ ـ حجم اللذة الأنثوية يتناسب مباشرة مع حجم «الالة » الذكرية .

٣ ـ مـا لم يـكن الذكـر غير كفـء (وهذا شيء نادر الوقـوع في عـالمنا) فـان اللذة تحـصل لكلا الجنسين في وقت واحـد ، ويسـتدل عليها بالقذف المتزامن عند كليهما .

٤ ـ عـدد مـرات الاشـباع الذي تحققه المرأة مساوٍ لعدد مرات الاشباع الذي يحقـقـه الذكـر ، إلاّ إذا كـان الذكـر غير ملائم . ولا يمكن للانثى ان تحقق مراتٍ من الاشباع اكثر من الذكر .

٥ ـ الأعـضـاء التناسليـة الذكـرية مـوصـوفة بتفصيل واضح ، ومتفردة بسمات بينة ما أمكن الوضوح .

٦ ـ الأعـضـاء التناسلية الانثوية موصوفة بنوع من التبئير الخافت وكأنها

مـرشـوشـة بـدهان سـائل ، ولــذلك لا يوصف منهـا سـوى لون الشـعـر ، وبالتأكـيـد فان البظر غير مرئي ، وغير موجود بالنسبة إلى كـــل المرامي العمــلية .

هناك قـوانين أخـرى تغطي الشـفرة الشبقية في« فاني هل»، بما في ذلك الربط المتـواصل بين اللذة والالم عند المرأة ، والحصانة الكاملة من عـدوى الاصـابة بالامـراض التناسليـة عند جميع الشخصيات والاصرار الطاغي على إن كل شيء بخير إذا انتـهى بخير ـ لكنّ أهم ما لدينا هو القـوانين الستة المذكورة . ان اختفاء البظر (القاعدة ٦) هو في الحقيقة نتـيـجـة طبيعية للقاعدة الاولى ـ القاعدة الاساسية للكتاب كلــه ، إذا صحّ القـول . لا يمكن للمـرأة ان تحقق الاشباع الكامل وحدها ، ولا يمكن حـتى لامـرأتين ان يحقـقـاه ، اذْ العضو الذكري وحده هو الذي يرضي رغـبة المرأة المثارة :

« الـقـيـت بـنفسي على السرير ، وتمددتُ . . مـفكرة بأية وسـيلة يـمـكن ان تسلي أو تهدىء اضطرام غـيظي وفـوران رغـبـاتي التي تشير جميـعـاً بقـوة إلى قطبـهـا الاخـر : الرجــل . وشـعـرت عــلى السرير كـأنـنـي أبـحث عن شيء تضـمـه يداي في حلم يقظة ، ولا اجـده ، فـوددت لو بكيت من الغـيظ ، وكلّ عـضو فيّ يتوهج بالنيران الزائفة . واخيراً لجأت إلى العـلاج الوحـيـد الحاضر ذلك العلاج الذي يكمن في المحـاولات الخـائبـة للاصـابع حيث لا يتيح صغر المسرح المكان الكافي لفعل » (كليلاند ، فاني هل ، ص ٤٣ ـ ٤٤) .

تأتي هذه الفـقـرة بعد فقرة أخرى تحقق فيها فاني العذراء نوعاً من الذروة عن طريق «تشـبيك الاصابع digitation » (وهي التـجربة الوحيدة

في الكتـاب) . وهكذا تكون الفقرة الثانية بمثابة تصحيح للفقرة الأولى ـ لـتـؤسـس القـاعـدة الأولى ـ أي ضرورة « الآلة » الذكـرية للاشـبـاع الانثـوي الكامل ، وتعـاليـها على كل شيء . وحتى حين تستعمل فاني البريئـة من قبل شريكتها في السرير «فيبني» للحصول على بعض اللـــذة الجنسيـــة ، فإنّ هذه الشريكة تستـعمل يد فاني وكأنها العضو الذكري المفـقـود . تشـبيك الاصـابع وسـيلة مطاردة فاشلة دائماً في رواية «فاني هل» ، لأن الانامل المنشـغلة لن تجـد الشيء المناسب فـقـد اسـتـبعده المؤلف ، أو استبدله بشيء اخر كما سنرى .

في الأربعـة والعشرين وصـفـاً ، تقـريبـاً ، من اوصـاف جســـم المرأة ، البـارزة عـيـاناً وفي مختلف الاصقاع المحسوبة لكشف المحجوب بأوضح مـا يمكن عن الاعـضـاء التناسلية الانثوية ، ما من اثر للبظر يمكن تتبعه ، غير انّ العضو ليس بغائب تماماً عن الكتاب . فقد ذكر مـرة واحـدة لا غـير ، ولم يحـدد باسـمـه الصريح بالطبع ، مـا دام لا يُـشـار تصريحاً إلى الاعـضـاء الجنسية في هذه النصوص المجازية جداً . ولكنه لم يُـعطَ ايضـاً المعـالجـة التشريفـيـة بسخاء التي حظي بها «العاج الحي » للعـضـو الذكـري ، فـهـو مجرّد «زائـــدة لحـمية ناعمة» . ص (٩٩) . وحـتى في هذه المناسـبـة الفريدة ، لم يكن البظر مرئياً فعلاً ، بل وجـده شـاب كـان يستكشف بأصابعه ما تسميه فاني نفسها «اسرار الظلام والعـمق اللذيذ» (ص ٩٩) . وبتـعديل تشريحي طفيف ، وضع كليـلاند البظر في مـوضـعـه في عالم انشأه ، في ما تسميه فاني «الانبوب الناقل للذة الناعـمـة» . لقـد اعطانا كليـلاند في كتابه يوتوبيا شبقية ، يوتوبيا اباحية Pornotopia رُتِّبَ فـيها كل شيء ليناسب القارىء الذكر نزولاً إلى أصغر التفاصيل .

هذا كلّ ما يحتاجه الحلم اليوتو اباحي في عصر العقل . وهذه الترتيبات غير ممكنة بالنسبة إلى المحلل النفسي العيادي . وكان سيغموند فرويد ، الطبيب المختص يعرف التشريح جيداً ، وكان يهتم بهذا العضو العنيد على نحو آخر مباين ، ولكونه اكثر تحضراً من ان يبتره واكثر علمية من أن ينقله إلى مكانٍ اخر ، فقد امره بالكفِّ عن الوجود والإختفاء ، وها هي اهم فقرة في كتابه «ثلاث مقالات في نظرية الجنس » (نيويورك، ١٩٧٥ ، ص ٨٦ ـ ٨٧) :

«مناطق السبق لدى الرجل والمرأة :

وليس لديّ ما أضيفه إلى ما تقدم إلاّ ما يلي : ان المنطقة الشهوية السباقة لدى الاناث من الاطفال مركزة في البظر ، فهي من ثمة مناظرة للمنطقة التناسلية الذكرية في حشفة القضيب . وكل ما خبرته من الاستمناء لدى صغار البنات متصل بالبظر ، لا بأجزاء الاعضاء التناسلية الخارجية التي تصبح ذات اهمية للوظيفة الجنسية المتأخرة . بل اني لأتشكك فيما إذا استطاعت طفلة ان تنساق . . ـ بتأثير التغرير إلى شيء غير الاستمناء البظري ، وإلاّ فهو حدث استثنائي كلية ، ويتخذ التصريف التلقائي للتهيج الجنسي ، الذي كثيراً ما يحدث لدى صغار البنات ، شكل تقلصات في البظر ، وانتصابات ذلك العضو المتكررة تتيح للبنات الحكم على المظاهر الجنسية للجنس الاخر حكماً مصيباً من غير ما تعلم ، فهن يقتصرن على تحويل الصبية إلى ما يحسسنه من أحاسيس مستمدة من العمليات الجنسية التي تحدث لهنّ .

فإن أردنا فهم كيف تصبح البنت الصغيرة امرأة ، فلا بدّ من تتبع ما تصير اليه قابلية البظر للتهيج هذه . وان كان البلوغ يطفر

باللبيـدو لدى الصـبية طفرة كبرى ، إلاّ إنه يتميز لدى البنات بموجة جـديدة من الكبت تخص البظر مـباشرة . وبذلك يقع الكبت على جزء من الحيـاة الجنسية الذكرية . وهذا الكبت الذي يحدث في البلوغ لدى المرأة ويتـسـبب في تدعـيم العقبات الجنسية يصبح اذ ذاك منبهاً للبيدو لـدى الـرجـال ، ويقسره على رفع مـسـتـوى نشـاطه ، وتصـحب رفع مـسـتـوى اللبيـدو مبالغة في التقويم الجنسي لا تتبدى بكامل قوتها إلاّ بالنسـبة إلى امرأة تتمنع وتنفي الجنسية عن نفسها . ويظل البظر محتفظاً بدوره في نقل التـهـيج إلى الاعـضـاء الأنثـوية المجـاورة حـيث يباح في النهـاية الفـعل الجنسي ويهتاج البظر ذاته ، على نحو ما تستخدم نشارة خـشـب الصنوبر لإشـعـال النار في كـتلة من خـشـب اصلب . ولا بدّ عـادة ـ قـبل حـدوث هذا التـحويل ـ من انقضاء فترة تكون فيها المرأة الشـابة مـفـتـقـدة الحس ، وقـد يدوم فقدان الحسّ هذا ان أبت منطقة البظر التـخلي عن قـابليـتـهـا للتهيج ، وهو حدث يمهد له نشاط هذه المـنطـقـة في الطفـولة . ومن المعـروف ان فـقـدان الحس لدى النسـاء ظاهري ومـوضـعي فحسب . فهن يفتقدن الحسّ عند فتحة الفــرج ، ولكنهن قـابلات للإسـتـثـارة في البظر بل في مناطق اخرى . ويجب ان نضـيف إلى هذه الدوافع الشـهـوية لفـقدان الحسّ الدوافع النفسية التي تخضع للكبت أيضاً .

فإذا مـا نجح تحـويل قـابليـة التنبيه من البظر إلى فتحة الفرج ، تكون المرأة قـد غيرت منطقتها السباقة من أجل النشاط الجنسي اللاحق. علـى حين يسـتـبقي الرجل منطقته منذ الطفولة بدون تغيير ، ويؤلف هذا التـغـيير للمنطقـة السـبـاقـة موجة الكبت عند البلوغ ـ وفيها أيضاً تطرح الذكـورة الطفليـة جـانبـاً ـ الشروط الرئيـسـيـة لتـفـضيل النساء

العصاب . ولا سيّما الهستيريا فهذه الشروط اذن وثيقة الصلة بجوهر الانوثة »[1] .

نحن نعرف الان ان فرويد كان على خطأ في ذلك . فالمرأة «الطبيعية » عنده التي يتخلى بظرها عن قابليته على التهيج الجنسي مجرد أسطورة . وإذا وجدت ، فلأنه خلقها أصلاً ، حتى لو خلق معها عدداً لا يحصى ممن يريدون وجود هذه المرأة ، ولكنهم لا يستطيعون المطابقة بين اجسادهم وشفرته . وفي قراءة هذه الفقرة نقدياً ، ما ينبغي ان يستوقفنا بوصفه تناقضاً صارخاً ، هو إرتداد فرويد الإعتذاري إلى الخطاب المجازي في الحق الإباحي في المنتصف . ويذكرنا تعبير «نشارة خشب الصنوبر لإشعال النار في كتلة من خشب أصلب» بلغة كليلاند قبله ، أو ربمّا بالخطاب الذي يستعمل حالياً في الكتب التعليمية المؤلفة للزيجات الجديدة التي ترعاها المؤسسات الدينية فتوجه اهتمام الازواج الشباب إلى سلوان المتع الشرعية . لقد وقع فرويد اسير شفرته الثنائية الخاصة . المرأة غياب ، والرجل حضور ، وينبغي ان يذهب «قضيب المرأة الصغير» البغيض ، كما يسميه «لان كل من له يُعطى فيزداد ، ومن ليس لها[2] فالذي عندها يؤخذ منها ، والعبد البطال اطرحوه إلى الظلمة الخارجية ، هناك يكون البكاء وصرير الاسنان » . (انجيل متى ٢٥ : ٢٩ ـ ٣٠) .

---

(١) اعتمدت في هذا المقطع على الترجمة العربية للمؤلفات الأساسية في التحليل النفسي ، فرويد : ثلاث مقالات في نظرية الجنس ، ترجمها عن الألمانية سامي محمود علي ، راجعها مصطفى زيور ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٣ ، ص ٩٦ ـ ٩٧ . (المترجم) .
(٢) هنا يستعمل الانجيل ضمير التذكير في الأصل « من ليس له . . .» (المترجم) .

يجيء د.هـ . لورنس ، بالطبع ليحررنا من عمليات الكبت الجنسي التي نعاني منها ، وهو يذكرنا بذلك ، في المقدمة التي كتبها للطبعة «الشعبية» الكاملة من «عشيق الليدي تشاترلي» .

«تلك هي المسألة الواقعية في هذا الكتاب . أريد للرجال والنساء أن «يفكروا » بالجنس على التمام والكمال ، بنزاهة ووضوح . وحتى حين لا نتصرف جنسياً حتى نصل إلى درجة الاشباع الكامل ، فلنكفر على الاقل جنسياً باكتمال وصفاء . كل هذا الحديث عن الفتيات والعذرية التي هي ورقة بيضاء فارغة لم يكتب عليها شيء محض هراء . إن الشابة والشاب في شرك معذب واختلاط مضطرب من المشاعر والافكار الجنسية التي لا تحلّها الا السنين وحدها . وستحملنا سنين من التفكير بالجنس ، وسنين من التصرف المكافح في الجنس أخيراً إلى حيث نريد أن نصل ، إلى عفتنا الواقعية المحققة ، إلى اكتمالنا حيث يتناغم فعلنا الجنسي مع فكرنا الجنسي ، ولا يتدخل أحدهما بالآخر » . (ص ٥) .

برنامج طموح . كم اقترب لورنس من تحقيقه ؟ فقرتان مهمتان ستوفران الجزء الأكبر من الجواب . الأولى هي اشهر ما في الكتاب ، وفيها يلعب حارس الطرائد ، ميلورز ، دور طبيب مع كوني تشاترلي حرفياً ـ ويعطيها محاضرة عن خصائصها التشريحية بلهجته الشمالية المحببة :

«لقد صار لديك ذيل جميل ، قال لها بلهجته الحلقية اللطيفة . . «لقد صار لديك أجمل ما لدى الجميع من «حر» . إنه أجمل «حر» امتلكته امرأة . كل شيء فيه امرأة واقعية كالبندقة . لستِ كالفتيات

اللواتي حرهن كالبرعم الناتىء ، مثلما هو حال الأولاد . لديك عجيزة كأنها تحمل العالم عليها .

وحين كان يتحدث كان يمسد الذيل المدّور برفق ، حتى شعر وكأن ناراً انزلقت منه إلى يديه . فمسّ بأطراف أصابعه فتحتي جسدها السريتين ، مرة بعد اخرى بفرشاة صغيرة ناعمة من النار .

«فإذا تغوطت أوبلت ، شعرت بالسعادة . لا أريد للمرأة إلاّ تبول أو تتغوط » . لم تستطع كوني أن تمنع نفسها من اطلاق ضحكة مفاجئة ، لكنه استمر بلا حراك .

هذا حق .. هذا حق ،. ها هو غائطك وبولك . أضع يدي فيهما وأحبك من أجلهما .. أحبك . لديك حر امرأة مناسب ، فخور بنفسه . ولا شيء يعيبه »[٣](ص ٢٦٣) .

لا بدّ من ملاحظة جانبين في هذه الفقرة : الأول ان انوثة كوني تتحدد كنقيض للذكورة . «ذيل» ها جميل ، لانه ليس كمثل ذيل «الأولاد » . الثاني والاهم ، فقدان شيء ما في محاضرة التشريح . فالرذاذ الاباحي الذي يزيل الاوساخ عن صور مجلات الخلاعة الجميلة قد مسّ هذا المشهد أيضاً متجاوزاً ذلك العضو الذي فيه من الاولاد الكثير مما ينتمي إلى «حر امرأة مناسب» .

ويعاود العضو العنيد المختفي ، وليس المنسي ، الظهور في فقرة أقل شهرة من مشهد الحب الذي تأملنا فيه تواً . وها هو ميلورز يخبر

---

(٣) الفقرة ، على طريقة لورنس ، مليئة بالعامية المكشوفة التي حاولت تلطيفها قدر الامكان .

كـوني عن السلوك الجنسي لزوجته السابقة .

«كـانت تعـاملني بجـفـاء . ولقـد صارت كذلك إلى درجة إنها لم تعـد تسـتجيب حين كنت اريدها : ابداً . كانت دائمًا تضعني جانباً . ثـم حـين كـانـت تفـرغ مني ، ولم أردهـــا تتـحـول إلى حمامـة وديعـة وتريدني . وحين أرغـب فـيـهـا ، لم تكن ابداً تفـرغ حين أفـرغ أنا . ابداً . كـانت تنتظر فـقط . إذا بقـيت نصف ساعة بقيت هي اطول . وحين كنت انتـهي وافـرغ تمامـاً ، كـانت تبـدأ من ناحـيتها ، وعليّ أن اقـف في داخـلهـا حـتى تصل إلى ذروتها ، وهي تتلوى وتئن . كـانت تضـغط تضـغط حـتى تفـرغ ، وعندئذ تقـول : مـا كان أجمل ذلك ! وبالتـدريج انتـابني الضـجر ، فقد ســاءت . كـــانت تفرز أكثر لتـفـرغ ، وكـانت تفـرز الدمـوع عليّ هناك ، وكأنها انف يبكي عليّ . لكني اخبرك عن الخراطيم التي بين فخذيها ، التي لا تكف عن البكاء حـتى تضـجـر . إلي ، إلي إلي ! دمــوع وانين . يتحدثون عـــن انانية الرجـال ، لكني اشك في انها تصل إلى «خراطيمية» المرأة العمياء ، ما دامت قـد ذهبت هذا المذهب . انها مـثل بغي عـجـوز ! ولا تسـتطيع ايقـاف ذلك . لقـد أخبرتها بهذا . اخبرتها كم اكره هذا . وقد حاولت حـاولـت أن تـظلّ سـاكنة ، وأنا أقـوم بالعـمـــل ، حــاولت ولم تكن محاولتـهـا ناجـحـة . لم يعد لديها احساس به ، بعملي . كان لا بدّ أن تقـوم بعـملهـا هي أيضـاً ، ان تطحن قـهوتها . وعاد الامر عليها مثل ضرورة عـاصـفـة ، كـان عليـهـا أن تترك نفـسها ، فتبكي ، وتبكي ، وكـأنهـا لـيـس لـديهـا احـسـاس إلاّ في طـرف أنفـهـا ، خـــارج ذلك الـغضروف ، المـحكوك الممزق . هـكذا تعـودت ان تكون البـغـايـا العـجـائز ، كما يقـول الرجـال ، لقـد كـان لديها إرادة ذاتية من نـــوع

واطىء ، إرادة ذاتية عاصفة كالنساء اللواتي يشربن . وفي النهاية لم اعد احتملها ، فصرنا ننام منفصلين . (ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣) .

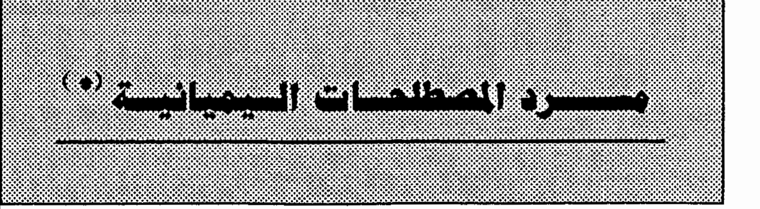
كأن لورنس يكسو باللحم ـ من خلال تفاعل درامي ، العظام الخاوية لسيناريو فرويدي . ان ذكورة السيدة ميلورز المفترضة هي التي تجعل منها متهيجة على هذا النحو ، ذكورة تعبّر عنها رغبتها في تولي المشهد الجنسي ـ والسيطرة عليه . لكنها تركز جسدياً على توجيه بظرها ، الذي يرمز اليه مجازياً بوصفه انفاً أو خرطوماً وحشياً . وهو توجيه تخلت عنه كوني نفسها في حركتها من عشيقها النهم الاول إلى ميلورز . ومثلما يفعل فرويد تماماً ، يأمر لورنس البظر ، بأن يكفّ عن الوجود ويضمر ـ يأمر النساء بأن يكنّ اقل انوثة ـ بأن يكن النقيض الثنائي الكامل الذي يتطلبه الرجال وبأن يكنّ اقل جنسية في الاتصال .

فرويد هو التناص الكامن وراء لورنس ، لكنّ ذلك ليس سوى جزء يسير مما تريد هذه المقالة إبرازه . المسألة المهمة هي أنّ نصي فرويد ولورنس تحكمهما الشفرة الذكورية نفسها ، التي يشكلها الخوف من الجنسية الانثوية المعبر عنها كحاجة لتحديد هوية المرأة بكونها افتقاراً إلى ما يمتلكه الرجل ، وبكونها ناقصة باستمرار من غير حضور الذكر . انّ الرسالة نفسها التي نقشتها بعض الثقافات مباشرة على جسد المرأة تتجسد في النصوص الفرويدية واللورانسية ـ ومن هذه يأتي نقش هذه الرسالة على عقول ونصوص كثيرة أخرى . ومن الجميل اننا بتعرية طريقة عمل هذه الشفرة لم نشفر جسد المرأة ، وبذلك نستطيع الآن ان نراه على حقيقته . وربما قربتنا أعمال بعض

المختصين من بعض انواع الحقيقة عن الجسم البشري اخيراً . وإذ يصل المرء في رقصة الاقنعة السبعة الاصلية - إلى ادراك مباشر للواقع ، حيث لاقناع ، ولا شفرة ، تحول بيننا وبين ما نراه ، لا بدّ أن تحذرنا الدراسات السيميائية من هذه النقطة . فالأقنعة لا تزول ، بل تستبدل بأقنعة أخرى تشفّ بعض الوقت عمّا تحتها .
وربما كنت أميل إلى القول عن هذا العضو الذي تابعنا تقلباته : «إنه كان ينبغي أن تفرح وتُسّر ، لإن (اختك)[٤] هذه كانت ميتة فعاشت ، وكانت ضالة فردت» (لوقا ١٥ : ٣٢) ، ولكن قد يكون الأفضل أن نتسائل ما الذي ضيعناه أو أخفيناه فيما عثرنا عليه .



(٤) المعروف في الانجيل (أخاك) .



(*) أعدت ترتيب المواد وفق الترتيب الألفبائي العربي ـ المترجم .



الإحالة (المرجع) Reference (referent)

في نظرية بيرس السيميائية ، لكل إشارة موضوع تشير إليه ، غير أنه لا يُشترط أن يكون لهذا الموضوع وجود فيزياوي . فقد يكون فكرة أو شكلاً حلمياً ، أو مخلوقاً متخيلاً مثل وحيد القرن . وفي الموروث السيميائي التجريبي أو الوضعي ، لا تؤخذ مأخذ الجد إلاّ الصياغات التي لها مراجع حقيقية فعلية ، لأنها الوحيدة التي قد تكون لها قيمة صدق . إنّ الكلمات في الوضع المتطرف لهذا الموروث ، تستمد معانيها من الأشياء التي تشير اليها . أما وجهة نظر دي سوسير في هذه القضية فهي ان الكلمات تكتسب معانيها من البنية التبادلية : أي علاقاتها بكلمات اخرى في اللغة ولذلك فالاحالة اعتباطية أو عرضية ، وفي كل حال فهي خارج منطقة اهتمام السيمياء . ويزعم أصحاب هذا الرأي انه لا وجود لإحالة خارجية . وفي سيمياء بيرس ، تُعرّف الايقونات والمؤشرات من خلال علاقاتها بمراجعها ، بينما تعرّف الرموز بمكانتها من النظام العرفي أو الاعتباطي . وهكذا يتيح بيرس المجال لنوع من المرونة التي رفضها كل من التجريبيين المتطرفين ، والسيميائيين المتطرفين . وأنا أتابع بيرس في هذه المسألة .

الاشارة Sign

الاشارة عند دي سوسير كيان مزدوج ، يتكون من دال (هو الصورة الصوتية) ومدلول (هو المفهوم) . وعند بيرس الاشارة هي شيء ما يشير إلى شيء آخر سواه عند شخص ما في ناحية أو صفة معينة . وللإشارة عند بيرس «موضوع» تشير اليه ، و «مؤولة»

تـــولـــدها فـــي ذهـــن المؤوِّل ، و «أســاس » يقــوم عليــه التأويل ، وتؤدي الاسس المختلفـة إلى ثلاثة أنواع من الاشـارة : الايقـونة والمؤشر والرمـز . وقـد عدّل اتباع سوسير من فكرتي الدال والمدلول

الايقونة *Icon*

وإشـتـقـاقـاتها أيقوني أو أيقونية . تكون أية إشارة في نظرية بيرس عن الاشـارات أيقـونيـةً حين تدلّ على مـا تدلّ عليـه بفضل التشابه أو التماثل بين الاشـارة ومـا تشير اليه . والصور والرسوم البيانية هي أشهر الاشـارات الايقـونيـة ، أمّا صوت كلمة نباح Woof فأيقـوني إلى حد مـا لنبـاح كلب . وكل آثار تقليـد الأصـوات الطبـيعية تعتمد الايقونية السمعية .

التبادل (التبادلي) *Paradigm (Paradigmatic)*

أخـذ السـيـمـيـائيـون عن دي سـوسير فكرة ان أية إشـارة (قـبل ظهـورها في أي منطوق فـعلي) توجـد في شـفـرتها كـجـزء ، من قائمة تبـادليـة ، أي من نظام من العـلاقات التي تربطها بإشارات أخرى من خـلال التـشـابه والاخـتـلاف . فـفي اللغـة ترتبط الكلمـة تبـادلياً مع المترادفـات ، والمتـضادات ، والكلمات الاخرى مـــن الجـــذر نفسه ، والـكـلـمـات التي تشـبـهـهـا صـوتـاً وغير ذلك . وتقـدم هذه البنيـة التـبـادليـة الميـدان الممكن للاسـتـبـدالات التي تنتج عنهـا الاستعارات والـتـوريات والكنايات والمجـازات الأخـرى . وتؤدي فكرة التـبـادل ، إذا مـا دُفـعت أبعـــد قليـلاً ، إلى عملية توليد سيميائية غير محدودة . (أنظر : التتابع) .

التتابع (التتابعي) Syntagm (Syntagmatic)

في علم اللغـة ما بعد دي سوسير صارت هذه الكلمة في تقابل مع التبادل Paradigm (أو التبادلي Paradigmatic) . ويشير التبادل إلى ارتبـاط كلمـة مـا بكلمات أخـرى في اللغـة ككل خـارج إطار أي قول مـعين . أمّا التـتـابع فـيشير إلى علاقة الكلمة بالكلمات الأخرى (أو عـلاقـة الوحـدة النحوية بالوحدات الأخرى) في داخل فعل كلامي أو قـول مـعين . ومن الواضح أن المعنى هو حـصـيلة الوظيـفتين التبادلية والتـتـابعـية معاً . ولأن الكلام يعبرّ عن نفسه دائماً كدفق من الاشارات اللغـوية في الزمـان ، فـانّ الوظائف التـتـابعـيـة تسـمّى أحياناً بالخطية وبتـوسـيع مجازي آخـر يصير التـتـابع أفـقـيـاً والتـبادل عمودياً (انظر : التبادل) .

التـداوليـة Pragmatics

جـزء مـن ثالوث اسـتـعـمله تشـارلز مـوريس واخـرون لتـعـريف اهتمامـات الدراسـة السـيـمـيـائيـة (والجـزءان الاخران هما علم الدلالة وعلم التركـيب) . وتشير التـداولية إلى تلك الجوانب في عملية الاتصال التي هي وظائف مـقـام الحـال التي يطلق فيها القول أو المنطوق ، ولا سـيّما العـلاقـة بين المتكلم والمسـتـمع . فأشـيـاء كالصعوبات السمعية (البـعـد ، الضـوضـاء) هي جـزء من التـداوليـة ، كـذلك الحـال مع العـلاقـات الانفـعـاليـة وعـلاقات السلطة . وغالباً ما يقوم التهكم على أسـاس من التداولية (انظر : علم الدلالة وعلم التركيب) .

المتناص (التناص) Intertext (intertextuality)

لهذه الكلمة معانٍ خاصة عند سيميائيين مثل بارت ، جينيت ، كرستيفا ، ريفاتير ، يختلف أحدها عن الآخر والمبدأ المشترك بينها هو ، كما ان الاشارات تشير إلى اشارات أخرى وليس إلى الأشياء مباشرة ، فإنّ النصوص كذلك تشير إلى نصوص أخرى . يكتب الفنان ويرسم ، ليس استناداً إلى الطبيعة ، بل استناداً إلى طرائق أسلافه في «تنصيص » الطبيعة . وهكذا فالمتناص هو نص يكمن في داخل نص آخر ليشكل معناه ، سواء أكان المؤلف شاعراً بذلك أم غير شاعر . عمل بلزاك «اوجيني غراندي» هو متناص لنص بارتليم : «اوجيني غراندي» بالطبع ، غير ان هذا النوع من التعرية للتناص هو محاكاة ساخرة للعملية التي هي في العادة اقل وضوحاً وأكثر تعقيداً . وعلى نحو موازٍ لعملية توليد الإشارة اللامحدودة لدينا ارتداد لا نهائي للنصوص أيضاً . فكل المرائي هي متناصات مرثية مرون .

التوليد السيميائي Semiosis

هذه الكلمة ، كما استعملها ريفاتير تقف في تضاد مع المحاكاة . ففي قراءة قصيدة أو فهم اي مجاز لغوي يجد المؤول ان القراءة الحرفية أو المحاكاتية تُحبط ، ولا بدّ من توليد معنى «مجازي» . وعمليه توليد المعنى المجازي هي السمطقة أو التوليد السيميائي Semiosis . وتتضمن عودة إلى البنية التبادلية التي تحيط الكلمات المفردة وبنية التناص التي تحيط نصاً شعرياً معيناً .

الحكي Diegesis

الحكي والمحاكاة كلاهما جانبان لعملية تمثيل الافعال أو الاحداث . وبمنتهى البساطة انّ ما يُعَرض أو يُمثَّل فهو محاكاتي ، وأما ما يُقال أو يُروى فحكائي . وبالمعنى الدقيق ، فالحكي هو متوالية الافعال أو الاحداث التي يستخلصها المؤوِّل من نص سردي .

الخطاب Discourse

تستعمل هذه الكلمة بعدد من الطرق المترابطة ولكن غير المتطابقة . فقد تشير إلى كلمات السرد أو نصه في مقابل القصة أو الحكي . وقد تشير أيضاً وعلى نحو أكثر دقة إلى تلك الجوانب التقويمية أو التقديرية أو الاقناعية أو البلاغية في نص ما ، اي في مقابل الجوانب التي تسمّي أو تشخص أو تنقل فقط . ونحن نتحدث أيضاً عن «اشكال الخطاب» كنماذج نوعية لأقوال من أنواع ما . فكل من السونيتة والوصفة الطبية يمكن اعتبارهما «أشكالاً خطابية» تحددها القوانين التي لا تشمل اجراءاتها اللغوية وحسب ، بل انتاجها الاجتماعي وتبادلها أيضاً .

الدال Signifier

تشكل الصورة السمعية التي ترتبط بمفهوم ، إشارة في علم اللغة عند دي سوسير . وفيما بعد رفض السيميولوجيون من اتباع بارت ولا كان فكرة وجود أيّ ارتباط ثابت بين الدال والمدلول ، وذهبوا إلى ان الدوال «تعوم» جاذبة اليها المدلولات التي تختلط بها لتصير دوالّ لمدلولات اخرى اضافية . وكانت النتيجة العامة خلخلة كلمة مدلول

وايجاد اضطراب فيـها ، كما حصل ذلك في الترجمة المضطربة لكلمتي Signifiant و Signifie في كـتـاب س/ز لبارت . والقول المأمون ان ليس لأيّ من المفـردتين مـعنى دقيق في الوقت الحاضر ، وهذا ما يبررالموقف السيميولوجي في هذه القضية .

دلالـة الايحـاء Connotation

تسـمّـى المعـاني التي تقترن اقتراناً حـراً بكلمـة معينة خلال تاريخ اسـتـعمالها بدلات الايحاء . وفي سـيـمـيولوجيا رولان بارت ، تستدعى دلالات الايحـاء بـلاغـيـاً ، وتـريـد كـلّ الـنـصـوص الـمـتـضـاربـة أو «الـكـلاسـيكـيـة » الحـدّ من الإنزلاق الكنائي لدلالة الايحاء والسـيطرة عـلـيـه بتنظيم أو إغـلاق الدفق الايحائي . فـالكاتب القـصصي «يخلق الشخصية » بتحديد عدد الصفات القرينة باسمِ عَـلَـمٍ معين .

دلالة المطابقة Denotation

غـالبـاً مـا تفـهم دلالة المطابقـة على أنها معنى حرفي أو خاص ، واحـيـانـاً تتـضـمن فكرة تعـيين المرجع ، فـتكون دلالـــة المطابقـة هي التـسـمـيـة ، ويتمثل شكلها المتطرف في اسم «العلم» لارتباطه بمرجع واحـد ، غير اننا نطابق فئات الموضـوعـات أيضاً بكلمات مثل «قطة» و «شـجـرة» . وفي سـيـمـيـولوجـيـا رولان بارت واتباعه ، صارت دلالة المطابقـة قرينة بانغلاق المعنى ، ومن هنا بالكبت السياسي أو الرقابي . وفي ردّ الفـعـــل ضـدّ الحـرفـيـة الجـائرة لدلالة المطابقة ، ألغاها رولان بارت ، مـؤكـداً ، إننا نسـمّي دلالة ايحاء نسـتـقـر عليـهـا باسم دلالة المطابقـة . وغـالبـاً مـا يبـدو هذا الموقف مبالغاً فيه ، غير انه تصحيح

مـفيد للاعتقاد بأن المعاني الحرفية قوانين طبيعية أو وصايا إلّهية .

الـرمـز Symbol

في مـصطلحـات بيرس ، لهذه الكلمـة معنى دقيق يشير إلى ذلك الـنوع من الاشـارة التي تدل على مـا تدل عليـه بفـضل عـادة عـرفيـة اعـتبـاطية في الاستعمال . والإشارة عند دي سوسير ، التي يرتبط فيها الدال والمدلول بالعـرف فـقط ، وعلى نحـو اعـتبـاطي ، وبغير داعٍ ، مـعـادلـة لـلـرمـز عـنـد بيرس . ومن المهم ان هذين الرائدين للدراسـة السـيـميائية يتفقان في هذه القضية الحاسمة . ومن المهم أيضاً ان بيرس يـمـضي إلى تـسـمـيـة نـوعـين مـن الـوظائف الإشـارية (هما الايقـوني والمؤشري) ليـسـا بعـرفـيين أو اعـتـباطيين ، بينما يمدّ اتباع دي سوسير فكرته عن الاشـارة اللغـوية أو الكلمـة على جميع الاشـارات اللغوية أو اللالغـوية . وفي الفـضـاء الذي افـتـتـحـه هذا الاختلاف ما زال يجري الكثير من النقـاش في داخل الدراسـات السـيـمـيائية . وتستعمل كلمة «رمـز» على نطاق واسع بمـعـاني مختلفـةٍ بالطبع ، ويجب تأويلهـا بحذر دائماً .

السيميولوجيا Semiology

إستعمل سيميائيو مدرسة باريس مصطلح دي سوسير Semiologie في حـقلهم ، ومن هنا يبقى هذا المصطلح طريقة مفيدة لتمييز عملهم عن السـيـمياء Semiotics العـالميـة المتبـعة في اوربّا الشرقـيـة وايطاليا والولايات المتـحدة .

الشفــرة Code

يرى السيـميـائيـون ان الفهم بأجمعه يعتمـد عـلى الشفرات أو السنن . فـحيـثما نستخلص معنى من حدثٍ ما ، فذلك لأننا نمتلك نظامـاً فكرياً ، أو شـفرة ، تمكننا من القيام بذلك ، فالبرق كان يُفهم ذات يوم على انه عـلامـة يصـدرُها كـائن متسلط يعيش في الجبال أو في السماء . أمـا الان فنفـهـمه على انه ظاهرة كهربائية . لقد حلت شفرة علمـيـة محلّ شـفـرة اسطورية ، واللغـات الانسـانية هي أكثر الوسائل المعـروفة تطويراً للتشفير Coding ، ولكن توجـد شـفـرات تحت لغوية (مـثل : تعـابير الوجـه) وفـوق لغـوية (مـثل : التـقـاليـد الادبية) ، . ويتـضـمن تأويل الاقـوال الانسـانيـة المعـقدة استعمالاً مناسباً لعدد من الشفرات في وقت واحد .

علـم الدلالـة Semantics

في سـيـمـياء تشارلز موريس ، يشير علم الدلالة إلى ذلك الجانب من السـيـمـيـاء الذي يهتم بمـعـاني الاشارات قبل استعمالها في قول أو منطوق مـعين . (الجـانبـان الاخـران هما علم التركـيب والتـداوليـة) . ويـؤدي عـلـم الـدلالـة عند مـوريس إلى دراسـة مـا سماّه دي سـوسير الترابطات ، ومـا يسـمـيـه السيميائيون المتأخرون قوائم التبادل . ولقد حـاول بول ريكور البرهنة على انّ السـيـمـيـاء تهتم بالعـلاقات التبادلية فـقط ، وان علم الدلالة هو دراسـة القـضـايا ومـعـانيـهـا المرجـعية . والخـطاب العـادي يحط من قـدر الكلمـة ، فـعـبـارة مـثل :«انه مجرد دلالي » تعني انه مجرد من الدلالة اي معنى بلا إحالة أو نتيجة .

علـم التركيب Syntactics

علـم التركيب ، بصلته بالنحو Syntax ، ومن هنا بالوحدة التابعية Syntagm ، هو ذلك الجزء من السيمياء (عند تشارلز موريس) الذي يهتم بالقوانين التي تغطي القول والتأويل . وبهذا المعنى يعني شيئاً شبيهاً جداً بالنحو . وينبغي تمييزه من التداولية أي دراسة الظروف المحيطة بالقول ، وبخاصة العلاقة بين المتكلم والجمهور ، والسياق العام للخطاب . (انظر : التداولية وعلم الدلالة) .

القصة Story

في تقابلها مع «الخطاب» تشير القصة إلى الاحداث والمواقف التي يثيرها النص السردي . وفي تقابلها مع «الحبكة» (في نظريات الشكلانيين الروس وغيرهم) تشير إلى الاحداث في ترتيبها الزماني ـ التاريخي ، برغم كل إعادات الترتيب التي جرت عليها في عملية سبك الحبكة . والتأليف بين هذين المعنيين يساوي بين القصة والحكي . وفي النظرية السيميائية المعاصرة تكون القصة أو الحكي دائماً من انتاج قارىء النص ، استناداً إلى الإشارات الموجودة في النص ، ولكن ليس بالاعتماد عليها كلياً ابداً .

المؤشر (المؤشري) Index

في نظرية بيرس عن العلامات، تكون العلامة مؤشرية حين يكون هناك ارتباط ظاهري أو وجودي بين الإشارة وما تدلّ عليه:

آثار اقـدام (جمعة) على الرمال في (روبنسن كروزو) مؤشر حضور أناس عـنـد كـروزو . والـتـعـبـيرات اللا إرادية على الوجـه وفي الجـسم تعـد مـؤشرات لحـالات انفـعـالية ، وأصدق بالتالي من التقريرات اللغــوية عنهـا (الرمـوز) . تورد الخـدين ، الشحوب ، ارتجاف الاطراف ، إذا تكلم المرء بقـوة . ولكن مـا أن تفـهم الشـفرات حتى يكون اللاإرادي والـلاشـعـوري تحـت السيطرة . وقـد يُخلق تورد الخـدين شـعـورياً ، فـيتحول المؤشر إلى رمز تقليدي .

المـؤولـة Interpretant

في نظرية بيرس للإشـارات تتـسـبب كل إشـارة تُفـهم ، في وجود إشـارة اخـرى في ذهـن المــؤول . وهذه الاشـارة الثـانيـة هــي مـؤولة الاولى . على سـبيل المثـال ، حين تعـرض عليّ صـورة مـوزة ، تقـفز كلمـة مـوزة (في لغـتي) إلى ذهني كـمـؤولة . أو قد تعرض عليّ كلمة فـتـقـفـز إلى ذهني صورة أو أيقونة . ونحن نؤول الايقونات بالرموز ، والـرمـوز بـالايـقـونـات . وتبنى ايــكـو وديريدا فكرة ان تؤول اشـارة واحـدة بأخـرى ، وتم تقـديمـهـا على أنها ارتداد لانهائي سـمّي عملية توليد سيميائي لا محدود .

المحـاكـاة Mimesis

بـرغـم انّ هـذه الـكـلـمــة تحـمل مـعناها الموروث في المحـاكـاة والتـقليـد ، فـانها تستعمل في الوقت الحاضر بمعنيين اكثر تخصيصاً . فـفي تضادها مع الحكي diegesis تعني تمثـيل ما تقدم من احداث في تـضـاد مع تخيل الاحـداث القـائمـة على النص اللغـوي . انّ قـارىء

المسرحية يقوم بفعالية حكائية ، في حين يتحدث ممثل المسرحية بكلمات فيقلد ويحاكي أفعال النص . هذه هي المحاكاة . وفي سياق اخر ، تكون المحاكاة في تضاد مع السمطقة (او التوليد السيميائي Semiosis) . وهنا تعني المحاكاة محاولة اعتبار اللغة تمثيلاً بالمعنى الحرفي للكلمة . وحين يستحيل هذا ـ كما في الاستعارة والكناية والمجازات اللغوية الاخرى ـ ينبغي ان ينتقل المؤول من المحاكاة إلى السمطقة (التوليد السيميائي) . أي ان القارىء يجب ان يكف عن محاولة الانتقال من الكلمات إلى الاشياء ، ويقبل بمبدأ التوليد السيميائي اللامحدود منتقلاً من كلمة إلى كلمة ، ومن اشارة إلى اشارة . (انظر : المؤولة) .

المدلول Signified

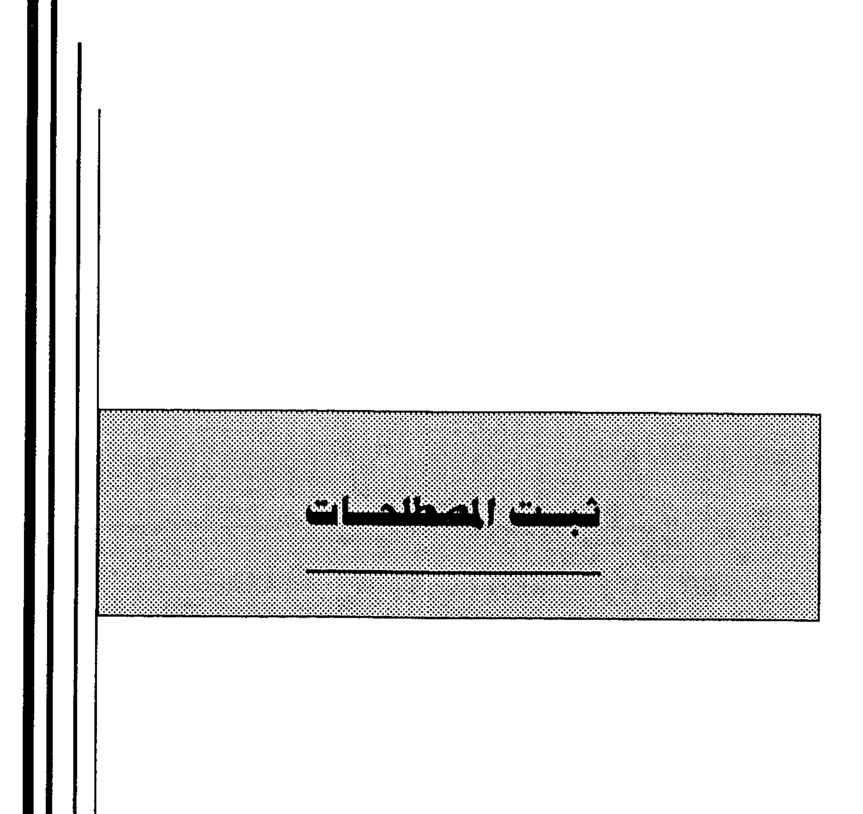
المدلول عند دي سوسير هو المفهوم Concept الذي يشكل الاشارة بارتباطه بصورة معينة . غير ان فكرة «المفهوم» اثبتت انها جامدة وعقلانية اكثر مما يجب بالنسبة إلى السيميولوجيين المتأخرين من امثال رولان بارت . وكلمة مدلول ما تزال مفيدة كطريقة للكلام عن معنى الاشارة دون طرح سؤال المرجع والاحالة ، لكنها في أحوال اخرى فقدت الكثير من فائدتها . (انظر : الدال) .

النص Text

مجموعة من العلامات التي تُنقل في وسط معين من مرسل إلى متلقٍّ باتباع شفرة أو مجموعة من الشفرات . ومتلقي هذه المجموعة

من العـلامـات ، وهو يتلقـاها نصـاً ، يباشر تأويلها على وفق ما يتوفر له من شـفـرة اوشـفرات مناسبة . فالاقتراب من قول أدبي بوصفه نصاً يعني اعـتـبـاره ، بهـذه الطريقـة ، منفـتـحـاً للتأويل ، برغم ارتباطه بمـعـايير نوعـيـة مـعينة . وفي هذا المعنى يقابل «النص» «العمـــل» Work الـــذي يمـثل كـيـاناً مـغـلقـاً ومكتـفـيـاً بذاته . وليس هـــذا بالتـمييز الصارم ، بل مجرد توكيد وتفريق طفيف .


Christmas Candle


ثبت المصطلحات



الفاعل	Actant
الأمثولة	Allegory
الغموض	Ambiguity
الشفرة	Code
التكثيف	Condensation
دلالة الايحاء	Connotation
قناة الاتصال	Contact
السياق	Context
التفكيك	Deconstruction
دلالة المطابقة	Denotation
تعاقبي	Diachronic
الحكي	Diegesis
حكائي	Diegetic
الخطاب	Discourse
الاستبدال	Displacement
الازدواجية	Duplicity
الديمومة	Duration

الحذف البلاغي ، أو الثغرة عند جينيت	Ellepsis
النقد النسوي	Feminism
القَصَص	Fiction
المجاز	Figure
مجازي	Figurative
الشكلانية	Formalism
التردد	Frequency
الايقونة	Icon
المتناص	Intertext
السخرية	Irony
الكفاءة اللغوية	Linguistic Competence
المعنى الحرفي	Literal meaning
الأدبية	Literariness
الكفاءة الأدبية	Literary Competence
القالب	Matrix
الوسط	Medium
الرسالة	Message

Metaphor	الاستعارة
Metonymy	الكناية
Mimesis	المحاكاة
Mimetic	محاكاتي
Monumentality	الفخامة
Narratee	المروي له
Narration	القص
Narrative	السرد
Narrativity	الساردية
Narrator	الراوي
New Criticism	النقد الجديد
Neuvelle Critique	النقد الفرنسي الجديد
Omniscient	العليم
Order	الترتيب
Paradigm	التبادل
Paradox	المغالطة
Paralepse	تجاهل العارف

Paralipse .... الإدماج

Pause .... الوقفة

Perspective .... المنظور

Pleasure .... المتعة

Plot .... الحبكة

Poeticity .... الشاعرية

Poetics .... الشعرية

Pragmatics .... التداولية

Proairetic Code .... الشفرة الفراسية

Pun .... التورية

Reference .... الاحالة

Rhetoric .... البلاغة

Semantics .... علم الدلالة

Sign .... الاشارة

Signifier and Singified .... الدال والمدلول

Simile .... التشبيه

Speech - Act Theory .... نظرية الفعل الكلامي

Story .... القصة

Symbol .... الرمز

Synchronic .... تزامني

Syntactics .... علم التركيب

Syntax .... النحو

Syntagmatic .... تبادلي

Tense .... الزمن

Text .... النص

Trope .... مجاز

Ungrammaticality .... التجاوز النحوي

Vision .... الرؤية

Voice .... الصوت

Work .... العمل

المؤلف : روبرت شولز :

ناقد أمريكي ، عمل استاذاً للآداب الانجليزية والأدب المقارن في عدد من الجامعات الأمريكية . له من المؤلفات : ـ

١ ـ رواه الحكايات fabulators .

٢ ـ الخيال العلمي : التاريخ ، العلم ، الرؤية .

٣ ـ طبيعة السرد (بالإشتراك مع روبرت كيلوغ) ١٩٦٦ .

٤ ـ البنيوية في الأدب ، ١٩٧٤ .

٥ ـ السيمياء والتأويل ، ١٩٨٢ .

٦ ـ سلطة النص ، ١٩٨٥ .

كتب للمترجـــم : ـ

١ ـ اللغـة علماً ، مقالات في علم اللغة الحديث دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ١٩٨٦ .

٢ ـ المعنى والكلمات ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ١٩٨٩ .

٣ ـ أقنعـة النص ، قـراءات نقـدية في الأدب ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ١٩٩١ .

٤ ـ كـتاب الرمل لبورخس (ترجمة) ، دار منارات ، عمان ، ١٩٩٠ .

٥ ـ فـلـسـفـة الـبـلاغـة لـريتـشـاردز (ترجمة ، بالاشتراك مع د. ناصر حـلاوي) بيروت ، ١٩٩١ .

٦ ـ اللغـــة والخطــاب الأدبي ، المــركــز الـثـقـافي العربي ، بيروت ، ١٩٩٣ .

٧ ـ الكنز والتأويــل ، قـراءات في الحكاية العـربيـة ، المركـز الـثـقافي العربي ، بيروت ، ١٩٩٣ .

* تحــت الطبــع .

٨ ـ شـعـريـة الـتأليف ، لبـوريس أوسـبنسكي (ترجمة ، بالاشتراك مع الدكتور ناصر حلاوي) .

٩ ـ العـمى والبصيرة ، لبول دي مان (ترجمة) .

روبرت شولز

السيمياء والتأويل

كتاب «السيمياء والتأويل» هذا محاولة للمزاوجة بين السيمياء الموضوعية والتأويل الذاتي ، وبين علمية المقروء وفاعلية القارىء . انه مراجعة للمدارس النقدية الحديثة في ضوء اهتمامها بهذين الحقلين ، ومحاولة لتلمس الحدود المشتركة بينهما . ويمتاز الكتاب بقدرته على مخاطبة القارىء المتوسط ، ولكنه في الوقت نفسه يثري فهم القارىء المطلع ، ويُثير أمامه كثيراً من الأسئلة . ولا يخفي المؤلف إنه يصل عند بعض النقاط الى ما يمكن اعتباره نقطة قطيعة مع الموروث السيميائي . ولا يكتفي الكتاب بطرح التصورات والمفاهيم النظرية ، بل يلاحقها في لحظة اشتغالها الفعلية على النصوص ، ويقابل بينها على مستويات متعددة ، مضيئاً كل مقترب بما يماثله أو يخالفه ، ومحاولاً في الوقت نفسه تقديم وجهة نظر شخصية تتابع التفصيلات الدقيقة ، دون أن تغفل الانتباه إلى تمحيص أسسها .



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ، ص.ب : ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي : موكيالي ، هـ ٨٠٧٩٠٠/١
تلكس : LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

الغلاف : زهير أبو شايب